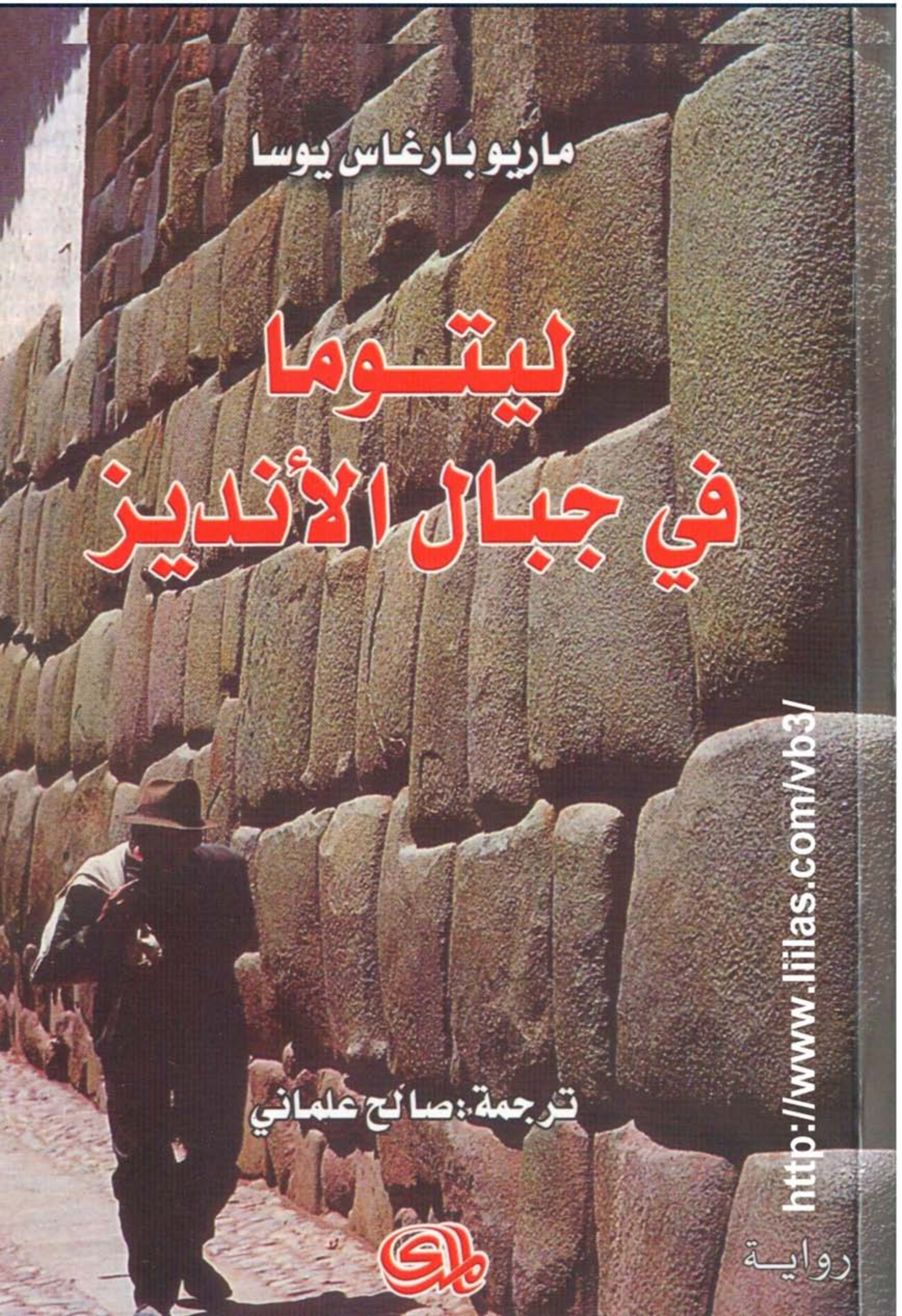

http://www.liilas.com/vb3/

اسم المؤلف: ماريو بارغاس يوسا
عنوان الكتاب: ليتوما في جبال الأنديز
ترجمة: صالح علماني
الناشر: المدى
الطبعة الأولى: ٢٠٠٩

الحقوق محفوظة

Author : Mario Vargas Llosa
Title : Lituma en los Andes
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2009

Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ماريو بارغاس يوسا

ليتوما في جبال الأنديز

روايـة

ترجمة صالح علماني

إلى بياتريث دي موورا، صديقة عزيزة جداً، وناشرة مثالية.

Cain's City built with Human Blood,
not Blood of Bulls and Goats.

William Blake
The Ghost of Abel

مدينة قابيل شيدت بالدم البشري،
وليس بدم الثيران والماعز.
وليام بليك
«شبح هابيل»

HAMDAN.B
24/01/10

القسم الأول

I

حين ظهرت الهندية عند باب الكوخ، حزر ليتوما ما الذي ستقوله المرأة، وقد قالته فعلاً، ولكن بلغة الكيتشوا[1]، مغمغمة ومفلتة خيطاً من اللعاب كان يسيل من طرفي فمها الخالي من الأسنان.

ـ ما الذي تقوله يا توماسيتو؟

ـ لست أفهمها جيداً أيها العريف.

توجه الحارس الأهلي إلى القادمة الجديدة، متحدثاً بالكيتشوا أيضاً، ومومئاً لها بيديه كي تتكلم ببطء. فكررت الهندية تلك الأصوات المتماثلة التي توحي إلى ليتوما بموسيقا بربرية. جلس فجأة بعصبية بالغة:

ـ ما الذي تقوله؟

ـ لقد فُقد زوجها ـ غمغم مساعده، ثم أضاف: ـ منذ أربعة أيام كما يبدو.

تلعثم ليتوما وهو يشعر بأن وجهه يمتلئ بالعرق.

ـ ها قد صاروا ثلاثة، يا لأمهم العاهرة.

ـ وما الذي سنفعله يا حضرة العريف.

صعدت قشعريرة ونزلت في نخاع ليتوما الشوكي، وقال:

ـ خذ أقوالها. فلتخبرك بكل ما تعرفه.

---

[1] الكيتشوا: لغة تعود إلى ما قبل الفتح الإسباني، ومازال يتكلمها حتى الآن معظم أهالي منطقة الأنديز.

ـ ولكن، ما الذي يحدث هنا ـ صاح الحارس الأهلي ـ. في البداية الأبكم، ثم بعده الأمهق والآن أحد مراقبي العمال في مشروع شق الطريق. هذا غير ممكن يا حضرة العريف.

غير ممكن، ولكنه يحدث، وللمرة الثالثة. تصور ليتوما الوجوه الجامدة والآذان الجليدية التي سيراقبه بها أهالي ناكوس، وعمال المعسكر، والهنود العاديون عندما سيذهب ليسألهم إن كانوا يعرفون مكان وجود زوج هذه المرأة وأحس بالغم والعجز اللذين أحس بهما في المرتين السابقتين حين حاول استجوابهم عن الشخصين الآخرين اللذين اختفت آثارهما: رؤوس نافية، دمدمات بلا معنى، نظرات متهربة، أفواه وحواجب مزمومة، هاجس بتهديدات. وسيكون الأمر نفسه هذه المرة.

كان توماس قد بدأ باستجواب المرأة، وكان يسجل ملاحظاته على دفتر بقلم رصاص سيئ البري، يبله بلسانه بين حين وآخر. وفكر ليتوما: «ها قد وصل الإرهابيون إلينا. سيأتون في أي ليلة من هذه الليالي». لقد كانت امرأة أيضاً هي التي أعلمتهما باختفاء الأبرص: أمه أم زوجته. لم يعرفا ذلك قطّ. كان الرجل قد خرج إلى العمل، أو من العمل، ولم يصل إلى هدفه. أما بيدريتو فقد نزل إلى القرية ليشتري زجاجة بيرة للشرطيين ولم يرجع. لم يرهما أحد، لم يلحظ أحد عليهما الخوف أو التردد أو المرض قبل اختفاء أثرهما. أتكون الجبال قد ابتلعتهما إذن؟ وعلى الرغم من مرور ثلاثة أسابيع، مازال العريف ليتوما والحارس توماس كارينيو تائهين في القمر مثلما كانا في اليوم الأول. والآن، شخص ثالث يختفي، يا للعاهرة العظيمة، مسح ليتوما يديه ببنطاله.

كان المطر قد بدأ بالهطول. وكان الوابل يقرع توتياء السقف بأصوات غير منتظمة وقوية جداً. لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة

مساء بعد، ولكن العاصفة أظلمت السماء، وصار الوقت يبدو ليلاً. كانت تسمع أصوات رعود نائية تدوي في الجبال بزمجرات متقطعة، تصعد من باطن تلك الأراضي فيظنها أولئك الجبليون مسكونة بثيران وحيات ونسور كوندور وأرواح. هل يؤمن الهنود بكل ذلك حقاً؟ طبعاً يا حضرة العريف، حتى إنهم يُصلّون ويقدمون لها القرابين، ألم تر أطباق الطعام التي يتركونها لها في شقوق صخر سلسلة الجبال؟ كلما حدثوه بهذه الأمور في حانة ديونيسيو أو أثناء مباراة بكرة القدم، لم يكن ليتوما يعرف إذا ما كانوا يتكلمون بجد أم إنهم يسخرون منه لأنه ساحلي. وبين لحظة وأخرى تظهر من شق في أحد جدران الكوخ حية صغيرة لونها مائل إلى الصفرة تنقر الغيوم. وهل يؤمن الجبليون حقاً بأن البرق هو سحلية السماء؟ كانت ستائر المطر قد غيبت أثر البراكات، والخلاطات، والمحدلات، وسيارات الجيب، وبيوت القرويين التي كانت تظهر من قبل بين أشجار الأوكالبتوس على السفح المقابل. فكر: «كأن الجميع قد اختفوا». كان عدد العمال نحو مئتين، وقد جاؤوا من اياكوتشو، ومن أبويماك، وخصوصاً من هوانكايو وكونثيبثيون في خونين، ومن بامباس في هوانكافيليكا. أما من الساحل فلم يكن هناك أحد على حدّ علمه، حتى إن مساعده ليس ساحلياً. ولكن، على الرغم من أن توماس قد ولد في سيكواني، وعلى الرغم من أنه يتكلم لغة الكيتشوا، فإنه يبدو كرويللي[1]. وهو نفسه من أحضر إلى ناكوس الأبكم بيدرو تينوكو، أول المختفين.

إنه شخص لا يعرف المواربة هذا الشرطي، بالرغم من أنه كئيب بعض الشيء. إنه يتصارح في الليل مع ليتوما ويعرف كيف يفتح قلبه لإقامة صداقة. لقد قال له العريف بعد قليل من مجيئه إلى الموقع: «إن

---

[1] كرويللي criollo: مَنْ هو مِن أصل أوروبي ومولود في أميركا.

طريقتك في التعامل تجعلك جديراً بأن تكون قد ولدت في الساحل. بل وفي بيورا تحديداً يا توماسيتو». «أعرف أن هذا الكلام يعني الكثير عندما تكون أنت قائله يا حضرة العريف» لولا رفقته لكانت الحياة قاتمة في هذه العزلة. ما الذي كان سيفعله في «بونا»[1]، بين جبليين أفظاظ ومتشككين يقتتلون من أجل السياسة، والأدهى من ذلك أنهم يختلفون! لماذا لا يكون في موطنه؟ تصور نفسه محاطاً بزجاجات البيرة في حانة الريو - بار، بين «المحصنين»، أصدقائه مدى الحياة، في ليلة بيورانية مفعمة بالنجوم والفالسات ورائحة الماعز والخروب. فارتعشت أسنانه في نوبة كآبة.

- انتهى الأمر يا حضرة العريف - قال الحارس -. السيدة لا تعرف شيئاً في الواقع. وتكاد تموت خوفاً، ألا تلاحظ ذلك؟

- قل لها إننا سنعمل كل ما بوسعنا للعثور على زوجها.

رسم ليتوما ابتسامة وأومأ إلى الهندية، وأومأ بيده بأنه يمكنها الذهاب. فواصلت هي النظر إليه دون تأثر. كانت ضئيلة ودون سن محددة، عظامها هشة مثل عظام عصفور، وكانت تختفي تحت تنانيرها المتعددة وقبعتها الرثة التي تكاد تسقط عن رأسها. ولكن هناك شيئاً لا يمكن كسره في وجهها وعينيها الصغيرتين المغضنتين.

- يبدو أنها كانت تنتظر اختفاء زوجها يا حضرة العريف. فهي تقول «كان ذلك سيحدث، كان لا بد من حدوثه». ولكنها لم تسمع بالطبع أي شيء عن الإرهابيين أو عن ميليشيا الدرب[2].

ودون أي حركة وداع من رأسها، دارت المرأة على عقبيها

---

[1] بونا (Puna) تسمية تطلق في البيرو وبوليفيا على المرتفعات المتوسطة في جبال الأنديز.

[2] الإشارة إلى منظمة «الدرب المضيء» ماوية التوجه، كما سيتضح فيما بعد.

وخرجت لتواجه وابل المطر. وبعد دقائق قليلة ذابت في الرطوبة الرصاصية، متوجهة نحو المعسكر. ظل العريف والشرطي لبعض الوقت دون كلام. وأخيراً رن في أذني ليتوما صوت مساعده كما في تعزية:

– سأقول لك شيئاً. أنت وأنا لن نخرج حيين من هنا... لقد حاصرونا، فلماذا نخدع نفسينا.

هز ليتوما كتفيه، إنه هو الذي يقنط عادة ومساعده هو الذي يرفع من معنوياته. أما اليوم فقد تبادلا الأدوار.

- لا تفقد رباطة جأشك يا توماسيتو، وإلا سيجدوننا مخدرين حين يأتون، ولن نتمكن حتى من الدفاع عن نفسينا.

كانت الريح تهز توتياء السقف وتسرب الماء يتطاير داخل المسكن. إنها غرفة واحدة مقسومة بحاجز خشبي ومدعمة بأكياس معبأة بأحجار وأتربة. أحد جانبي الغرفة كان يمثل مخفر الحرس الأهلي وفيه لوح خشبي مبسوط فوق حاملين ـ منضدة المكتب ـ وصندوق يُحفظ فيه سجل القيود وأوامر الخدمة. وفي الجانب الآخر يوجد سريران عسكريان متلاصقان بسبب ضيق المكان. وقد كانا يستضيئان بمصباح كيروسين، ولديهما مذياع يعمل بالبطاريات ويمكنه، حين لا تكون هناك تقلبات في الأحوال الجوية، أن يلتقط الإذاعة الوطنية وبث راديو خونين. وكان العريف والشرطي يمضيان الأمسيات والليالي ملتصقين بالمذياع في محاولة لسماع الأخبار من ليما أو من هوانكايو. وعلى الأرضية الترابية الممهدة كان هناك جلدا خروف ونعجة، وحصيرة وموقد بريموس، وإبريق وأوانٍ، وحقيبتا ليتوما وتوماس وخزانة دون قاعدة - خزانة الأسلحة ـ يضعان فيها البنادق والرشاشات وبنادق الصيد. أما المسدسات فيحملانها معهما دائماً ويضعانها في الليل تحت الوسادة. كانا يجلسان تحت

صورة باهتة الألوان لقلب يسوع ـ إعلان لشراب إنكاكولا ـ وبقيا يستمعان عدة دقائق لسقوط المطر، وأخيراً علق ليتوما:

ـ لا أظنهم قتلوا هؤلاء الثلاثة يا توماسيتو. لقد أخذوهم معهم، وربما ضموهم إلى ميليشياهم. أو ربما كان هؤلاء الثلاثة إرهابيين أصلاً. وهل من عادة جماعة الدرب إخفاء الناس؟ إنهم يقتلونهم فقط، ويتركون شعاراتهم حتى يُعرف الأمر.

ـ بيدريتو تينوكو إرهابي؟ غير ممكن يا عريفي، وأنا واثق من ذلك ـ قال الحارس ـ. هذا يعني أن جماعة الدرب صاروا عند بابنا. هؤلاء الإرهابيون لن يضمونا إلى ميليشياهم. سيفرموننا وحسب. إنني أفكر أحياناً في ما إذا كانوا لم يرسلونا، أنا وأنت، إلى هنا للتضحية بنا فقط.

نهض ليتوما واقفاً:

ـ كفاك قنوطاً. أعدَّ لنا قهوة في هذا الجو البرازي. وبعد ذلك سنهتم بأمر هذا الشخص.. ما اسمه هذا الأخير؟

ـ ديميتريو تشانكا يا عريفي. وهو رئيس ورشة الحفر بالبريمة.

ـ أيريدون أن يقولوا لنا إن الثالثة ثابتة؟ ربما سنتمكن بفضل هذا الأخير من كشف سر الثلاثة.

ذهب الشرطي ليُحضر فناجين الصفيح ويشعل موقد البريموس.

ـ حين قال لي الملازم بانكوروفو، هناك في انداهوايلاس، إنهم سيرسلونني إلى نهاية العالم هذه، فكرت لنفسي: «هذا جيد، سيقضي عليك الإرهابيون في ناكوس يا كارينيتو، وكلما بكّروا في ذلك يكون أفضل» ـ تمتم توماس بذلك ثم أضاف: ـ كنت متعباً من الحياة، أو هذا ما كنت أظنه على الأقل يا عريفي. ولكنني إذا أخذت في الاعتبار الخوف الذي أشعر به الآن، فمن الواضح أنني لست راغباً في الموت.

ـ من يرغب في الموت قبل موعده هو شخص مخصي دون ريب،

هنالك في الحياة أشياء بديعة، حتى ولو كانت غير موجودة في هذه الأنحاء. هل كنت تود الموت حقاً؟ أيمكنني أن أعرف السبب، مع أنك مازلت شاباً؟

- وماذا سيكون السبب سوى تلك الأشياء. - وضحك الحارس وهو يضع غلاية القهوة فوق لهب البريموس الأزرق والأحمر.

كان شاباً نحيلاً وبارز العظام، ولكنه قوي جداً، له عينان عميقتان وحيويتان، وبشرة شاحبة وأسنان بيضاء ناتئة يراها ليتوما لامعة في ظلمة الكوخ في ليالي أرقه. وغامر العريف بالقول متفاخراً:

- إنك حزين بسب أنثى تحبها.

- ولم يتألم المرء حباً إن لم يكن بسبب أنثى - لان توماسيتو -. وعليك أن تفتخر يا عريفي، فهي بيورانية أيضاً.

- واحدة من بلدياتي - وافق العريف مبتسماً -. لا أقل.

❖ ❖ ❖

الصغيرة ميشيل تشعر بالاختناق في المرتفعات - كانت قد شكت من ضغط في صدغيها مماثل لذاك الذي تسببه لها أفلام الرعب التي تفتنها، ومن إحساس عام وغير محدد بالضيق - ولكنها كانت متأثرة مع ذلك من كآبة المشهد وخشونته. أما ألبير بالمقابل، فكان يشعر بأنه على أحسن ما يرام. وكأنه أمضى حياته كلها على ارتفاع ثلاثة أو أربعة آلاف متر، بين هذه القمم الملطخة ببقع الثلج وبين قطعان اللاما التي تقطع الدرب بين حين وآخر. كانت الحافلة تهتز بشدة تبدو معها وكأنها ستتفكك في مطبات الطريق وفي تلك الحفر والأحجار التي تظهر في كل لحظة متحدية هيكل السيارة المخلع. كانا الأجنبيين الوحيدين، ولكن هذين الفرنسيين لم يلفتا نظر رفاقهما في الرحلة الذين لم ينظروا إليهما حتى وهم

يسمعونهما يتكلمان بلغة أجنبية. كان الركاب يلفون أنفسهم بشالات وعباءات بونتشو، وكان بعضهم يضع على رأسه تشويّو[1]، ويتدثرون من أجل الليل الوشيك، وكانوا يحملون معهم حزماً وصناديق وحقائب صفيحية. بل إن سيدة بينهم أحضرت معها دجاجات تقوق. ولكن ألبير والصغيرة ميشيل لم يبديا أدنى اهتمام بضيق المقعد أو بازدحام الحافلة.

سألها:

Ca va mieux?-

Oui, un peu mieux -[2]

وبعد لحظة قالت ميشيل الصغيرة ما كان ألبير يفكر فيه أيضاً: لقد كان هو على حق عندما تناقشا، في بينسيون الميلاغرو في ليما، حول إذا ما كانا سيقومان بالرحلة إلى كوسكو براً أم بالطائرة. وقد سعت هي للسفر بالطائرة، عملاً بنصيحة ذاك السيد من السفارة، بينما أصر هو على السفر بالحافلة، فاضطرت الصغيرة ميشيل إلى الرضوخ. ولم تأسف لذلك، بل على العكس، كانت ستشعر بالأسف لو أنها لم تفعل ذلك.

هتف ألبير وهو يشير من خلال زجاج النافذة المحزز:

- طبعاً كنت ستأسفين. أليس رائعاً؟

كانت الشمس قد بدأت بالاختفاء، وكان هناك ذيل طاووس مهيب في الأفق. وهضبة طويلة مخضرة، لا أشجار فيها ولا مساكن، ولا بشر أو حيوانات، تمتد إلى يسارهما، ملتمعة بتألقات

---

[1] تشويّو (Chullo) طاقية مع واقية للأذنين تصنع من وبر اللاما ويستخدمها هنود منطقة الأنديز.

[2] بالفرنسية في الأصل: - أتشعرين بتحسن؟

- نعم، إنني أحسن قليلاً.

مائيـة، وكـأن هنـاك بـين خـصل العـشب الطويـل الأصـفر جـداول أو بحيرات. أما إلى يمينهما بالمقابل فكانت تنتصب جغرافية عمودية غير متناسقة من ارتفاعات وانحدارات وانكسارات صخرية.

- لا بد أن تكون التيبت هكذا - تمتمت الصغيرة ميشيل.

- أؤكد لك أن هذا أهم من التيبت - ردّ ألبير -. وأقول لك سلفاً:
Le pérou, ca vaux le pérou![1]

كان الليل قد خيم أمام الحافلة العتيقة، وبدأ الجو يبرد. وكانت تلمع بعض النجوم في السماء ذات اللون الأزرق النيلي.

- بررررر... - تكورت الصغيرة ميشيل على نفسها - الآن عرفت لماذا يسافرون متدثرين جيداً هكذا. كم يتبدل الطقس في الأنديز! في الصباح كان الحر خانقاً، والآن في الليل صار الجو جليدياً.

- هذه الرحلة ستكون أهم حدث في حياتنا، وسترين - قال ألبير.

كان أحدهم قد أشعل مذياعاً، وبعد سلسلة من التلعثمات المعدنية، صدحت موسيقا حزينة رتيبة.

تعرف ألبير على صوت الآلتين الموسيقيتين:

- تشارانغو وكينا[2]. سنشتري ناي كينا في كوسكو. وسنتعلم رقصة لوس هوايانوس...

- وسنقيم بعد عودتنا حفلة راقصة في المدرسة - فُتنت الصغيرة ميشيل - *ليلة البيرو!* وسيحضرها أهالي كونياك جميعهم.

- إذا رغبت في النوم قليلاً، سأكون وسادتك - اقترح عليها ألبير.

- لم أرك سعيداً مثلما أنت الآن - ابتسمت له.

- إنه حلم سنتين - قال موافقاً -. لقد أمضيتهما وأنا أوفر المال وأقرأ عن الإنكا والبيرو. وكنت في أثناء ذلك أتخيل هذا كله.

---

[1] بالفرنسية في الأصل: البيرو هي البيرو.

[2] آلتان موسيقيتان محليتان في البيرو، الأولى تشبه الغيتار والثانية تشبه الناي.

ـ ولم يخب أملك ـ ضحكت رفيقته ـ. حسن، وأنا كذلك. أشكرك لأنك شجعتني على المجيء. أظن أن كورامينات الغلوكوز قد أعطت مفعولها، فأنا أشعر بضيق أقل من الارتفاع وتنفسي صار أفضل.

بعد لحظة من ذلك أحس ألبير بأنها تغفو. فوضع ذراعه فوق كتفيها وأسند رأسها على جسده. وبعد قليل كانت ميشيل الصغيرة تنام بالرغم من اهتزاز الحافلة وتعثرها. أما هو فيعرف أنه لن يغمض عينيه. لقد كان متلهفاً جداً، متشوقاً لحصر كل شيء في ذاكرته حتى يتذكره فيما بعد، ويكتبه في اليوميات التي يسوّدها كل ليلة منذ ركبا القطار في محطة كونياك، وكي يرويه بعد ذلك لرفاقه بكل تفاصيله، وبشيء من المبالغة هنا وهناك.

أما تلاميذه في المدرسة فسيقدم لهم دروساً مع عرض سلايدات، وسيستعير من أجل ذلك جهاز العرض من أبي ميشيل. البيرو! ها هي ذي: فسيحة، غامضة، اخضرار، فقر، ثراء، عراقة، تكتّم محكم. إنها هذا المشهد القمري وهذه الوجوه النحاسية الجافة للنساء والرجال المحيطين به. إنهم أناس مغلقون في الحقيقة. وهم مختلفون جداً عن أولئك الناس الذين رآهم في ليما. حيث وجوه البيض والسود والخلاسيين الذين يتمكن، بشيء من الجهد، التواصل معهم. أما أهالي الجبال فيفصله عنهم شيء لا يمكن تجاوزه، لقد حاول عدة مرات التحدث بإسبانيته الركيكة إلى الجالسين قربه، ولكن دون أي قدر من النجاح. وقد ذكّرته الصغيرة ميشيل: «ليس عامل العرق هو ما يفصل بيننا وبينهم، وإنما هو حاجز الثقافة». فهؤلاء هم المتحدرون الحقيقيون من شعب الإنكا، وليس أهل ليما، لقد صعد أجدادهم إلى أعشاش النسور في ماتشو بيتشو، تلك الصخور العظيمة للمعبد ـ الحصن، حيث سيكون هو وصديقته بعد ثلاثة أيام.

كان الليل قد خيم تماماً. وبالرغم من رغبته في البقاء مستيقظاً، فقد أحس بأن الدوار اللذيذ يتغلب عليه. وفكر: «إذا نمت ستلتوي رقبتي». لقد كانا يشغلان المقعد الثالث إلى اليمين، وبينما هو يهوي إلى النوم، سمع ألبير السائق وهو يصفر. ثم بدا له بعدها وكأنه يسبح في ماء بارد. وكانت هناك نجوم مذنبة تسقط على الهضبة الفسيحة. كان سعيداً، بالرغم من أسفه لأن المشهد سيتشوه في ذاكرته بسبب هذا الألم في عنقه وضيقه من عدم إسناد رأسه إلى شيء طري، فكان هذان العائقان مثل شامة مغطاة بالشعر في وجه جميل. وفجأة أحس بمن يهزه بعنف: فسأل مذهولاً:

ـ هل وصلنا إلى انداهوايلاس.

وهمست الصغيرة ميشيل في أذنه:

ـ لست أدري ما الذي يحدث.

فرك عينيه وكانت هناك حزم ضوء داخل الحافلة وخارجها. سمع أصواتاً منطفئة، ووشوشات، وصرخة بدت كأنها شتيمة، وأحس بحركات مضطربة في كل مكان. كان الليل قاتماً، ومن خلال الزجاج المحزز كانت تلمع نظرات النجوم.

ـ سأسأل السائق عما يحدث.

لم تسمح له الصغيرة ميشيل بالنهوض. وسمعها تقول:

ـ من يكونون؟ ظننتهم جنوداً، ولكنهم ليسوا كذلك. انظر، هناك أناس يبكون.

الوجوه تظهر وتختفي بسرعة مع حركة المصابيح. يبدو أنهم كثيرو العدد، يحيطون بالحافلة. والآن استيقظ أخيراً، واعتادت عيناه على الظلام. انتبه ألبير إلى أن عدداً منهم يغطون وجوههم بأقنعة لا تظهر منها إلا عيونهم. وتلك الأشياء اللامعة هي أسلحة، وماذا يمكن أن تكون غير ذلك.

تمتمت الفتاة وهي ترتعش من رأسها حتى قدميها:

ـ موظف السفارة كان على صواب. كان علينا أن نسافر بالطائرة، لست أدري لماذا جاريتك ووافقتك على المجيء. لا بد أنك تدرك من يكونون، أليس كذلك؟

فتح أحدهم باب الحافلة فبعثر شعرهما تيار هواء بارد. دخل شبحان بلا وجوه، وأحس ألبير للحظات بأن ضوء المصابيح يبهر بصره. أصدرا أمراً لم يفهمه. فكررا الأمر بصوت أقوى.

ـ لا تخافي ـ همس في أذن الصغيرة ميشيل ـ. ليست لنا أي علاقة بكل هذا، فنحن سائحان.

نهض جميع الركاب واقفين وهم يضعون أيديهم فوق رؤوسهم، ثم بدؤوا ينزلون من الحافلة. كرر ألبير القول:

ـ لن يحدث أي شيء. نحن أجنبيان، سأوضح لهم ذلك. تعالي، فلننزل.

نزلا مختلطين بالحشد المتزاحم، وحين خرجا شطرت الريح الجليدية وجهيهما. بقيا مع الجمع، متلاصقين يمسك كل منهما بذراع الآخر. كانا يسمعان كلمات متفرقة، همسات، ولم يتمكن ألبير من فهم ما يقولونه. ولكنهم كانوا يتكلمون الإسبانية وليس الكيتشوا.

ـ من فضلك أيها السيد؟ ـ قال ألبير ذلك متوجهاً إلى الرجل المتدثر ببونتشو الذي يقف بجانبه، وعلى الفور زمجر صوت راعد: «اصمت!» من الأفضل ألا يفتح فمه. ستأتي اللحظة المناسبة على أي حال ليوضح من هما وما الذي يفعلانه هناك. كانت ميشيل الصغيرة تمسك ذراعه بكلتا يديها، وقد لمح ألبير أظفارها من خلال أكمام ثوبها الواسعة. أحدهم ـ هو؟ ـ كانت أسنانه تصطك.

من أوقفوا الحافلة يكادون لا يتبادلون الكلام فيما بينهم.

كانوا يحيطون بهم، وكان عددهم كبيراً، عشرين، ثلاثين، ربما أكثر. ما الذي ينتظرونه؟ وعلى ضوء المصابيح اليدوية المتحرك اكتشف ألبير والصغيرة ميشيل وجود نساء بين المهاجمين. بعضهن يضعن أقنعة وأخريات سافرات الوجوه. بعضهن يحملن أسلحة نارية وأخريات مسلحات بالعصي ومناجل المتشيتي. وجميعهن شابات.

دوى في العتمة صوت آمر آخر لم يفهمه ألبير أيضاً. بدأ رفاقه في السفر يبحثون في جيوبهم ومحافظهم، ويقدمون أوراقاً وبطاقات هوية. فأخرجا جوازي سفرهما من الجراب المثبت حول خصريهما. كان ارتعاش الصغيرة ميشيل يزداد أكثر فأكثر، ولكنه لم يجرؤ على طمأنتها حتى لا يستفزهم، ولم يجرؤ كذلك على التأكيد لها بأنهم سيفتحون الآن جوازي سفرهما ويرون أنهما سائحان فرنسيان، وعندئذ سينتهي الخطر، وربما سيحتفظان بدولاراتهما أيضاً. وهي ليست كثيرة لحسن الحظ. أما شيكات الترافل فهي مخبأة في حزام ألبير ذي البطانة المزدوجة، وربما لن يكتشفوا مكانها إذا حالفهما قليل من الحظ.

بدأ ثلاثة منهم بجمع الوثائق، وتوغلوا بين صفوف الركاب، وعندما وصلوا إليهما مد ألبير جوازي السفر إلى الشبح الأنثوي الذي حمل بندقية معلقة من حزامها، ودمدم في الوقت نفسه:

ـ سائحان فرنسيان. لا يعرف إسبانية يا آنسة.

ـ اصمت! ـ صرخت وهي تنزع جوازي السفر. كان صوت طفلة حازمة وساخطة: ـ اخرس.

فكر ألبير في كم كان هادئاً ونظيفاً كل شيء هناك في الأعلى، في تلك السماء العميقة الملطخة بالنجوم، وتناقض ذلك مع التوتر المتوعد هنا في الأسفل. كان خوفه قد تبخر. عندما يصبح هذا كله مجرد ذكريات، وعندما يرويه عشرات المرات لرفاقه

وتلاميذه في المدرسة، في كونياك، سيسأل الصغيرة ميشيل: «ألم أكن محقاً في تفضيل الحافلة على الطائرة؟ لو لم نفعل ذلك لكنا خسرنا أفضل تجربة في الرحلة».

بقي يحرسهم نحو ستة رجال مسلحين ببنادق رشاشة، وكانوا طوال الوقت يبحثون عن عيونهم بحزم ضوء المصابيح اليدوية. أما الآخرون فقد ابتعدوا بضعة أمتار وكانوا يبدون وكأنهم في اجتماع سري. استنتج ألبير أنهم يتفحصون الوثائق، وأنهم سيفعلون ذلك بدقة. هل يعرفون جميعهم القراءة؟ عندما يرون أنهما ليسا من هنا، وإنما فرنسيان فقيران، ممن يحملون جعبة الظهر ويركبون الحافلة، سيعتذرون منهما، كان البرد يخترق عظامه. احتضن ميشيل الصغيرة وهو يفكر: «لقد كان موظف السفارة محقاً. كان علينا ركوب الطائرة سأعتذر منكِ عندما يصبح بإمكاننا التكلم».

كانت الدقائق تتحول إلى ساعات. وكان واثقاً عدة مرات من أنه سيسقط مغمى عليه من البرد والإرهاق. وعندما بدأ الركاب الآخرون بالجلوس على الأرض، حذا هو والصغيرة ميشيل حذوهم، وجلسا متلاصقين. بقيا صامتين، وكل منهما يلتصق بالآخر طلباً للدفء. رجع مختطفوهم بعد وقت طويل، وأخذوا يوقفونهم واحداً واحداً ويتأملون وجوههم، يدسون المصابيح اليدوية في أعينهم ويدفعونهم، وبدؤوا يعيدون الركاب إلى الحافلة. كان الفجر قد بدأ بالبزوغ. وبدأت هالة مائلة إلى الزرقة بالظهور عند خط الجبال. وكانت الصغيرة ميشيل ساكنة جداً حتى لتبدو كأنها نائمة. لكن عينيها كانتا لا تزالان مفتوحتين. نهض ألبير بمشقة وهو يشعر بأن عظامه تصرّ، وكان عليه أن يوقف الصغيرة ميشيل بشدها من ذراعيها. كان يشعر بالنعاس، مع تشنجات في العضلات وثقل في الرأس، وخطر له أنها تعاني هي أيضاً من داء المرتفعات ذاك الذي عذبها

كثيراً في الساعات الأولى من صعود سلسلة الجبال. يبدو أن الكابوس كان على وشك الانتهاء. فالمسافرون قد وقفوا في صفٍ بعضهم وراء بعض وبدؤوا يصعدون إلى الحافلة وعندما جاء دورهما في الصعود وجّه الشابان المقنعان اللذان كانا عند باب الحافلة بندقيتيهما إلى صدره، وأشارا إليه بالتنحي دون أن ينطقا بكلمة واحدة.

- لماذا؟ - سألهما ألبير - نحن سائحان فرنسيان.

تقدم أحدهما منه بحركة متوعدة، وقرب وجهه منه وزمجر:

- اصمت! اخرس!

- لا إسبانية - صاحت الصغيرة ميشيل -. سائح! سائح!

جرى تطويقهما، وتثبيتهما من ذراعيهما، ودفعهما، وإبعادهما عن بقية الركاب. وقبل أن يفهما ما الذي يحدث، بدأ محرك الحافلة يهدر وآلاتها تنشط ومحركها يهتز. ورأياها تبتعد متمايلة على ذلك الدرب الضائع في النجود الأنديزية.

- ما الذي فعلناه؟ - قالت ميشيل بالفرنسية - ماذا سيفعلون بنا؟

- سيطلبون فدية من السفارة - فتلعثم ألبير.

- وهذا الرجل، لم يستبقوه من أجل الحصول على أي فدية. - لم يعد يبدو على ميشيل أنها خائفة، بل كانت تبدو هلئجة، متمردة.

الراكب الآخر الذي أبقوه معهما كان قصيراً وبديناً. تعرف ألبير على قبعته وشاربه الرفيع. لقد كان يجلس في المقعد الأول، وكان يدخن دون توقف وينحني أحياناً ليتحدث مع السائق. كان يتلوى ويتوسل مومئاً برأسه ويديه. وكانوا يحيطون به. لقد نسوه هو والصغيرة ميشيل.

- أترى تلك الأحجار؟ - قالت متأوهة - أتراها؟ أتراها؟

كان ضوء النهار يتقدم بسرعة على الهضبة، وكانت الأجساد

والأشكال تتميز بوضوح. لقد كانوا شباباً، مراهقين. كانوا فقراء، وكان بعضهم أطفالاً. وإضافة إلى البنادق والمسدسات ومناجل المتشيتي والهراوى، كان كثيرون منهم يحملون أحجاراً في أيديهم. الرجل ذو القبعة الجاثي على ركبتيه كان يقاطع إصبعين على شكل صليب ويحلف وهو يرفع رأسه نحو السماء. إلى أن انغلقت الدائرة من حوله، وأخفته عن نظرهما.

سمعاه يصرخ، يتوسل. وكانوا يتدافعون حوله ويتنافسون ويحرضون بعضهم بعضاً، وكانت الأحجار والأيدي تنزل وتعلو، تنزل وتعلو.

- نحن فرنسيان - قالت الصغيرة ميشيل.

- لا تفعلوا هذا يا سيدي - صرخ ألبير -. نحن سائحان فرنسيان يا سيدي.

كانوا أطفالاً تقريباً، أجل. ولكن بوجوه خشنة أحرقها البرد، مثل تلك الأقدام البارزة من الصنادل المصنوعة من إطارات السيارات التي ينتعلها بعضهم، ومثل الأحجار في أيديهم المغطاة بالحزاز التي بدأت تضرب.

- اقتلونا بالرصاص - صرخ ألبير بالفرنسية، وقد غشي بصره، وهو يضم إليه الصغيرة ميشيل، حائلاً بينها وبين تلكالأذرع الضارية -. نحن شابان أيضاً يا سنيور، سنيور!

❖ ❖ ❖

- عندما سمعتُ أن الرجل بدأ يضربها وبدأت هي تبكي، اقشعر بدني - قال الشرطي - وفكرت: مثل المرة السابقة، مثلما حدث في بوكايبا. يا لهذا الحظ.

لاحظ ليتوما غضب توماس كارينيو وقلقه وهو يستحضر ذكرى تلك الحادثة. هل نسي أنه موجود معه وأنه يستمع إليه؟

- عندما أرسلني عرابي لأقوم بحماية تشانشو أول مرة، أحسست

بفخر كبير ـ أوضح الشاب وهو يحاول تهدئة نفسه: ـ تصور. أن أكون قريباً جداً من شخص متنفذ، أسافر معه إلى الغابات. ولكنني أمضيت ليلة سيئة جداً في بوكايبا. وكان سيحدث الشيء نفسه الآن في تنغو ماريا.

ـ لم تشم أن الحياة مليئة بأشياء قذرة ـ قال ليتوما معلقاً ـ. أين كنت تعيش يا توماسيتو.

ـ كنت أعرف كل شيء عن الحياة، ولكن مسألة السادية تلك لم يرق لي. اللعنة، أمر غير محتمل حقاً. ولم أستطع أن أفهمه أيضاً. إنه يثير في نفسي الغضب، بل الخوف أيضاً. كيف يمكن للإنسان أن يصير أسوأ من الحيوان؟ وهناك أدركت لماذا يدعونه تشانشو[1].

كانت هناك فرقعة، وصرخت المرأة. لقد كان يضربها. أغمض ليتوما عينيه وتصورها. كانت ممتلئة، متموجة، لها نهدان مكوران. وكان الرجل المتنفذ يجبرها على الركوع على ركبتيها منحنية، وكانت ضربات الحزام تخلّف أخاديد بنفسجية على ظهرها.

ـ لست أدري أيهما سبب لي قرفاً أكثر، هو أم هي. وفكرت: يا لهذه الأشياء التي تفعلها بعضهن من أجل المال!

ـ حسن، وأنت كنت هناك أيضاً من أجل المال، أليس كذلك؟ تحمي تشانشو بينما هو يتلذذ بسحب روح تلك العاهرة.

ـ لا تسمها هكذا ـ اعترض توماس ـ. حتى لو كانت كذلك يا حضرة العريف.

ـ إنها مجرد كلمة تقال يا توماسيتو ـ قال ليتوما معتذراً.

بصق الشاب على حشرات الظلام بغضب. كان الليل متقدماً وحاراً، وكانت الأشجار تهمس من حوله. لم يكن هناك قمر ولم

---

[1] تشانشو (Chancho): لقب بمعنى خنزير، يطلق على الأشخاص القذرين في بعض بلدان أميركا اللاتينية.

تكن أضواء تنغو ماريا الزيتية تكاد تظهر وسط الغابة. لقد كان البيت خارج المدينة، على بعد نحو مئة متر من الطريق العام المؤدي إلى أغواتيا وإلى بوكايبا، وكانت جدرانه الرقيقة تسمح بتسرب الضجة والأصوات بكل وضوح. وسُمعت فرقعة أخرى صرخت المرأة على أثرها. وتوسل صوتها المنطفئ:

- يكفي يا سيدي. لا تضربني أكثر.

وبدا لكارينيو أن الرجل يضحك، مثل تلك الضحكة الوافرة التي كان قد سمعها منه سابقاً في بوكايبا.

- إنها ضحكة شخص متنفذ، آمر، شخص قادر، قوي، قذر محلي تفيض عنده السولات[1] والدولارات - قال موضحاً ذلك للعريف بحقد قديم.

تخيل ليتوما عيني السادي المنتفختين تجحظان بين أكياس الشحم وتحتقنان بالشبق كلما تأوهت المرأة. إنه لا يستثار بمثل هذه الأمور، ولكن هناك أناساً تستثيرهم على ما يبدو. وهو لا يستغرب حدوثها كثيراً بالطبع مثل مساعده. فما الذي يمكنه أن يفعله إذا كانت الحياة العاهرة هي الحياة العاهرة. ألا يقتل الإرهابيون الناس ذات اليمين وذات الشمال بحجة الثورة؟ هؤلاء أيضاً يحبون رؤية الدماء.

- انتهِ من هذا الأمر يا تشانشو، لعن الله أمك، هذا ما كنت أفكر فيه - تابع توماس -. استمتع، أفرغ شهوتك ونم. ولكنه كان يواصل ضربها. والمرأة تتوسل بين حين وآخر:

- يكفي يا سيدي. يكفي.

كان الشاب يتعرق ويشعر بالاختناق. مرت شاحنة تهدر على الطريق العام فأضاءت أنوارها الصفراء للحظة أوراق الشجر الجافة والجذوع والصخور ووحل الساقية. ومع عودة العتمة، عادت الحشرات

---

[1] السول: وحدة النقد في البيرو.

المضيئة إلى الظهور. لم يكن توماس قد رأى حشرة مضيئة من قبل، وكان يتخيلها مثل مصابيح يدوية طيارة. لو أن اسخريوطي البدين معه الآن على الأقل، لكانا تبادلا الحديث وتمازحا، ولكان استمع إليه وهو يصف أكلاته العظيمة، فأمضيا الوقت في ذلك. وما كان سمع ما يسمعه ولا تخيل ما يتخيله.

- سأدس فيكِ الآن هذا القضيب الحديدي كله - خرخر الرجل مجنوناً بالسعادة -. كي تصرخي مثلما صرخت أمك يوم ولدتك.

وخيل لليتوما أنه يسمع ضحكة التشانشو المجلجلة، ضحكة رجل تبتسم له الحياة ويحصل دائماً على كل ما يريده. إنه يستطيع أن يتصوره بسهولة، ولكنه لا يستطيع أن يتصور تلك المرأة، فهي بالنسبة إليه شكل بلا وجه، ظلٌ لن يستطيع تحديد معالمه مطلقاً.

- لو أن اسخريوطي كان معي وتحدثنا، لكنت نسيت ما يحدث في البيت - قال توماس -. ولكن البدين كان يحرس الطريق وكنت أعرف أن شيئاً لن يزحزحه من موقعه، وأنه سيمضي الليل هناك حالماً بأطايب المأكولات.

عادت المرأة للصراخ وواصلت البكاء هذه المرة. أتكون هذه الضربات شبه المنطفئة ركلات بالأقدام:

- من أجل أحب شيء إليك - كانت تتوسل إليه.

- عندئذ انتبهت إلى أنني أحمل المسدس في يدي - قال الشاب خافضاً صوته وكأنه يمكن لأحد أن يسمعه -. كنت قد أخرجته من قرابه ورحت ألعب به، أحرك زناده وأبرم طاحونه. دون أن أنتبه يا حضرة العريف، أقسم لك بذلك.

مال ليتوما على جانبه ليراه. وعلى السرير المجاور كان بروفيل وجه توماسيتو لا يكاد يُرى. فقد كان ضوء خافت من النجوم يدخل عبر النافذة ويحدد خط شكله الخارجي فقط.

ـ ما الذي نويت عمله أيها الفحل.

كان قد صعد الدرج الخشبي على رؤوس أصابعه وراح يدفع باب البيت برفق إلى أن أحس بمقاومة المزلاج. بدا كما لو أن يديه وقدميه قد استقلت عن رأسه. وكانت المرأة تتوسل برتابة «يكفي يا سيدي». وكانت الضربات تهوي من حين لآخر خامدة، وصار الفتى يسمع الآن لهاث التشانشو. لم يكن للباب قفل. وما كاد يضغط عليه بجسده حتى بدأ ينخلع: كان الصرير يختلط مع صوت الضربات والتوسلات. وعندما انفتح الباب على مصراعيه وصرير مسامير تُنتزع من أماكنها، توقفت التأوهات والضربات وسُمعت لعنة بصوت عال. رأى توماس الرجل عارياً يتقلب في العتمة ويقهقه. كان هناك سراج يتراقص ضوءه على مسمار في الجدار. وكانت هناك ظلال مجنونة. وكان الرجل المتشابك في الكلّة يحاول التحرر متلمساً ما حوله، والتقت عيني توماس بعيني المرأة المفزعتين. فقال متضرعاً:

ـ لن تضربها أكثر يا سيدي. لست أسمح لك.

فقال ليتوما ساخراً:

ـ وهل قلت له هذه البلاهة؟ وتقول له فوق ذلك «سيدي»؟

ـ لا أظن أنه سمعني ـ قال الفتى ـ. وربما لم يخرج صوتي. ربما كنت أتكلم في داخلي فقط.

عثر الرجل على ما كان يبحث عنه، فنهض قليلاً وهو عالق في الكلّة ومتعثر بالمرأة، وصوب سلاحه نحوه دون أن يتوقف عن القهقهة بصوت يخرج من حلقه، وكأنه يريد بذلك بث الحماسة في نفسه. بدا لتوماس أن الطلقات قد انطلقت قبل أن يضغط هو نفسه على الزناد، ولكن لا، فقد كانت يده هي التي أطلقت النار أولاً. وسمع الرجل ينبح في الوقت الذي رآه يهوي إلى الوراء، مفلتاً المسدس من يده، ومتكوراً على نفسه. تقدم الفتى خطوتين باتجاه السرير.

كان نصف جسد تشانشو يتدلى على الجانب الآخر. وكانت ساقاه ما تزالان متقاطعتين فوق شرشف السرير. كان ساكناً. ولم يكن هو من يصرخ وإنما المرأة.

- لا تقتلني! لا تقتلني! - كانت تصرخ مذعورة وهي تغطي وجهها، وتتلوى، وتغطي نفسها بيديها وقدميها

- ماذا تقول يا توماسيتو - كان ليتوما مذهولاً -. أتعني أنك قتلته؟

- اخرسي أنتِ - قال لها الفتى آمراً. لقد صار بإمكانه أن يتنفس الآن. فالورم الذي كان في صدره خمد. كانت ساقا الرجل تنزلقان نحو الأرض حاملتين معهما جزءاً من الكلة. وسمعه يئن بصوت خافت.

- أتعني أنك قتلته؟ - ألح ليتوما. وكان يستند إلى مرفقه وهو لا يزال يبحث في العتمة عن وجه مساعده.

- ألستَ واحداً من حراسه؟ - سألته المرأة دون أن تفهم، وهي ترمش. كان في عينيها خوف حيواني، أما الآن فقد ظهر فيهما الذهول أيضاً: - لماذا فعلت هذا؟

كانت تحاول ستر نفسها، تكور جسدها، ترفع شرشفاً عليه بقع من الدم. أرته إياه متهمة.

- ما عدت قادراً على تحمله - قال لها توماسيتو -. من أجل لذته يضربك هكذا. لقد كان يقتلك.

- يا لك من فحل - فهتف ليتوما وهو ينفجر ضاحكاً:

-- ماذا تقول؟ ماذا؟ - كانت المرأة تستعيد السيطرة على نفسها من الخوف. وصار صوتها أكثر ثباتاً. رآها توماس تقفز عن السرير، رآها تتعثر، رأى شبحها يحمرّ لبرهة وهي تمر عارية تحت السراج، ورآها وقد تمالكت نفسها تماماً وامتلأت بالحيوية، وبدأت تحشو نفسها في الملابس التي تجمعها عن الأرض دون أن تتوقف عن الكلام: - لماذا أطلقت النار عليه؟ ألأنه كان يضربني؟ ومن الذي

طلب منك التدخل، إذا كان ممكناً أن أعرف؟ ومن تكون أنت، إذا كان ممكناً أن أعرف؟ ومن طلب منك حمايتي، إذا كان ممكناً أن أعرف؟

وقبل أن يتمكن توماس من الرد عليها، سمع جلبة جري وصوت اسخريوطي المذهول: «كارينيو، كارينيو؟». اهتزت السلالم تحت وقع قفزاته، وفتح الباب على مصراعيه، وظهرت هيئته البرميلية محتلة المدخل. وقف ينظر إليه... ينظر إلى المرأة.. إلى السرير المشعث.. إلى الملاءة.. إلى الكلة المنزلقة. وكان يحمل المسدس في يده المرتعشة.

ـ لست أدري ـ تلعثم الشاب مجاهداً ضد المادة المعدنية التي كانها لسانه. وعلى أرضية الألواح الخشبية غير واضحة المعالم كان الجسد يختلج. ولكنه لم يعد يئن.

ـ يا للعنة، ما هذا ـ كان اسخريوطي البدين يلهث وعيناه مثل جندبين: ـ ما الذي حدث يا كارينيتو؟

كانت المرأة قد انتهت من ارتداء ملابسها وأخذت تنتعل الحذاء محركة إحدى ساقيها، ثم الأخرى. وكما لو أنه في حلم، تعرف توماس على الثوب الأبيض المزركش برسوم أزهار الذي رآها تنزل به من الطائرة القادمة من ليما في مطار تينغو ماريا، ظهيرة ذلك اليوم، عندما ذهب هو واسخريوطي لإحضارها إلى تشانشو.

ـ اسأل هذا عما حدث. ـ قالت ذلك وعيناها تلمعان وهي تحرك يدها، مشيرة إلى القتيل، وإليه، ثم إلى القتيل من جديد.

ـ كانت غاضبة جداً إلى حدّ ظننت معه أنها ستنقض علي وتخمشني ـ قال الفتى. وكان صوته قد صار عذباً.

ـ أنت قتلت الزعيم يا كارينيو؟ أقتلته؟ ـ كان البدين مذهولاً.

ـ أجل، أجل ـ صرخت المرأة خارجة عن طورها ـ ماذا سيحدث لنا الآن.

- يا للعنة - كرر اسخريوطي البدين كرجل آلي وهو يرمش دون توقف.

- أظن أنه لم يمت - قال الفتى متلعثماً -. لقد رأيته يتحرك.

- ولكن، لماذا فعلت هذا يا كارينيو -. وانحنى البدين ليفحص الجسد. ثم نهض واقفاً وتراجع خطوة إلى الخلف: - ماذا فعل لك؟ لماذا قتلته؟

- كان يضربها. كان سيقتلها. من أجل لذته فقط. لقد اختنقتُ أيها البدين. لم أستطع تحمل تلك القذارة.

التفت نحوه وجه الاسخريوطي الذي كالبدر المكتمل، حدق فيه وهو يدنو برأسه كأنه يريد أن يشمه. بل أن يلحسه. فتح فمه دون أن يقول شيئاً. كان ينظر إلى المرأة، وينظر إلى توماس ويتعرق ويلهث. ثم قال أخيراً وهو يهز رأسه ذا الشعر الكث، مذهولاً مثل دمية كرنفال ضخمة: - من أجل هذا قتلته؟

وصرخت المرأة بهستيرية:

- من أجل هذا! من أجل هذا! والآن، ماذا سيحدث لنا، اللعنة.

- أقتلته لأنه كان يستمتع بعاهرته؟ - وكانت عينا اسخريوطي البدين تدوران في محجريهما وكأنهما من الزئبق: - ولكن، هل تعرف ما الذي فعلته أيها التعيس؟

- لست أدري ما الذي أصابني. لا تقلق، ليس الذنب ذنبك. أنا سأشرح كل شيء لعرّابي أيها البدين.

- ستأتي الشرطة، وسيحققون - كانت المرأة تقول -. أنا لا علاقة لي بالأمر، يجب أن أذهب.

- ولكن، لم يكن بإمكانها أن تتحرك. - تذكر الفتى وقد ازدادت عذوبة صوته الذي صار مثل أزهار الفلوريبوندو، وفكر ليتوما: «هذا يعني أنك فعلتها يا توماسيتو» وتابع الفتى متذكراً: -

تقدمتْ بضع خطوات باتجاه الباب، ولكنها ما لبثتْ أن توقفت ورجعت، وكأنها لم تكُن تعرف ما عليها عمله. لقد كانت مذعورة جداً، يا للمسكينة.

أحس الفتى بيد اسخريوطي البدين على رأسه، كان ينظر إليه بإشفاق وحنان، دون أي غضب. وقال له بحزم تام:

ـ اختفِ، ومن الأفضل ألا يرى عَرّابُك وجهك يا صاحبي. سيتلقاك بالرصاص، ومن يدري ماذا سيفعل بك. طر. تحول إلى دخان وعسى ألا يعثروا عليك، لقد كنت أعرف أنك لا تنفع في هذه الأمور، ألم أقل ذلك عندما عرّفوني عليك؟

ـ إنه صديق مستقيم جداً ـ أوضح الفتى لليتوما ـ. كان يمكن لي أن أسبب له مصيبة كذلك بما فعلته، ومع ذلك ساعدني على الهرب. إنه بدين هائل، وجه مدور مثل قرص الجبن، وبطن مثل عجلة شاحنة. ما الذي جرى له يا ترى.

مدّ له يداً ممتلئة وودودة. فضغط عليها توماس بقوة. شكراً أيها البدين. كانت المرأة تجثو بإحدى ركبتيها على الأرض وتفتش ملابس الرجل الراقد دون حراك.

وقاطعه ليتوما:

ـ أنت لا تروي لي كل شيء يا توماسيتو.

وسمع الفتى المرأة تقول لاسخريوطي عندما خرج هو ليغرق في النسيم الدافئ الذي يحرك الشجيرات والأغصان.

ـ لا يوجد معي ولو سنتافو واحد، لست أدري أين أذهب. ليس معي سنتافو واحد، لا أدري ما الذي سأفعله. أنا لا أسرقه.

انطلق يعدو باتجاه الطريق العام، ولكنه بعد أمتار قليلة بدأ يمشي ببطء. أين سأذهب؟

كان ما يزال يحمل المسدس في يده. خبأه في القراب المثبت

في حزام بنطاله المختفي تحت القميص. لم تكن هناك سيارات في الجوار، وبدت أضواء تينغو ماريا نائية.

ـ كنت أشعر بالطمأنينة.. بالراحة، حتى لو لم تصدق ذلك يا حضرة العريف ـ قال الفتى، ثم أضاف: ـ مثلما يحدث لأحدنا عندما يستيقظ ويعرف أن الكابوس لم يكن إلا مجرد كابوس.

وعاد ليتوما إلى الضحك وهو يقول:

ـ لماذا تخفي عني أفضل ما في القصة يا توماسيتو.

وسط هسيس الحشرات والغابة سمع الفتى وقع أقدام المرأة المستعجلة وهي تحاول اللحاق به. أحس بها إلى جواره.

ـ ولكنني لم أخف عنكَ شيئاً يا عريفي. هذه هي الحقيقة كاملة. هذا هو كل ما حدث مثلما رويته لك.

كانت هي تتذمر:

ـ لم يسمح لي البدين بأخذ سنتافو واحد. يا لأكرش البراز. لم أكن أسرقه، أردت أن أستلف شيئاً فقط لكي أصل إلى ليما. لست أملك ولو سنتافو واحداً، لا أدري ما الذي سأفعله الآن.

ـ وأنا كذلك لا أدري ما الذي سأفعله ـ قال توماس.

كانا يسيران متعثرين على الطريق الضيق المتعرج الذي غطته أوراق الشجر، وكانا يغوصان في البرك التي أحدثها المطر، ويشعران بأوراق الأشجار وخيوط العناكب تلمس وجهيهما وأذرعهما.

وهناك بالذات خفضت المرأة صوتها نادمة:

ـ من طلب منك التدخل ـ ولكنها بعد لحظة عادت تؤنبه، وإن كانت أكثر سعادة: ـ من عيَّنك حارساً عليّ، من طلب منك الدفاع عني. هل طلبتُ منك ذلك؟ لقد ضيّعت نفسك وضيعتني أنا أيضاً، دون أن يكون لي أي ذنب.

وقال ليتوما مؤكداً:

ـ حسب ما ترويه لي، لا بد أنك قد ضاجعتها فـي تلك الليلة. أنت لم تسحب مسدسك وتطلق عليه النار لمجرد أنك قرفت من القذارات التي كان يمارسها معها. اعترف بأنك أحسست بالغيرة منه. أنت لم تخبرني بأهم جزء فـي القصة يا توماسيتو.

II

«كل هؤلاء الموتى ينزلقون من ذاكرة الجبليين»، هذا ما فكر فيه ليتوما. ففي الليلة الماضية سمع، في حانة ديونيسيو، خبر الهجوم على حافلة انداهوايلاس، ولم يعلق أي واحد من العمال الذين كانوا يشربون ويأكلون بكلمة واحدة. وفكر: «لن أفهم مطلقاً أي براز عاهر مما يحدث هنا». هؤلاء المختفون الثلاثة لم يهربوا من أسرهم، ولم يفروا بعد سرقة إحدى آليات المعسكر. أيكونون قد ذهبوا للانضمام إلى ميليشيا الإرهابيين. أم أن الإرهابيين قد قتلوهم ودفنوهم في إحدى حفر هذه الجبال. ولكن، إذا كان جماعة الدرب قد أصبحوا هنا ولديهم عملاء بين العمال، فلماذا لم يهاجموا المخفر حتى الآن؟ ولماذا لم يعدموه هو وتوماسيتو؟ ربما لأنهم ساديون. يريدون تحطيم أعصابهما قبل أن يمزقوهما إرباً بشحنات الديناميت. لن يتيحوا لهما الوقت لإخراج مسدسيهما من تحت الوسادة، ناهيك عن الوصول إلى خزانة البنادق. سيقتربون ببطء من جهات الكوخ الأربع بينما هما ينامان أحلامهما الكابوسية كما في كل ليلة، أو بينما توماس يتذكر غرامياته، وليتوما يؤدي دور منديل الدموع له. دوي رعد، وميض برق، الوقت منتصف الليل: سينتزعون أذرعهما وأرجلهما ورأسيهما في الوقت نفسه. سيمزقوننا مثلما جرى تمزيق توباك آمارو[1] يا صاحبي. سيحدث ذلك في أي لحظة، ربما هذه الليلة بالذات، وفي حانة ديونيسيو والساحرة، سيُظهر الجبليون الوجوه

---

[1] توباك آمارو Tupac Amaru (1740 ـ 1781) زعيم من البيرو وسليل الإنكا. تمرد ضد الإسبان. ثم جرى اعتقاله وأعدم بوحشية.

غير المعبرة نفسها التي أظهروها هذه الليلة حين سمعوا خبر حافلة انداهوايلاس.

تنهد وخلع قبعته. لقد كان من عادة الأبكم أن يغسل ملابس ليتوما ومساعده. وكان يفعل ذلك هناك، على بعد أمتار قليلة، على طريقة الهنديات في الغسل: كان يضرب كل قطعة من الثياب على حجر، ثم يتركها تقطر ماءها في صفيحة الغسيل. لقد كان يعمل بكثير من الضمير، فيدعك القمصان والسراويل الداخلية بالصابون عدة مرات. ثم ينشر الملابس فوق الصخور بالعناية والدقة التي يفعل بها كل شيء، مُركِّزاً جسده وروحه في مهمته، فإذا ما التقت عيناه بعيني العريف يقف متيبساً ومتأهباً بانتظار الأوامر. ويقضي النهار وهو يطأطئ رأسه محيياً. ما الذي فعله الإرهابيون بتلك الروح الربانية.

كان العريف قد انتهى من قضاء ساعتين في الجولة الإجبارية ـ على المهندس، ومراقبي العمال، والمحاسبين، ورؤساء الورش، وزملاء أحدهم في النفق ـ، وهي الجولة نفسها التي قام بها فيما بعد من أجل التحقيق في حالتي الاختفاء التاليتين. وكانت النتيجة هي نفسها. ليس هناك من يعرف شيئاً ذا قيمة عن حياة ديميتريو تشانكا بالطبع. وهم لا يعرفون أي شيء عن المكان الذي انتهى إليه الآن بالطبع. وقد اختفت الآن زوجته أيضاً. وهو ما جرى كذلك للمرأة التي جاءت وأخبرتهما باختفاء الأمهق كاسيميرو هواركايا. لا أحد يعرف إلى أين ذهبتا، ولا متى أو لماذا غادرتا ناكوس.

ـ ألا يبدو لك غريباً اختفاء هؤلاء؟

ـ أجل، غريب جداً.

ـ أمر يستحق التفكير، أليس كذلك؟

ـ أجل، يستحق التفكير.

ـ ربما أخذتهم الأشباح؟

ـ غير ممكن بالطبع، من يصدق شيئاً كهذا.

ـ ولماذا اختفت المرأتان كذلك؟

ـ لأن ذلك ما حدث.

أيسخرون منه؟ يبدو له أحياناً أن وراء تلك الوجوه الجامدة، وتلك الأصوات التي تنطق بفتور وكأنها تقدم جميلاً، وتلك العيون القاتمة المرتابة.. يبدو له كأن الجبليين يضحكون من وضعه كساحلي تائه في هذه الجبال، ومن الاضطراب الذي تسببه له المرتفعات، ومن عجزه عن حلّ هذه القضايا. أم أنهم يموتون خوفاً؟ خوف هستيري، خوف شديد من الإرهابيين. قد يكون هذا هو التفسير. وإلا، كيف يمكن ألا يسمع منهم حتى الآن، بالرغم من كل ما يحدث يومياً حولهم، أي تعليق عن الدرب المضيء؟ وكأن هذه الجماعة غير موجودة. وكأنه لا وجود للقنابل والمجازر. وفكر: «أي أناس هم هؤلاء». لم يستطع إقامة صداقة ولو مع شخص واحد من العمال، بالرغم من أنه أمضى عدة شهور معهم، وبالرغم من أنه نقل المخفر مرتين في إثر معسكرهم. إنهم يعاملونه وكأنه آتٍ من المريخ. لمح توماس يقترب من بعيد. كان الشرطي قد ذهب لإجراء تحقيقات مع فلاحي القرية وفريق العمال الذين يشقون النفق، على بعد كيلومترات من ناكوس، باتجاه هوانكايو.

ـ ماذا؟ ـ سأله وهو واثق من أن جوابه سيكون المرور بإصبعه على عنقه.

ـ لقد توصلتُ إلى شيء ـ قال الحارس الأهلي ذلك وهو يجلس إلى جواره، على واحدة من الصخور التي تشوش منظر السفح. كانا على ربوة في منتصف الطريق بين المخفر ومعسكر العمال المنتشر على امتداد هذا الوعر الذي سيمر منه الطريق العام، إذا قيض له أن

ينتهي يوماً. يقال إن ناكوس كانت قرية منجمية مزدهرة فيما مضى. أما الآن فليس فيها إلا العمال الذين يعملون في شق الطريق. كان هواء الظهيرة دافئاً، وفي السماء، ما بين الغيوم القطنية المترهلة، كانت تتوهج شمس مبهرة. وتابع الشرطي قائلاً: ـ مراقب العمال المختفي كان قد تشاجر مع الساحرة، قبل بضع ليال.

الساحرة المعنية هي السيدة أدريانا، امرأة ديونيسيو، إنها أربعينية، خمسينية، بلا سن محددة، وهي تعمل ليلاً في الحانة، تساعد زوجها في جعل الزبائن يشربون، وإذا كانت صادقة في ما تقوله، فإنها قادمة من الجهة الأخرى لنهر مانتارو، من مكان قريب من باركاسبامبا، وهي منطقة تجمع ما بين الجبال والأدغال. إنها تُحضِّر الطعام في النهار لبعض العمال، وفي المساء والليل تقرأ طالعهم في أوراق اللعب وبطاقات التنجيم، وتقرأ أكف أيديهم أو ترمي أوراق نبات الكوكا في الهواء وتفسر لهم معنى الأشكال التي تتخذها لدى سقوطها على الأرض. كانت امرأة ذات عينين واسعتين، بارزتين وملتهبتين، وردفين فخمين يتأرجحان عندما تمشي. لقد كانت أنثى حقيقية فيما مضى كما يبدو، وتتردد إشاعات خيالية كثيرة عن ماضيها. يقال إنها كانت زوجة عامل منجم عظيم الأنف، بل ويقال كذلك إنها قد قتلت «بيستاكو»[1]. وتراود ليتوما الشكوك في أنها ليست طاهية وعرافة وحسب، بل إنها شيء آخر في الليل أيضاً.

ـ لا تقل لي إن الساحرة إرهابية يا توماسيتو.

ـ لقد طلب منها ديميتريو تشاثكا أن ترمي له أوراق الكوكا. فلم يعجبه ما تنبأت به، ورفض أن يدفع لها. وكانت دونيا أدريانا غاضبة جداً وحاولت أن تخمشه. لقد أخبرني بذلك شاهد عيان.

---

[1] بيستاكو: مخلوق شيطاني في معتقدات هنود جبال الأنديز.

ـ وانتقاماً لهذه التفاهة، قامت الساحرة بحركة سحرية وجعلته يتبخر ـ زفر ليتوما وهو يقول ذلك، ثم أضاف: ـ هل استجوبتها؟

ـ لقد طلبت منها الحضور إلى هنا يا حضرة العريف.

لا يعتقد ليتوما بأنه قد تعرف على ديميتريو تشانكا. أما الأمهق فيتذكره بصورة غامضة، لأن وجهه في الصورة التي تركتها المرأة المتقدمة بالشكوى يذكره بشخص تبادل معه بعض الكلمات يوماً في حانة ديونيسيو. أما المختفي الأول بالمقابل، بيدريتو تينوكو، فقد عاش معهما في هذا الكوخ نفسه، ولا يمكن للعريف أن ينتزعه من تفكيره، لقد وجده الشرطي كارينيو يطلب الصدقات في الجبال وأحضره ليعمل في المخفر مقابل طعامه وبعض الأعطيات. وقد كان مفيداً لهما جداً. فقد ساعدهما في تعزيز دعامة سقف الكوخ، وفي تثبيت ألواح التوتياء، وفي تسمير الحاجز الذي كان متداعياً، وفي إقامة متراس الأكياس تحسباً من أي هجوم. إلى أن أرسلاه في أحد الأيام لشراء البيرة، واختفى دون أن يترك أثراً. وفكر ليتوما: هكذا بدأت هذه المشكلة، فكيف ستنتهي.

نبهه مساعده:

ـ ها هي ذي دونيا أدريانا قادمة.

كان شبحها يبدو، من بعيد، ذائباً في الضوء الأبيض، كانت الشمس تنعكس متلألئة على ألواح التوتياء هناك في الأسفل، فكان المعسكر يبدو وكأنه صف من البرك، أو مرآة مقطعة. أجل، إنها الساحرة. وصلت وهي تلهث قليلاً، وردت على تحية العريف والحارس بانحناءة جافة من رأسها دون أن تحرك شفتيها. كان صدرها الضخم الأمومي، يعلو ويهبط برتابة، وعيناها الواسعتان تراقبان كلاً منهما دون أن ترمشا. لم يكن هناك أي أثر للقلق في

نظرتها الثابتة ذات التركيز المزعج. ولسبب ما، كانت تبعث هي وزوجها السكير، على الدوام شعوراً بعدم الراحة في نفس ليتوما.

ـ شكراً لمجيئك أيتها السيدة ـ قال لها ـ. أنت تعلمين أن الناس ما زالوا يختفون هنا في ناكوس. لقد اختفى ثلاثة. هذا كثير، ألا ترين ذلك؟

لم تُجبْ. إنها بدينة، هادئة، تسبح في كنزة مرقعة وتنورات ذات لون مائل إلى الخضرة مثبتة بحزام ثخين، وتبدو واثقة تماماً من نفسها أو من قدراتها. أيمكن لها أن تكون ذات جمال غابر كما يقولون؟ من الصعب تخيل ذلك أمام هذا الشبح الرهيب.

ـ لقد استدعيناك لكي تخبرينا عن شجارك مع ديميتريو تشانكا تلك الليلة. أعني مراقب العمال ذاك الذي اختفى أيضاً.

هزت المرأة رأسها. كان لها وجه مدور ومخلل، وفم مثل ندبة جرح. كانت تقاطيع وجهها تشبه وجوه الهنود، ولكن بشرتها بيضاء وعينيها صافيتين جداً، مثل أولئك النساء السمراوات اللواتي رآهن ليتوما ذات مرة في المنطقة الداخلية من أياكوتشو، وكن يسابقن الريح على خيول واطئة ودون وبر. أتراها تعمل عاهرة في الليل؟

ـ لم تحدث أي مشادة بيني وبين ذلك الرجل ـ أكدت بحزم.

فتدخل الحارس كارينيو:

ـ هناك شهود يا سيدتي. كنت تريدين خمشه، لا تنكري ذلك.

فصححت هي دون أن تتأثر:

ـ حاولت أن آخذ قبعته لكي أحصل على ما هو مدين لي به. لقد جعلني أعمل مجاناً وهذا ما لا أسمحُ به لأحد.

كان صوتها يخرج متثاقلاً، كأن أحجاراً تصعد من أعماق جسدها حين تتكلم وتصل إلى لسانها. عندما كان في الشمال، هناك في بيورا وتالارا، لم يكن ليتوما يؤمن بالساحرات ولا

بالسحر. أما هنا، في الجبال. فلم يعد متأكداً من أي شيء. لِمَ يتوجس الخوف أمام هذه المرأة؟ أية قذارات تمارسها هي وديونيسيو في الحانة عند الفجر مع العمال السكارى، بعد أن يذهب ليتوما ومساعده للنوم؟

- لم يعجبه ما قرأتِه له في أوراق الكوكا - قال توماس.

- بل في كفه - صححت المرأة -. فأنا قارئة كف ومنجمة أيضاً. ولكن هؤلاء الهنود وحدهم لا يثقون بأوراق اللعب ولا بالنجوم ولا حتى بأكفهم. إنهم لا يؤمنون إلا بأوراق الكوكا وحدها. - ابتلعت لعابها وأضافت:

- وهذه الأوراق لا تكون واضحة تماماً.

كانت الشمس تسقط على عينيها، ولكنها لم تكن ترمش، كانت العينان ساهمتين وخارجتين من محجريهما، بل لقد خيل لليتوما أنهما قادرتان على الكلام. فإذا كانت تفعل في الليل ذلك الأمر الذي يشك هو وتوماس بأنها تفعله، فلا بد أن من يمتطونها يواجهون هاتين العينين في الظلام. إنه غير قادر على مواجهتهما.

- وماذا رأيتِ في كفه يا سيدتي؟

- ما جرى له - تهربت بتلقائية.

فهتف ليتوما بصوت خافت:

- قرأتِ في كفيه أنه سيختفي؟

وكان كارينيو إلى يمينه يمط رقبته.

هزت المرأة رأسها مؤكدة دون تأثر. ثم تمتمت:

- لقد تعبت قليلاً من المسير. سأجلس.

- أخبرينا بما قلته لديميتريو تشانكا - ألح ليتوما.

لهثت السيدة أدريانا. وكانت قد تركت نفسها تسقط جالسة على صخرة، وراحت تحرك الهواء بقبعة القش التي نزعتها عن رأسها.

كان لها شعر سبط، لا شيب فيه، مشدود ومثبت على رقبتها بشريط ملون، مثل تلك الشرائط التي يعقدها الهنود على آذان حيوانات اللاما.

ـ قلت له ما رأيته في كفه. إنهم سيقدمونه قرباناً للأرواح الشريرة التي عاثت فساداً في المنطقة. وإنهم قد اختاروه هو بالذات لأنه دنس.

ـ وهل يمكننا أن نعرف سبب كونه دنساً يا دونيا أدريانا؟

فأوضحت المرأة:

ـ لأنه بدّل اسمه. تبديل الاسم الذي يطلقونه على المرء عند ولادته عمل خبيث.

ـ لست أستغرب امتناع ديميتريو تشانكا عن الدفع لكِ ـ ابتسم توماسيوت.

ـ ومن هم الذين سيقدمونه قرباناً؟ ـ سألها ليتوما.

قامت المرأة بحركة يمكن لها أن تكون علامة ضجر أو ازدراء. وردت وهي ما تزال تهز قبعتها كمروحة:

ـ أنت تريدني أن أجيب على سؤالك بالقول: «الإرهابيون، جماعة الدرب» أليس كذلك؟ ـ وزفرت من جديد، ثم غيرت نبرة صوتها: ـ هذا لم يحدث على أيديهم.

ـ وهل تريدينني أن أكتفي بمثل هذا التفسير؟

ـ أنت تسأل وأنا أجيب ـ قالت المرأة بهدوء شديد ـ. هذا هو ما رأيته في كفه. وقد تحقق. أولم يختفِ؟ إذن، فقد قدموه قرباناً.

إنها مخبولة دون شك، هكذا فكر ليتوما. وكانت السيدة أدريانا تنفخ مثل كير. رفعت بيديها السمينتين ذيل تنورتها حتى وجهها ونفّت أنفها، كاشفة عن ربلتي ساقيها المكتنزتين البيضاوين. ثم نفّت مرة أخرى مصدرة صوتاً عالياً. وبالرغم من استياء العريف، إلا أنه أطلق ضحكة خافتة: يا لها من طريقة لتنظيف الأنف.

ـ وماذا عن بدريتو تينوكو والأمهق هواركاريو؟ هل ضحوا بهما أيضاً؟

ـ هذان لم أضرب لهما في ورق اللعب، ولم أنظر في كفيهما، ولم أسحب لهما أوراق التنجيم. هل يمكنني الذهاب الآن؟

أوقفها ليتوما:

ـ انتظري لحظة.

نزع قبعته ومسح العرق عن جبهته. كانت الشمس في منتصف السماء، مستديرة وساطعة. وكان الحر الشمالي شديداً. ولكن الجو لن يلبث أن يبدأ بالبرودة بعد أربع أو خمس ساعات، وما إن تصل الساعة العاشرة ليلاً حتى تكون عظامه قد أخذت تصطك من البرد. من يستطيع أن يفهم هذا المناخ شديد التقلب حتى كأنه السكان الجبليون أنفسهم. وعاد يتذكر بيدريتو تينوكو. حين كان ينتهي من غسل الملابس وشطفها، يبقى جالساً على صخرة لا يتحرك، متأملاً الفراغ. كان يبقى على تلك الحال، ساكناً، ساهياً، مفكراً فيما لا يعلمه إلا الله، إلى أن تجف الثياب المغسولة.

عندئذ كان يطويها بعناية ويأتي ليسلمها إلى ليتوما وهو يطأطئ رأسه باحترام. يا للعنة. هناك في الأسفل، في المعسكر، يتنقل العمال وسط بريق ووميض سقوف التوتياء. إنهم مثل وكر نمل. فمن لا يعملون منهم في التفجير في النفق أو في شدّ الرفوش، يستريحون الآن، ولا بد أنهم يأكلون طعامهم البارد.

قال لها فجأة، وقد بوغت برنة المناجاة في صوته:

ـ إنني أحاول القيام بعملي يا دونيا أدريانا. لقد اختفى ثلاثة أشخاص. وجاء ذووهم ليقدموا بلاغاً بذلك. ربما يكون الإرهابيون قد قتلوهم، أو أجبروهم على الانضمام إلى ميليشياهم، أو اختطفوهم. يجب التحقيق في القضية. فهذا هو سبب وجودنا في

ناكوس. ولهذا يوجد هنا مخفر للحرس الأهلي. أم أنك تعتقدين أن هناك سبباً آخر؟

كان توماس قد التقط بضع حصوات من الأرض وراح يقذفها مصوباً باتجاه أكياس المتراس. وكلما أصاب هدفه كان يصدر صوت نشاز خامداً.

- هل تُحمّلني مسؤولية أي شيء؟ هل أنا مذنبة لأن هناك إرهابيين في الأنديز؟

- أنت أحد آخر الأشخاص الذين رأوا ديمتريوس تشانكا. وقد تشاجرت معه. ثم ما هذا الذي قلته عن تبديله اسمه؟ أعطِنا طرف خيط. هل ما نطلبه كثير؟

نفّت المرأة أنفها مرة أخرى بهمهمة حجرية.

- لقد أخبرتكما بما أعرفه. ولكنكما لا تصدقان شيئاً مما تسمعانه، ما أقوله يبدو لكما حكايات ساحرة. - بحثتْ عن عيني ليتوما، فأحس هذا بأن نظراتها تحاصره، وأضافت: - هل تصدق شيئاً مما أقوله؟

- أحاول يا سيدتي. هنالك من يؤمنون وهنالك من لا يؤمنون بهذه الأمور الغيبية. ليس هذا هو المهم الآن. أنا أريد أن أحقق فقط في مصير هؤلاء الثلاثة. هل وصل جماعة الدرب المضيء إلى ناكوس؟ من الأفضل أن نعرف ذلك. فما حصل لهؤلاء الثلاثة قد يحدث لأي شخص هنا. ربما لك أنت نفسك أو لزوجك يا دونيا أدريانا. ألم تسمعي بأن الإرهابيين يعاقبون ممارسي الرذائل؟ وأنهم يجلدون شاربي الخمر؟ تصوري ما الذي سيفعلونه بك وبزوجك ديونيسيو وأنتما تعيشان على إسكار الناس. ونحن هنا من أجل حمايتكما أيضاً.

رسمت السيدة ابتسامة ساخرة، ودمدمت:

- إذا كانوا يريدون قتلنا فلن يستطيع أحد منعهم. ولن يستطيع

حد منعهم بالطبع إذا أرادوا إعدامكما كذلك. وأنت تعرف ذلك جيداً أيها العريف. أنتما ونحن سواء في هذه الحال، إننا أحياء بمعجزة خالصة.

كان توماسيتو يرفع يده ليقذف حصوة أخرى، ولكنه أحجم. أنزل ذراعه وتوجه إلى المرأة:

ـ لقد اتخذنا الاستعدادات لاستقبالهم يا سيدتي. زرعنا نصف الجبل بالديناميت. وقبل أن يصل أي واحد منهم إلى المخفر ستكون هناك ألعاب نارية تتطاير فيها أجساد جماعة الدرب فوق ناكوس. ـ ثم غمز ليتوما، وعاد يقول لدونيا أدريانا: ـ العريف لا يكلمك على أنك مشبوهة، بل باعتبارك صديقة. تجاوبي إذن مع ثقته بك.

عادت المرأة تزفر وتهوّي بقبعتها قبل أن تهز رأسها موافقة. رفعت يدها ببطء وأشارت إلى القمم المتتالية، الحادة منها والمسطحة، بقلنسواتها الثلجية، الرصاصية، الخضراء، الشامخة، المتفردة تحت قبة السماء الزرقاء.

ـ كل هذه الجبال تغص بأعداء ـ قالت بعذوبة ـ. إنهم يعيشون فيها. يقضون الليل والنهار في تدبير شرورهم. إنهم يسببون الأذى والمزيد من الأذى. هذا هو سبب كثرة الحوادث: الانهيارات الثلجية، الشاحنات التي أفرغ هواء مكابحها أو انعدمت الرؤية أمامها عند المنعطفات، صناديق الديناميت التي تنفجر حاملة معها أرجلاً ورؤوساً.

كانت تتكلم دون أن ترفع صوتها، بصورة آلية، مثل تراتيل الموكب أو مثل تأوهات المنتحبات في المآتم.

ـ إذا كان كل سر من عمل الشيطان، فليس هناك أي صدفة في الحياة ـ علّق ليتوما بسخرية ـ. وماذا عن الفرنسيين اللذين كانا ذاهبين إلى أنداهوايلاس، هل إبليس هو من قتلهما بالأحجار أيضاً؟ لأن الأعداء الذين تتحدثين عنهم هم الشياطين، أليس كذلك؟

ولكن المرأة أضافت وهي تشير إلى الجبال:

- إنهم هم الذين يدفعون الهوايكو[1] أيضاً.

الهوايكو! لقد سمع ليتوما عن ذلك من قبل. لحسن الحظ أن أياً منها لم يسقط هنا. حاول أن يتصور تلك الانهيارات الثلجية والصخرية والطينية التي تهوي من أعالي سلسلة الجبال، وتنزل مثل دوامة موت، جارفة معها كل شيء، متعاظمة بما تنتزعه من المنحدرات، محملة بالأحجار، دافعة الزرع والمواشي والقرى والبيوت والأسر. أيكون الهوايكو من نزوات الشيطان؟

وعادت السيدة أدريانا تشير إلى القمم:

ـ ومن سواه قادر على إطلاق هذه الصخور. من يمكنه دفع الهوايكو بدقة إلى حيث يسبب أشد الأضرار.

صمتت وعادت تلهث. لقد كانت تتكلم باقتناع شديد لدرجة أن ليتوما شعر بالذعر للحظات. ولكنه قال بإلحاح:

- وماذا عن هؤلاء المختفين يا سيدتي؟

أصاب أحد أحجار توماس هدفه ودوت ضجة معدنية امتد صداها نحو الأسفل. ورأى ليتوما مساعده ينحني لالتقاط حفنة أخرى من القذائف.

وواصلت دونيا أدريانا:

- لا يمكن عمل الكثير ضدها. ولكن بالإمكان عمل شيء ما. بالإمكان إرضاؤها، شغلها. ليس بتلك التقدمات والقرابين التي يتركها الهنود في شقوق الصخر، أو بأكوام الحجارة أو تلك الأزهار أو الحيوانات الصغيرة، هذا كله لا يفيد في شيء. ومثلها تلك الرشفات من خمر التشيشا[2] التي يسكبونها لها. إن أهالي هذه

[1] هوايكو huayco بالكيتشوا: هي انهيارات ضخمة تحدث في جبال الإنديز.

[2] التشيتشا (Chicha) شراب كحولي يصنع بتخمير الذرة.

القرية المجاورة يذبحون لها في بعض الأحيان خروفاً أو ألبكة، ولكنها مجرد حماقات. إنها تنفع في الأوقات العادية، ولكن ليس في هذه الأوقات. فما يروق لها أكثر هو القربان البشري.

بدا لليتوما أن مساعده يكبح ضحكة. أما هو فلم تكن لديه رغبة في الضحك مما تقوله الساحرة. فمثل هذه الأحاديث تجعل بدنه يقشعر، اللهم إلا إذا كانت تبجحات ادعائية أو هذيانات مخبولة.

- وأنت قرأتِ في كف ديميتريو تشانكا أنه...؟

فهزت كتفيها:

- لقد حذرته لأني رغبت في ذلك. ولكن ما هو مكتوب سيتحقق على أي حال.

ما الذي سيقوله رؤساءه هناك في هوانكايو إذا ما بعث إليهم عبر جهاز اللاسلكي الذي في المعسكر هذا التقرير حول ما حدث: «ضُحي به بطريقة غامضة غير محددة من أجل تهدئة أرواح الأنديز الشريرة، نقطة. قدر مكتوب على راحة كفه، حسب قول أحد الشهود، نقطة. أقفل التحقيق في القضية، نقطة. مع الاحترام، رئيس المخفر، نقطة. العريف ليتوما. نقطة».

- أنا أتكلم وأنت تضحك - قالت المرأة بخنة وبصوت خافت.

فقال العريف:

- إنني أضحك مما سيقوله رؤسائي في هوانكايو إذا ما أخبرتهم بالتفسير الذي قدمتهِ لي. شكراً لك على كل حال.

- أيمكنني أن أنصرف؟

هز ليتوما رأسه بالإيجاب. فرفعت دونيا أدريانا جسدها الوافر بمشقة، ودون أن تودع الشرطيين، بدأت تبتعد على المنحدر باتجاه المعسكر. إنها وهي توليهما ظهرها، بفردتي صندلها غير المتوافقتين،

وباهتزاز مؤخرتها الضخمة التي تجعل طيات تنورتها الخضراء تختلط ببعضها البعض، وبقبعتها القشية المتأرجحة، كانت تبدو مثل فزاعة عصافير. أتكون هي نفسها شيطانة أيضاً.

ـ هل رأيت هوايكو يوماً؟

ـ لا يا حضرة العريف، ولست أحب أن أراه، ولكنني حين كنت صغيراً رأيت واحداً كان قد انهار قبل أيام قليلة خارج سيكواني، وشق مجرى هائلاً في الجبل. لقد كان مساره واضحاً، ينحدر على طول الجبل مثل مقلع حجارة كلسية. وقد سحق بيوتاً وأشجاراً، وكذلك بشراً بالطبع. لقد حمل معه صخوراً هائلة إلى أسفل. وظل الغبار يغطي كل شيء باللون الأبيض عدة أيام.

ـ هل تظن أن دونيا أدريانا متواطئة مع الإرهابيين؟ أتراها تتلاعب بنا على هواها بقصة شياطين الجبال هذه؟

ـ أنا أصدق أي شيء يا عريفي. فالحياة جعلتني أكثر الرجال تصديقاً في العالم.

❖ ❖ ❖

منذ طفولة بيدريتو تينوكو كانوا يدعونه المخبول، الأبله، المعتوه، الأحمق، وكانوا يدعونه كذلك آكل الذباب لأنه كان يمشي دائماً فاتحاً فمه.

لم تكن هذه الألقاب تغضبه لأنه لا يغضب من أحد ولا من شيء.

ولم يكن أهالي أبانكاي كذلك يغضبون منه أبداً، فهو يكسب مودتهم بابتسامته الهادئة، بروحه الخدوم وبساطته. يقال إنه لم يكن من أبانكاي، وأن أمه جاءت به إلى هناك بعد أيام من ولادته، ولم تبق في المدينة إلا الوقت الذي احتاجته من أجل ترك هذا الابن غير المرغوب فيه، في لفافة، أمام كنيسة عذراء الروساريو. أهي أقاويل أم حقائق؟ لا أحد في أبانكاي يعرف أي

شيء آخر عن بيدريتو تينوكو. الجيران يتذكرون أنه منذ طفولته كان ينام مع كلاب ودجاجات الكاهن (وهناك ألسنة سوء تقول أيضاً إنه أبوه)، وقد كان يكنس له الكنيسة ويخدمه كقارع أجراس ومساعد إلى أن توفي الكاهن. عندئذ انتقل بيدريتو، وكان قد صار يافعاً، إلى شوارع أبانكاي حيث عمل حمالاً، وماسح أحذية، وكناساً، ومساعداً لشرطة الحرس الأهلي وبديلاً عنهم عند غيابهم، وساعي بريد، وجامع قمامة، وحارس أكشاك في السوق، وحاجباً في دار السينما أو في السيرك الذي يأتي إلى المدينة في الأعياد الوطنية. كان ينام متكوراً على نفسه في الحظائر أو في الكنائس أو تحت المقاعد في ساحة السلاح، ويأكل مما يقدمه إليه الجيران المحسنون. كان يمضي حافياً وببنطال فضفاض ومشحم يثبته بحبل، وبعباءة بونتشو مفككة الخيوط، ولم يكن يخلع عن رأسه طاقية تشويّو تظهر من تحت حوافها خصل من شعره السبط الذي لم يمسسه مقص أو مشط قطّ.

وعندما جرى تجنيد بيدريتو تينوكو، حاول بعض الأهالي إفهام الجنود أن ذلك عمل جائر. فكيف يمكن أن يؤدي الخدمة العسكرية شخص يبدو مخبولاً بمجرد النظر إليه، شخص لم يتعلم حتى الكلام، ويبتسم فقط بذلك الوجه الطفولي دون أن يفهم ما يقال له، ولا يعرف من يكون أو أين هو؟

لكن الجنود لم يسمحوا للجيران بأن يلووا ذراعهم وأخذوه مع غيره من الشبان الذين نصبوا لهم كمائن في الخمارات ومشارب التشيتشا ودور السينما وملعب كرة القدم في المدينة. وفي الثكنة العسكرية قصوا له شعره، وعروه، وحمموه حماماً كاملاً بخراطيم الماء أول مرة في حياته، وألبسوه بدلة الخاكي وحذاء عسكرياً لم يعتد عليه قطّ، لأن رفاقه رأوه خلال الأسابيع الثلاثة التي أمضاها

هنـاك يمـشي وكأنـه أعـرج أو مـشلول. ومـع بدايـة الأسـبوع الرابـع لتجنيده هرب من الثكنة.

هـام علـى وجهـه فـي الجبـال غـير المأهولـة فـي امبوريمـاك ولوكانـاس بمنطقـة أياكوتـشو، متجنبـاً الـدروب المطروقـة والقـرى، وكـان يأكـل الأعـشاب ويبحـث فـي الليـل عـن مغـارة فيـسكاش[1] ليحتمي من عواصف الرياح الجليدية، عندما عثر عليه الرعاة كان قد هزل حتى تحول إلى مجرد عظم وجلد ونظرة محمومة من الجوع والخوف، ولكن بضع حفنات من الذرة المسلوقة مع لقمة من اللحم المقدد ورشفة من التشيتشا أعادت إليه الحيوية. أخذه الرعاة معهم إلى أوكيباتا، وهـي قريـة قديمـة فـي الأراضـي العاليـة تنمـو فـيها بعض البطاطا الضاربة إلى السواد وبعض درنات الأويوكو الضامرة.

اعتاد بيدريتو على أوكيباتا وسمح له قرويوهـا بالبقـاء فـيها. وقد اكتسب هنـاك، كمـا فـي المدينـة، تعـاطف النـاس وتقبلـهم بفـضل روحـه الخـدوم وحياتـه الزاهـدة. إن صـمته، وابتـسامته الأبديـة، واستعداده الدائم لعمل كل ما يطلب منه، ومزاجه في أن يكون فـي عالم الأرواح الطليقة، جميعها كانت تمنحه هالة قديس. وكان القرويـون يعاملونـه بتـوقير وينظـرون إليـه بخـشوع، مـوقنين بأنـه لـيس واحداً منهم، بالرغم من أنه يشاطرهم أعمالهم واحتفالاتهم.

بعد بعض الوقت ـ ما كان بمقدور بيدريتو أن يحدد متى، لأن الوقت فـي حياته لا ينساب بالطريقة نفسها التي ينساب بها فـي حياة الآخرين ـ جاءت جماعة من الغرباء، جاؤوا وذهبوا ثم رجعوا وكان هنـاك اجتمـاع اسـتمر سـاعات طويلـة لمناقـشة الاقتراحـات. وكـان القادمون الجدد يرتدون ثياباً مثل تلك التي يرتديها آخرون كما يخيل لـذاكرة بيـدريتو المـشوشة. أوضـح فـارايوك[2] أن مـشروع محميـة

[1] فيسكاش Vizcach: حيوان من القوارض، موطنه جبال البيرو وبوليفيا وتشيلي.

[2] فارايوك Varayok: بلغة الكيتشوا، تطلق على عمد أو زعماء القرى الهندية.

حيوانات الفكونا التي ستربيها الحكومة لن يطغى على أراضي القرويين، بل إنه سيكون مفيداً لبلدة أوكيباتا، لأن أهلها سيبيعون منتجاتهم إلى السائحين الذين تجتذبهم حيوانات الفكونا.

جرى التعاقد مع إحدى الأسر للقيام بأعمال الحراسة في أثناء نقل الفكونا إلى النجد شبه الضائع وسط الجبال، ما بين نهري تامبوكيمادو وسان خوان، على مسيرة يوم واحد من مركز البلدة. كانت هناك أعشاب اتشو، وبحيرات، وجداول ومغاور في الجبال، وهكذا تأقلمت الفكونا بسرعة مع المكان. كانوا يأتون بها في شاحنات من أماكن بعيدة في سلسلة الجبال، حتى مفترق الطريق إلى سان خوان، ولوكاناس وبوكيو، ومن هناك كان يقودها رعاة أوكيباتا. ذهب بيدريتو تينوكو للعيش مع الحراس في المحمية.

ساعدهم في بناء مأوى وإعداد قطعة أرض لزراعة البطاطا وحظيرة لتربية أرانب الكويي. لقد قيل لهم إن السلطات ستأتي بين حين وآخر لتوصل إليهم مؤناً وأثاثاً للمسكن ولتدفع لهم راتباً. وبالفعل، كان يظهر بين فترة وأخرى أحد رجال السلطة، في شاحنة صغيرة حمراء. يوجه إليهم بعض الأسئلة ويقدم لهم نقوداً وتمويناً. ثم لم يعودوا يأتون. وانقضى وقت طويل دون أن يطل أحد على المحمية، فحزم الحراس في أحد الأيام أمتعتهم ورجعوا إلى أوكيباتا. وبقي بيدريتو وحده مع حيوانات الفكونا.

لقد أقام مع تلك الحيوانات الحساسة علاقة أكثر حميمية من أي علاقة استطاع إقامتها مع أبناء جنسه. كان يمضي الأيام بمراقبتها، وتفحص عاداتها، وحركاتها، وألعابها، ونزواتها باهتمام ذاهل، شبه صوفي، متلوياً من الضحك حين يراها تطارد بعضها بعضاً، أو تتبادل العض، أو تتقافز بين العشب، أو تكتئب عندما تتدحرج إحداها في الهاوية وتتكسر قوائمها، أو حين تنزف إحدى

الإناث في ولادة غير موفقة. وقد تبنته حيوانات الفكونا كذلك، مثلما فعل من قبل أهالي أبانكاي وقرويو أوكيباتا، فكانت تتركه يدنو منها دون أن تنفر منه، وكانت الإناث المتوددات تسحبه من عنقه طالبة منه بأعينها الذكية أن يشدها من آذانهن أو يحك ظهورها وبطونها أو يدعك أنوفها (وهذا أكثر ما يروقها). بل إن الذكور في فترة السفاد، حين يصبح شرسة ولا يسمح أي واحد منها لأحد بالاقتراب من محظياته الأربع أو الخمس، كانت تسمح لبيدريتو باللعب مع الإناث، ولكن ـ وهذا صحيح ـ دون أن ترفع نظرها عنه، وهي على أهبة الاستعداد دائماً للتدخل في حالة الخطر.

كان يجيء إلى المحمية أحياناً بعض الغرباء، يأتون من بعيد، لا يتكلمون الكيتشوا ولا الإسبانية، وإنما يطلقون أصواتاً تبدو لبيدريتو تينوكو غريبة مثل أحذيتهم ولفاعاتهم وسترهم وقبعاتهم. وكانوا يلتقطون صوراً ويقومون بمسيرات طويلة للتفرج على الفكونات. ولكن، بالرغم من كل جهود بيدريتو، لم تكن الحيوانات تسمح لهم بالاقتراب منها. وكان هو يدعوهم إلى مأواه ويخدمهم، وحين ينصرفون يقدمون إليه معلبات محفوظة وبعض النقود.

لقد كانت تلك الزيارات هي الخروج الوحيد عن المعتاد في حياة بيدريتو الرتيبة التي تتلوى من إيقاعات وظواهر الطبيعة: أمطار وبرد المساء والليل، وشمس الضحى التي لا ترحم. كان ينصب الأفخاخ للفيسكاش ولكنه لا يأكل في الغالب سوى البطاطا التي يجنيها من قطعة أرضه الصغيرة المزروعة، وقد يذبح بين حين وآخر أرنب كويي ويأكله. وكان يُملّح قطعاً من لحم الفكونا التي تموت ويجففها في العراء. وبين فترة وأخرى كان ينزل إلى أحد الأسواق

الموسمية فـي القرى ليقايض البطاطا ودرنات والأولوكو مقابل بعض الملح وكيس من الكوكا. وفـي بعض الأحيان يصل رعاة القرية إلى تخوم المحمية، فيستريحون فـي مأوى بيدريتو تينوكو ويطلعونه على أخبار أوكيباتا، فكان يستمع إليهم باهتمام شديد، جاهداً فـي تذكر عما وعمن يتحدثون. فالمكان الذي جاؤوا منه يبدو له مثل حلم غامض. لقد كان الرعاة يحركون بعض الأعماق الراكدة التائهة فـي ذاكرته، والصور الهاربة، وآثار عالم آخر وشخص لم يعد هو نفسه. ولم يكن يفهم كذلك ما يقولونه عن أن الأرض قد انقلبت، وأن لعنة قد حلت عليها، وأن ثمة أناساً يقتتلون.

فـي الليلة التي سبقت ذلك الفجر حدثت عاصفة بَرَد. وكانت مثل تلك العواصف تصرع بعض حيوانات الفكونا الصغيرة دائماً. لقد كان يفكر بالحيوانات التي تموت متجمدة أو محروقة بالصواعق وهو قابع تحت عباءته فـي المأوى طوال الليل تقريباً، بينما تتسرب من شقوق السقف حفنات من المطر. وقد نام عندما بدأت العاصفة بالهدوء. ثم استيقظ على أصوات عالية. نهض، وخرج فوجدهم هناك. كانوا نحو عشرين شخصاً، إنهم أكثر عدداً من أي جماعة غرباء رآها بيدريتو تأتي إلى المحمية. كانوا رجالاً ونساء وشباناً وصبية. وقد خلط ذهنه بينهم وبين الثكنة المشوشة فـي ذاكرته، لأن هؤلاء أيضاً كانوا يحملون البنادق والرشاشات والسكاكين. ولكنهم لا يرتدون ملابس الجنود. كانوا قد أشعلوا موقداً وراحوا يطبخون. رحب بهم مبتسماً لهم بوجهه المذهول، ومحيياً مرة بعد أخرى، ومطأطئاً رأسه باحترام.

كلموه أول الأمر بالكيتشوا، ثم بالإسبانية:

- يجب عليك ألا تنحني بهذه الطريقة لأحد. يجب ألا تكون ذليلاً. لا تنحن لنا وكأننا «سادة». إننا من معشرك. نحن مثلك.

كـان محدثـه شـاباً ذا نظـرة قاسـية، لـه ملامـح مـن عـانى كـثيراً ومن يحقد كثيراً. كيف يمكنه أن يكون قاسياً هكذا وهو يكاد يكون طفلاً؟ هل فعل أو قال شيئاً أغضبه؟ ولكي يصلح بيدريتو تينوكو غلطته هرع إلى مأواه وأحضر لهم كيساً من البطاطا وشرائح من اللحم المقدد، وقدمها إليه وهو ينحني احتراماً.

- ألا تستطيع التكلم؟ سألته ذلك إحدى الفتيات بالكيتشوا.

فقال آخر وهو يتفحصه من أعلى إلى أسفل:

- لا بد أنه نسي الكلام. فليس هناك من يصل إلى هذه العزلات مطلقاً. أتفهم على الأقل ما نقوله لك؟

كان يسعى جاهداً ألا يضيع كلمة واحدة مما يقولونه، ويسعى بصورة خاصة إلى إدراك الطريقة التي عليه خدمتهم بها. سألوه عن الفكونات: كم عددها، وإلى أين تصل حدود المحمية من تلك الجهة، ومن تلك، ومن تلك، أين تشرب الحيوانات الماء عادة، وأين تنام. وكانوا يومئون له بحركات كثيرة مكررين كل كلمة مرتين، وثلاث وعشر مرات. أشاروا إليه بأن يأخذهم إليها، وأن يساعدهم على تجميعها. وشرح لهم بيدريتو وهو يقفز ويقلد حركات الحيوانات عند هطول المطر، بأنها في المغاور. وأنها قد أمضت الليل هناك، متلاصقة، بعضها فوق بعض، لتدفئة أجسادها، مرتعشة من الرعود والبروق. إنه يعرف كل ذلك، فقد كان يبقى ساعات طويلة هناك بين الحيوانات، يحتضنها، يحس بخوفها، ويرتعش كذلك من البرد ويكرر من حلقه الأصوات التي تتفاهم بها الحيوانات فيما بينها.

- إنها في هذه الجبال - فهم عليه أحدهم أخيراً -. هناك أماكن نومها.

وقال الشاب ذو النظرة القاسية:

- خذنا إليها. تعال معنا، ساهم بنصيبك أيها الأبكم.

قادهم سائراً على رأس الجماعة عبر السهل. لم تعد تمطر. كانت السماء زرقاء صافية، وكانت الشمس تصبغ الجبال المحيطة بلون ذهبي.

كانت تنبعث من الأعشاب والأرض الموحلة، المليئة ببرك الماء، رائحة حريّفة تبهج بيدريتو. فتح منخريه وتنشق عبير الأرض والتراب والجذور التي تبدو كأنها قد أصلحت الدنيا، وطمأنت من خافوا ـ تحت الأعاصير والرعود ـ من أن تنتهي الحياة في كارثة قيامية. كان عليهم أن يمشوا طويلاً لأن الأرض زلقة والأقدام تغوص فيها حتى الكاحلين. وكان عليهم أن ينتزعوا أحذيتهم وأخفافهم وصنادلهم من الوحل انتزاعاً. هل يرى جنوداً أم شرطيين؟

وكانوا يقولون: ـ إنه لا يفهم. إنه معتوه.

ويقولون: ـ يفهم، ولكنه لا يستطيع التعبير. فكل هذه العزلة، والعيش مع الفكونا جعلته أبكم.

ويقولون: ـ هذا أفضل.

حين وصلوا إلى حافة الجبال، أشار لهم بيدريتو تينوكو بالقفز والإيماءات وحركات الوجه، أنه عليهم البقاء هادئين بين الشجيرات، دون أن يتكلموا ودون أن يتحركوا، حتى لا يُفزعوا الحيوانات. فسمعها مرهف، ونظرها بعيد المدى، وهي شديدة الاحتراز والخوف، وإنها ما إن تشم وجود غرباء حتى تبدأ بالارتعاش.

قال الطفل ذو العينين القاسيتين:

ـ فلننتظر هنا، ولنكن هادئين، انتشروا دون ضجة.

رآهم بيدريتو تينوكو يتوقفون، يتفرقون، ينحنون منتشرين على شكل مروحة، ثم يقبعون بين أعشاب الاتشو متفرقين بعضهم عن بعض. انتظر إلى أن استقروا في أماكنهم، إلى أن اختفوا، إلى أن انطفأت الأصوات التي كانت تصدر عنهم. وتقدم على رؤوس أصابعه

نحو المغاور. وبعد قليل لمح بريق عيون الحيوانات. فمن كانت منها تترصد عند العتبات راقبته وهو يقترب. كانت تتأمله وآذانها منتصبة، وهي ترهف أنوفها الباردة لتتأكد من الرائحة المألوفة، رائحة لا تحمل أي تهديد للذكور أو الإناث، للكبار أو الصغار. شدد بيدرو تينوكو من احتراسه، ومن هدوء مشيته كي لا يهيج نزقها المرضي، وبدأ يفرقع بلسانه ويجعله يهتز بخفوت تحت سقف حلقه، مقلداً أصواتها ومتحدثاً إليها بتلك اللغة التي تعلّم التكلم بها. كان يطمئنها، يخبرها بقدومه، يستدعيها. وحينئذ رأى نيزكاً رمادياً يمرق بين قدميه: إنه فيسكاش. لقد كان يحمل مقلاعه، وكان يمكنه أن يصطاده، ولكنه لم يفعل حتى لا يخيف الفكونات. كان يشعر بثقل نظرات الغرباء في ظهره.

بدأت الفكونات بالخروج. ليس واحدة واحدة وإنما في أسر، مثلما هي عادتها. الذكر مع إناثه الأربع أو الخمس يحطنه برعايتهن، والأم مع وليدها يتعثر بين قوائمها. كانت تتنشق ماء الهواء، تتفحص الأرض المقلوبة، والعشب المائل، تتشمم العشب الذي بدأت الشمس تجففه وستأكله هي الآن. كانت تحرك رؤوسها إلى اليمين وإلى اليسار. إلى أعلى وأسفل، آذانها منتصبة، وأجسادها متوترة بتلك الريبة التي تشكل ميزة سائدة في طبيعتها. رآها بيدرو تينوكو تمر، تحتك به، تتمطى حين يشدها من عقدة آذانها الدافئة أو حين يمد أصابعه بين وبرها ليقرصها.

حين لعلع الرصاص ظنه رعداً، عاصفة أخرى تقترب، ولكنه رأى الهلع في أعين أقربها إليه ورآها ترتبك، تتصادم، تدور حول نفسها، تسقط، تتعثر، مبهورة ومخبولة من الرعب، حائرة ما بين الهرب إلى السهل الفسيح أو العودة إلى المغاور، ورأى سقوطها أولها تتجندل مضرجة بالدماء وهي تئن وظهورها مفتوحة، وعظامها

مكسورة، ومخاطمها وعيونها وآذانها مقلوعة بالقذائف. بعضها كان يسقط ثم ينهض ويعود للسقوط ثانية، وغيرها كانت متجمدة في أماكنها، تمط أعناقها وكأنها تريد أن ترتفع وتهرب عبر الأثير. بعض الإناث كانت تنحني وتلحس صغارها المصابة بجراح قاتلة. وكان هو نفسه مشلولاً أيضاً، يتلفت، يحاول أن يفهم، رأسه يتحرك من جانب إلى آخر، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، فمه متراخ، أذناه، معذبتان بصوت الرصاص وبتلك التأوهات الأسوأ من تأوهات الإناث عند المخاض.

وكان الطفل ـ الرجل يزمجر بين الفينة والأخرى:

ـ لا تصيبوه. انتبهوا! بحذر!

إضافة إلى إطلاق النار، كان بعضهم يركضون للقاء من تحاول الهرب، يحاصرونها، يزربونها في ركن ويجهزون عليها بأعقاب البنادق والسكاكين. وأخيراً جاء رد فعل بيدرو تينوكو، فبدأ يقفز، ويصرخ من صدره ومعدته، ويهز ذراعيه مثل مروحة. راح يتقدم، يتقهقر، يقف ما بين البنادق والفكونات، متضرعاً إليهم بيديه وصرخاته ومستنكراً بعينيه. ولم يكن يبدو عليهم أنه يرونه. كانوا يواصلون إطلاق النار وملاحقة من تمكنت من التسلل والابتعاد بين العشب باتجاه الوهدة. عندما وصل إلى جانب الطفل ـ الرجل جثا على ركبتيه وحاول أن يقبل يده، ولكنه أبعده ينزق صارخاً به.

ـ لا تفعل هذا. ابتعد، انصرف.

ـ إنها أوامر القيادة ـ قال له آخر لا يبدو غاضباً ـ. هذه حرب. لا يمكنك أن تفهم أيها الأخرس، لا يمكنك أن تدرك الأمر.

ونصحته إحدى الفتيات مواسية:

ـ ابكِ إخوتك، إبكِ المتألمين. خير لك أن تبكي المقتولين والمعذبين. ابكِ من ذهبوا إلى السجون، ابكِ الشهداء ومن ضحوا بأنفسهم.

كان يتنقل من مكان إلى آخر محاولاً تقبيل أيديهم، والتضرع إليهم، والركوع أمامهم. فيبعده بعضهم بالحسنى، وآخرون بقرف.

كانوا يقولون له:

- ليكن لديك بعض الكبرياء والاعتزاز، ليكن لديك مزيد من الكرامة، فكر في نفسك قبل أن تفكر في الفكونات.

كانوا يطلقون النار عليها، يتجولون فيما بينها، يجهزون على المحتضر منها. بدا لبيدريتو تينوكو أن الليل لن يأتي أبداً. أحدهم نسف صغيرين يقبعان ساكنين بجانب أمهما الميتة، مزقهما بشحنة ديناميت. امتلأ الهواء برائحة البارود. استنفد بيدريتو تينوكو قواه ولم يعد قادراً البكاء. انهار على الأرض، على بطنه. كان ينظر إلى أحدهم، وينظر إلى آخر، محاولاً أن يفهم ما يحدث. بعد قليل اقترب منه الطفل ذو الملامح القاسية، وقال له مغيّراً نبرة صوته وواضعاً يده على كتفه:

- لسنا نحب عمل ذلك. إنها أوامر القيادة. وهذه محمية للعدو. عدونا وعدوك. إنها محمية أوجدتها الإمبريالية. هذا هو الدور الذي فرضته الإمبريالية علينا نحن البيروانيين ضمن استراتيجيتها العالمية: أن نربي حيوانات الفكونا. لكي يدرسها علماؤهم، لكي يلتقط لها سياحهم صوراً. أنت بالنسبة إليهم أقل قيمة من هذه الحيوانات.

ونصحته إحدى الفتيات بالكيتشوا وهي تحتضنه:

- عليك أن تذهب من هنا يا باباي[1] سيأتي شرطيون، وسيأتي جنود. سيركلونك وسيقطعون رجولتك قبل أن يطلقوا رصاصة على رأسك. انصرف بعيداً.. بعيداً جداً.

وعاد الطفل — الرجل يشرح له بينما هو يدخن وينظر إلى الفكونات الميتة:

- ربما تفهم بهذا ما لم تفهمه حتى الآن. هذه حرب، ولا يمكن

---

[1] باباي: كلمة بلغة الكيتشوتا تطلق تحبباً على الشخص المحترم أو المحبوب.

لأحد أن يقول إنه غير معني. إنها تعني الجميع، بما في ذلك الصم والبكم والحمقى. إنها حرب للقضاء على «السادة». حتى لا يركع أحدٌ لأحد، ولا يقبل أحد يد أو قدم غيره.

ظلوا هناك بقية ذلك النهار والليلة التالية. رآهم بيدريتو تينوكو وهم يعدون الطعام، ويوزعون الحراس على الجوانب المطلة على الطريق. ورآهم ينامون، متدثرين بعباءات البونتشو والبطانيات، بعضهم لصق بعض، في كهوف الجبل، مثلما كانت الفكونات تفعل. وعندما انصرفوا في صباح اليوم التالي نصحوه مرة أخرى بأنه عليه أن يغادر المكان إذا أراد ألا يقتله الجنود، ولكنه بقي في مكانه، فمه مفتوح، مبللاً بندى الصباح، دون أن يفهم هذا السر الجديد الذي لا يمكن إدراكه، تحيط به الفكونات الميتة وفوقها تحوم الطيور الجارحة والوحوش الرمّامة.

❖ ❖ ❖

- كم عمرك؟ سألته المرأة فجأة.

فهتف ليتوما:

- وأنا أيضاً أشعر بالفضول لمعرفة عمرك. فأنت لم تخبرني بذلك من قبل. كم عمرك يا توماسيتو؟

كارينيو الذي كان قد بدأ يغفو، استيقظ عندئذ تماماً. لم تعد السيارة تهتز كثيراً الآن. ولكن المحرك كان يشخر باستمرار وكأنه سينفجر عند أي منعطف في الطريق الصاعد. كانا ما يزالان يصعدان السلسلة الجبلية ذات الخضرة العالية إلى اليمين، بينما هناك إلى اليسار جروف شبه عارية يشخر في أسفلها نهر هواياغا. كانا يجلسان بين أكياس وصناديق المانجا واللوكوما والتشيرمويا والماراكويا[1] المغطاة بقطع من البلاستيك في صندوق

[1] كلها من ثمار المنطقة الاستوائية.

شاحنة عتيقة جداً ودون مشمع يقي من المطر. ولكن وابل المطر لم يهطل عليهما خلال الساعتين أو الثلاث ساعات التي أمضوها في الابتعاد عن الغابة وصعود الانديز باتجاه هوانوكو. كان الليل يزداد برودة في الأعالي. وكانت السماء تفور بالنجوم.

وقال ليتوما متضرعاً:

ـ رباه، أتح لي أن أضاجع امرأة مرة أخرى فقط قبل أن يأتوا لقتلنا. منذ وصولي إلى ناكوس وأنا أعيش مثل خصي، يا لهذه العيشة العاهرة! وقصصك عن البيورانية تجعلني أتأجج مثل جمرة يا توماسيتو.

ـ يخيل إليّ أنكَ ما زلت طفلاً ـ أضافت المرأة بعد صمت قصير، وكانت تبدو كأنها تحدث نفسها: ـ ولهذا أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق، حتى وإن كنت تعمل قاتلاً وتمضي مع الأشرار يا كارينيو. هذا هو اسمك، أليس كذلك؟ كان البدين يناديك باسم كارينتينو.

ـ النساء اللواتي عرفتهن كن خجولات، ممصوصات، أما هذه فكانت منطلقة ـ قال مساعده بإعجاب: ـ لقد استعادت السيطرة على نفسها بعد قليل من الرعب الذي سيطر عليها في تنغو ماريا. أقول لك إنها حققت ذلك بسرعة أكبر مني. هي التي أقنعت سائق الشاحنة بحملنا معه إلى هوانوكو، وبنصف السعر الذي طلبه منا. كانت تجادله مجادلة الند للند.

ـ آسف لمقاطعة حديثك ـ قال ليتوما ـ، ولكنني أشعر بأنهم سينقضون علينا هذه الليلة يا توماسيتو. أشعر وكأنني أراهم الآن بالذات يتسللون من الجبل. هل تسمع شيئاً هناك في الخارج؟ هل ننهض لإلقاء نظرة؟

ـ عمري ثلاثة وعشرون عاماً ـ قال هو ـ وأنا أعرف كل ما تجب معرفته.

ـ ولكنك لا تعرف أن بعض الرجال يستخدمون بعض الحيل

أحياناً من أجل التلذذ - ردّت هي بنبرة متحدية -. هل تريدني أن أخبرك بشيء يقلب معدتك يا كارينيتو؟

- لا تقلق يا عريفي. سمعي مرهف جداً وأقسم لك إنه ليس هناك من يقترب من الجبل.

كان الفتى والمرأة متجاورين، محصورين بين أكياس الفاكهة. وكان شذى المانجا يزداد حدة مع تقدم الليل. وهدير المحرك وطفراته تطغى على أزيز الحشرات، ولم يكن يُسمع كذلك صوت اصطفاق أوراق الأشجار اليابسة ولا هدير النهر.

قال مساعد العريف متذكراً:

- كانت اهتزازات الشاحنة تلصق أحدنا بالآخر. وكلما شعرت بملامسة جسدها كنت أرتعش.

- أهذا ما تسمونه ارتعاشاً الآن؟ ـ قال ليتوما ساخراً ـ لقد كنا نسميه فيما مضى تحمية الشبق. معك حق، لا يُسمع أي شيء في الخارج، إنها مخاوفي فقط، أترى، لقد بدأ بالانتصاب وأنا أسمع قصتك، ولكن تلك الضجة أخمدته.

ــ حتى إنه لم يكن يضربني بجد ــ دمدمت المرأة. فانتفض كارينيو. بدا له أنها تبتسم لأنه رأى بريق أسنانها، ولكنها أضافت قائلة: - أنت ظننته يضربني بقسوة بسبب الكلمات البذيئة التي كان يقولها وبسبب توسلاتي وبكائي. ألم تلحظ أن ذلك كله كان من أجل الاستثارة فقط؟ من أجل استثارته. ما رأيك يا كارينيتو؟

- اصمتي وإلا أنزلتك من الشاحنة - أسكتها ساخطاً.

- لحسن الحظ أنك لم تقل لها «اصمتي وإلا سأنهال عليك ركلاً»، «اصمتي وإلا سأكسر روحك» ـ قاطعه ليتوما ــ لأن ذلك سيكون مضحكاً يا توماسيتو.

- هذا ما ردّت به عليّ هي نفسها يا عريفي. وجاءتنا القهقهة معاً.

كنا نضحك بالعدوى، ثم نتخذ مظهر الجد، ثم نعود إلى الضحك من جديد.

واعترف لها الفتى:

ـ أجل سيكون من المضحك أن أضربك. أعترفُ لكِ بأن الرغبة تراودني أحياناً في ضربك، عندما تؤنبينني لأني أردت أن أقدم لك معروفاً. سأقول لك شيئاً. لست أدري ما الذي سيحدث لحياتي الآن.

فردّت هي:

ـ وماذا عن حياتي؟ أنتَ على الأقل أقدمت على هذه الحماقة لأنك أردت ذلك. أما أنا فورطتني في المشكلة دون أن تسألني رأيي. سيبحثون عنا، وقد يقتلوننا. ولن يصدق أحد ما جرى في الحقيقة. سيقولون إنك تعمل لمصلحة الشرطة وإنني متواطئة معك.

فوجئ ليتوما:

ـ ألم تكن المرأة تعرف أنك شرطي في الحرس الأهلي حينئذ؟

وتذكر الفتى ما قاله لها:

ـ وأنا لا أعرف حتى اسمكِ.

ساد الصمت، وكأن المحرك قد انطفأ، ولكنه ما لبث أن عاد يشخر ويغلي في الحال. بدا لتوماس أن تلك الأنوار في الأعلى هي طائرة.

ـ اسمي ميرثيدس.

ـ أهو اسمك الحقيقي؟

ـ ليس لي سوى اسم واحد ـ قالت غاضبة ـ. وأنا، لعلمك، لست عاهرة. لقد كنت صديقته. وقد أخرجني هو من استعراض كنت أعمل فيه.

ـ في صالة الباثيلون، ناد ليلي في ليما ـ أوضح الشرطي ـ. كانت واحدة من كثيرات. لقد كان لدى تشانشو صف طويل من

العشيقات. اسخريوطي تعرف على نحو خمس عشيقات منهن.

ـ من مثله. ـ تنهد ليتوما ـ خمس عشيقات دفعة واحدة! يبدل أنثى كل يوم، كل ليلة، مثلما يبدل سرواله أو قميصه الداخلي. أما أنت وأنا، فليس لنا إلا الجوع يا توماسيتو.

واصل مساعده الحديث مستغرقاً في الذكرى:

ـ كنتُ أشعر بألم في عظام ظهري. ولم تكن هناك طريقة لإقناعِ سائق الشاحنة بأن يسمح لنا بالركوب في القمرة. كان خائفاً من أن نقوم بالسطو عليه. كان جسدانا منهوكين. وكان الشك يأكلني وأنا أفكر فب ما قالته ميرثيدس. أيكون صحيحاً أن كل ذلك التأوه والنواح كان تمثيلاً من أجل استثارته؟ ما رأيك أنت يا عريفي؟

ـ لا أدري ماذا أقول لك يا توماسيتو. ربما كان تمثيلاً. هو يتظاهر بأنه يضربها، وهي تتظاهر بأنها تبكي، وعندئذ يحمى ويندفع. يقال إن هناك أشخاصاً هكذا.

ـ يا له من خنزير قذر ـ زمجر المساعد ـ. إنه يستحق الموت، اللعنة.

ـ ومع ذلك، فقد وقعتَ أنتَ في حب ميرثيدس. كم هي معقدة شؤون الحب هذه يا توماسيتو.

فدمدم الحارس:

ـ هذا ما عرفته. لولا الحب لما كنتُ في هذه المنطقة النائية العاهرة، أنتظرُ مجيء بعض المتعصبين ملعوني الأم ليأتوا ويقتلوني.

ـ أتسمع شيئاً؟ سألقي نظرة على سبيل الاحتياط ـ شنف ليتوما سمعه. ونهض حاملاً المسدس في يده ومضى نحو باب الكوخ. نظر متفحصاً في كل الاتجاهات. ثم رجع إلى سريره ضاحكاً: ـ لا، ليسوا هم. بدا لي وكأنني أرى الأبكم يتبرز على ضوء القمر.

ما الذي سيحدث له الآن؟ من الأفضل عدم التفكير في ذلك.

سيصل إلى ليما وسيرى ما الذي سيحدث. هل سيواجه عرّابه بعد كل هذا الذي جرى؟ سيكون أكثر الكؤوس مرارة بالطبع. لقد تصرف معك دائماً بأريحية، وكيف كان ردك عليه بالمقابل! هذا هو ما يسمونه الخطيئة الكبرى يا كارينيو. أجل، ولكنه غير عابئ. إنه يشعر الآن بأنه أحسن حالاً وهو يترنح مع اهتزاز السيارة، ويلامس جسدها بين حين وآخر، إنه أفضل حالاً بكثير مما كان عليه هناك في تنغو ماريا، حين كان يرتعش، يتعرق، يختنق وهو ملتصق بأخشاب ذلك البيت، مستمعاً إلى بذاءاته. أكانت كل تلك التأوهات والتوسلات والضربات والتهديدات مجرد تمثيل، مجرد أكاذيب؟ أهي زيف أم إنها الحقيقة.

قال توماس مؤكداً:

ـ لم أكن أشعر بأي تأنيب ضمير يا عريفي، هذه هي الحقيقة. مهما يكن ما سيحدث. لأني كنت قد فُتنت بها، مثلما تخيلتَ حضرتك.

غلبهما النعاس من الخدر ومن رائحة المانجا الحلوة. كانت ميرثيدس تحاول أن تسند رأسها إلى حافة الصندوق، ولكن اهتزازات الشاحنة كانت تمنعها من ذلك. سمعها كارينيو تتذمر، رآها تغطي وجهها بكفيها، تتحرك تتقلب باحثة عن وضعية مريحة. وأخيراً سمعها تقول بصوت حاولت أن يبدو طبيعياً:

ـ فلنتوصل إلى اتفاق. استند إلى كتفي قليلاً. وبعد ذلك أستند أنا إلى كتفك. إذا لم ننم بعض الوقت، فسنصل ميتين إلى هوانوكو.

فعلق ليتوما:

ـ هيا، لقد صار الأمر جدياً. حدثني بسرعة عن أول مرة ضاجعتها فيها يا توماسيتو.

وقال توماس بمرح:

- عندئذ مددت ذراعي وأفسحت لها مرقداً. وأحسستُ بجسدها يلتصق بجسدي، وبرأسها يرتاح على ذراعي.

- وقد انتصب معك بالطبع - قال ليتوما.

تجاهل الشاب التلميح مرة أخرى، وقال:

- أحطتها بذراعي، وأسندت يدي عليها. كانت ميرثيدس تتعرق. وأنا كذلك. كان شعرها يحتك بوجهي، يدخل في أنفي. أحسست بانحناءة وركها تلتصق بانحناءة وركي. وحين كانت تتكلم كانت شفتاها تلمسان صدري، وكنت أشعر من خلال القميص بدفء أنفاسها.

فقال ليتوما:

- من ينتصب معه هو أنا، يا للعنة. ماذا أفعل الآن يا توماسيتو؟ هل أستمني؟

- أخرج وتبول يا عريفي، ومع البرد في الخارج سيخمد.

- هل أنت متدين جداً؟ - قالت له ميرثيدس -. هل أنت كاثوليكي جداً؟ ألا تتقبل إقدام رجل وامرأة على ممارسة بعض الأشياء؟ أتكون قد قتلته من أجل هذه الخطيئة يا كارينيتو؟

وغرَّدَ مساعده:

- أحسستُ بالسعادة وأنا أمتلكها قريبة مني. كنت أطبق فمي جيداً، وأرقد ساكناً، أصغي إلى معاناة الشاحنة وهي تصعد الجبل، وأكبح رغبتي في تقبيلها.

وقالت ميرثيدس بإلحاح:

- لا تتضايق من سؤالي، فأنا أحاول أن أفهم السبب الذي دفعك لقتله، ولا أجد سبباً لفعلتك.

- نامي ولا تفكري بذلك. - طلب منها الفتى - افعلي مثلي. أنا لم أعد أتذكر أي شيء، لقد نسيت تشانشو وتنغو ماريا تماماً. لا تُدخلي الدين في هذه الأمور.

كان ليلاً قاتماً في كتل الأنديز الصخرية التي تبدو أكثر وأكثر ارتفاعاً عند كل منعطف تلتف فيه الشاحنة. أما في الأسفل، في الغابة التي خلفوها وراءهم. فكانت هناك فجوة لونها ما بين الزرقة والبياض تبدو في الأفق.

انتصب ليتوما جالساً على سريره بغتة، وقال:

ـ أتسمع؟ أتسمع؟ خذ مسدسك يا توماسيتو. إنها أصوات خطوات في الجبل، أقسم لك.

III

- ربما اختطفوا كاسيميرو هواركايا وأخفوه لأنه كان يعلن أنه بيستاكو - قال ذلك الخمّار ديونيسيو، ثم أضاف: - لقد كانت كرة دحرجها هو نفسه. هنا، حيث أنت الآن، سمعته ألف مرة يصرخ مثل فحل خنزير: «أنا بيستاكو، وماذا في ذلك؟ سأنتهي إلى تقطيع شحمكم ومص دمكم جميعاً» ويكون مخموراً حينئذ، ولكنني أعرف أن السكارى يقولون الحقيقة. لقد سمعه كل من في الحانة. وبالمناسبة، هل هناك بيستاكو في بيورا أيها السيد العريف؟

رفع ليتوما كأس خمر الينسون الذي ملأه له الخمّار للتو، وقال لمرافقه «بصحتك» وشربه في رشفة واحدة. الدفء الحلو الذي نزل إلى جوفه رفع معنوياته التي كانت في الحضيض طوال النهار.

- أنا على الأقل لم أعرف بوجود بيستاكو في بيورا. هناك «نازعو أحزان»[1]، أجل. لقد عرفتُ واحداً منهم في كاتاكاوس. كانوا يستدعونه إلى البيوت التي فيها أرواح تتألم فيعقد معها صفقة وينصرف. إن نازع الأحزان هو مجرد نفاية إذا قارناه بالبيستاكو.

كانت الحانة في قلب المعسكر. محاطة بالعنابر التي ينام فيها العمال. وكانت بناء ذا سقف منخفض، فيها مقاعد خشبية وصناديق بدل الكراسي والطاولات. أرضها ترابية وعلى جدرانها الخشبية تُعلق صور نساء عاريات.

---

[1] نازعو الأحزان: سحرة متخصصون بمساعدة المحتضرين على الموت وباختصار آلام الاحتضار.

في الليل تكون مزدحمة على الدوام، ولكن الوقت مازال مبكراً - فقد غابت الشمس للتو - ولم يكن هناك فضلاً عن ليتوما وتوماس سوى أربعة رجال يضعون لفاعات، وكان اثنان منهم يعتمران خوذتين واقيتين. وكانوا يجلسون جميعهم معاً إلى منضدة واحدة، ويشربون البيرة. حمل العريف والشرطي كأسيهما الثانيتين من خمرة الينسون وذهبا للجلوس إلى طاولة مجاورة.

- أرى أن حديثي عن البيستاكو لا يقنعك - ضحك ديونيسيو.

كان رجلاً ذا وجه مسخّم، كأنه يدعكه بالفحم، بديناً ومترهلاً، له شعر دهني مجعد. يحشر جسده في كنزة زرقاء لا يخلعها مطلقاً، وكانت عيناه حمراوين على الدوام وتطلقان الشرر لكثرة ما يشرب من الخمر، فقد كان يشرب مثل كل ما يقدمه لزبائنه. مع أنه، وهذا صحيح، لا يصل إلى السكر التام. وليتوما لم يره يصل قطّ إلى تلك الحالة من الإشباع الكحولي التي يصل إليها كثيرون من العمال المياومين ليلة السبت. وكان من عادته فتح المذياع بأعلى صوت على إذاعة خونين، لكنه لم يكن قد أشعله بعد تلك الليلة.

سأل ليتوما الجالسين على الطاولة المجاورة:

- هل تؤمنون بالبيستاكو؟

الوجوه الأربعة التي التفتت إليه، والمغطاة حتى منتصفها بلفاعات العنق، كانت تبدو جميعها خارجة من القالب نفسه، بحيث يصعب عليه التمييز بينها: إنها وجوه محروقة بالشمس القوية والبرد القارس، وشعور جامحة لا تُدجَّن.

- من يدري؟ ربما نؤمن - ردّ أحدهم أخيراً.

ثم قال بعد لحظة أحد من وضعا خوذة:

- أنا أؤمن. إذا كان الجميع يتحدثون عنها. فلأنها موجودة.

أغمض ليتوما عينيه. ورآه أمامه: إنه غريب، نصف غرينغو. لم

يتعرف عليه للوهلة الأولى، فقد بدا له مثل أي مسيحي في هذه الدنيا. إنه يعيش في الكهوف ويقترف شروره عند الغروب. يتربص في الدروب، وراء الصخور، متكوراً بين الأعشاب الطويلة أو تحت الجسور، ينتظر المسافرين المتوحدين. يدنو منهم بخفة، مصادقاً. ويكون مسحوق عظام ميتٍ جاهزاً لديه، وعند أول بادرة سهو، يذره في وجه العابر. وعندئذ يتمكن من امتصاص شحمه. ثم يترك ضحاياه بعد ذلك يذهبون فارغين، وقد أصبحوا جلداً وعظماً، محكومين بالاستنفاد خلال ساعات أو أيام. أولئك هم البيستاكو الطيبون. إنهم يبحثون عن شحم بشري لكي تقرع نواقيس الكنائس بصورة أفضل، وكي تمشي الجرارات بنعومة، ويفعلون ذلك في الآونة الأخيرة كي تدفع به الحكومة الدين الخارجي. أما البيستاكو الأشرار فهم الأسوأ. ففضلاً عن أنهم يذبحون ضحيتهم، ويشرحونها مثل بقرة أو خروف أو خنزير ويأكلونها. فإنهم يصفّون دمها قطرة قطرة، ويسكرون بالدم، الجبليون يؤمنون بهذه الأمور، يا للعنة. أيكون صحيحاً أن الساحرة دونيا أدريانا قد قتلت بيستاكو؟

ـ لقد كان كاسيميرو هواركايو أمهق ـ دمدم العامل الذي تكلم أولاً ـ. وقد يكون ما قاله ديونيسيو صحيحاً. فربما حسبوه بيستاكو واصطادوه قبل أن يُقطّع شحمهم.

احتفى به زملاؤه على الطاولة بهمسات وضحكات. وأحس ليتوما بأن نبضه يتسرع. لقد كان هواركايو قد قطع أحجاراً وسدّ الرفش وتعرق جنباً إلى جنب مع هؤلاء في شق الطريق التي لم يكتمل سوى نصفها، وهو الآن ميت أو مخطوف، وهؤلاء البراز لا يتورعون عن ترف المزاح.

ـ إنكم تتبرزون بعظمة ساخرين من الخبر ـ قال لهم موبخاً ـ. لكن ما جرى للأمهق يمكن أن يحدث لكم أيضاً. ما رأيكم لو

داهم الإرهابيون ناكوس هذه الليلة وبدؤوا بإقامة المحاكم الشعبية مثلما فعلوا في أنداماركا؟ أتحبون أن يجلدوكم بتهمة السكر؟

فقال ذاك الذي كان قد تكلم قبلاً:

ـ لست أحب ذلك لأني لست سكيراً ولا خائناً ولا مخنثاً.

واحتفى رفاقه على الطاولة بما قاله بالضحك والوكز بالمرافق.

ـ ما جرى في أنداماركا أمر محزن ـ قال بجد واحد منهم لم يكن قد تكلم حتى الآن ـ ولكنهم كانوا جميعهم هناك من أهالي البيرو على الأقل. يبدو لي أن ما جرى في أنداهوايالاس كان أسوأ. لماذا حشر أولئك الفرنسيين في النزاع؟ قل لي؟ حتى الأجانب لا ينجون.

قاطعه الحارس كارينيو متوجهاً إلى العريف:

ـ أنا كنت أؤمن بالبيستاكو في صغري، كانت جدتي تخيفني بهم حين أزعجها وأجعلها تجدّف. لقد كبرت وأنا أنظر بطرف عيني إلى كل شخص غريب يمر في سيكواني.

ـ وهل تظن أن البيستاكو قد جففوا وشرّحوا الأبكم وكاسيميرو هواركايا ومراقب العمال.

بلل الشرطي شفتيه بكأس خمرة الينسون:

ـ لقد أخبرتك يا عريفي بأنني أصبحت مستعداً، مع سير الأمور على هذا النحو، لأن أؤمن بكل ما يقولونه لي. والحقيقة أنني أفضل تسوية أموري مع البيستاكو أكثر مما أميل إلى ذلك مع الإرهابيين.

ـ أنت محق في أن تؤمن ـ وافق العريف ـ. فمن الأفضل الإيمان بالشياطين من أجل فهم ما يجري هنا. هذان الفرنسيان في أنداهوايلاس مثلاً، أنزلوهما من الحافلة وهرسوا وجهيهما حتى جعلوا منهما عصيدة حسبما قالت إذاعة خونين. لماذا فعلوا ذلك؟ لماذا لم يقتلوهما بالرصاص ببساطة؟

ـ لقد اعتدنا على الوحشية ـ قال توماسيتو ذلك، ولاحظ ليتوما

شحوب مساعده. كانت كؤوس خمر الينسون قد أججت عينيه وأضعفت صوته: ـ أقول هذا عن نفسي أنا بالذات، وعلى المكشوف، هل سمعت بالملازم الأول باكورفو؟

ـ لم أسمع به حتى في مصارعة للكلاب.

ـ أنا كنت ضمن دوريته عند حادثة الفكونا، في بامباغاليراس. ألقينا القبض على شخص هناك، ولم يشأ أن يفتح فمه بكلمة واحدة. «دعك من التظاهر بأنك قديس ومن النظر كأنك لا تفهمني»، قال له الملازم الأول «أحذرك من أنني إذا بدأتُ معالجتك، فسوف تتكلم مثل ببغاء». وقد عالجناه.

ـ وماذا كان العلاج؟ ـ سأله ليتوما.

ـ إحراقه بعيدان الثقاب والولاعات ـ شرح له كارينيو ـ. بدءاً من قدميه، ثم الصعود شيئاً فشيئاً، مثلما تسمع، بالثقاب والولاعات. كان الأمر بطيئاً جداً. كان لحمه ينضج، وبدأت تنتشر رائحة اللحم المشوي. أنا لم أكن قد اعتدت بعد يا عريفي. باغتتني تشنجات معوية وكدت أفقد الوعي.

ـ تصور ما الذي سيفعله بي وبك الإرهابيون إذا ما أمسكوا بنا أحياء ـ قال ليتوما ـ. وهل شاركت أنت أيضاً في معالجته؟ ثم تأتيني بعد ذلك بكل هذه الضجة عندما يجلد تشانشو تلك البيورانية بضع جلدات في تنغو ماريا؟

ـ لم تسمع بعد ما هو أسوأ ـ وانعقد لسان توماسيتو قليلاً، ثم أضاف وقد شحب لونه: ـ تبين لنا أنه لم يكن حتى إرهابياً، وإنما شخص متخلف ذهنياً. لم يتكلم لأنه لا يستطيع ذلك. لا يعرف الكلام. تعرّف عليه شرطي من أبانكاي وقال: «سيدي الملازم، هذا الشخص هو مجنون قريتنا، كيف تريده أن يتكلم وهو بيدريتو تينوكو الذي لم ينطق كلمة واحدة في حياته».

- بيدريتو تينوكو؟ أتقصد بيدريتو الذي نعرفه؟ الأبكم؟ - وتناول العريف كأس خمرة الينسون الجديد وشربه في رشفة واحدة: - إنك تمزح معي يا توماسيتو؟ يا للعنة العاهرة.

- يبدو أنه كان حارس المحمية - قال توماس وهو يشرب أيضاً، محاولاً تثبيت الكأس في يده المرتعشة - ضمدنا حروقه كيفما استطعنا. وجمعنا له بعض النقود من عناصر الدورية. جميعنا أحسسنا بالضيق، بمن فينا الملازم بانكورفو. وكنت أنا متضايقاً أكثر من ضيق الجميع معاً. لهذا جئت به إلى هنا. ألم تلاحظ القروح في قدميه وكاحليه؟ لقد كانت تلك عمليتي الأولى يا عريفي. بعدها لم يعد يرعبني ولا يحزنني أي شيء. لقد تصلبت مثل الجميع. لم أقص هذه الحادثة على أحد حتى الآن لأني كنت أخجل من فعلتي. ولم أكن لأقصها عليك الليلة أيضاً لولا ما تناولته من خمرة الينسون.

ولكي لا يفكر بالأبكم، حاول ليتوما أن يتصور وجوه المختفين الثلاثة وقد تحولت إلى كتل مهروسة دامية، عيونهم مفقوءة، وعظامهم مهشمة، مثل السائحين الفرنسيين، أو محروقين على نار هادئة مثل بيدريتو تينوكو. وكيف يمكنه أن يفكر في أمر آخر، يا للعنة! تناول بقية خمرة اليانسون ونهض واقفاً:

- من الأفضل أن ننصرف قبل أن يشتد البرد.

لدى خروجهما أرسل إليهما ديونيسيو قبلة طائرة. كان الخمّار يتجول بين الموائد، وقد غصت الآن بالعمال، ممارساً حركاته التهريجية التي يقوم بها كل ليلة: خطوات راقصة، يرفع هو نفسه كؤوس البيسكو أو البيرة إلى أفواه زبائنه ليشربوها ويشجعهم على الرقص رجلاً مع رجل، لعدم وجود النساء. كان يثير حفيظة ليتوما بتصنعه وتملقه، فما أن يبدأ الخمّار بحركاته حتى ينهض العريف وينصرف. ودّعا دونيا أدريانا التي كانت تقوم على الخدمة وراء

الكونتوار. فحيتهم هي بانحناءة مبالغ فيها، تنطوي على شيء من السخرية. كانت قد انتهت لتوها من ضبط المذياع على إذاعة خونين، حيث كانت تصدح أغنية بوليرو تعرف عليها ليتوما: *شعاع قمري*. كان قد رأى فيلماً بهذا الاسم ترقص فيه شقراء ذات ساقين طويلتين: نينون سيفيا.

وفي الخارج، كانوا قد شغّلوا للتو مولّد الكهرباء الذي يوفر النور للزبائن، وكانت بعض الأشباح بقبعات غاطسة في الرؤوس أو متدثرة بعباءات بونتشو تمضي وتجيء حول المحل وترد على تحية الشرطيين الليلية بهمهمة أو انحناءة من الرأس. غطى ليتوما وكارينيو فميهما وأنفيهما باللفاعين وغطّسا قبعتيهما جيداً حتى لا تطيرهما الرياح التي تصفر صفيراً كئيباً يرتد عبر الجبال وهما يتقدمان منحنيين. وفجأة، توقف ليتوما وهتف ساخطاً:

- لقد انقلبت أحشائي، يا للعنة العاهرة!

- وما السبب يا عريفي؟

فرفع صوته وهو يبحث عن وجه مساعده بضوء المصباح:

- بسبب تعذيبكم الأبكم المسكين هناك في بامبا غاليراس. ألا يؤنبك ضميرك على تلك الوحشية؟

- في الأيام الأولى أنبني ضميري كثيراً - تمتم كارينيو وهو يطأطئ رأسه -. ولماذا تظنني جئت به معي إلى ناكوس؟ هنا بدأ يفارقني إحساسي بالذنب. وهل كنت أنا المسؤول عما أصابه. لقد عاملناه هنا جيداً، كنا نقدم له الطعام والمأوى، أليس كذلك يا عريفي؟ ربما يكون قد سامحني. ربما يكون قد أدرك أنهم كانوا سيجهزون عليه لو أنه بقي هناك في البونا.

- الحقيقة أنني أفضل أن تروي له مغامراتك مع ميرثيدس يا توماسيتو. قصة الأبكم جعلتني في أسوأ حال.

- وأنا أيضاً أريد محو هذه القصة من ذاكرتي، أؤكد لك.

- يا للأشياء التي جئتُ لأعرفها في ناكوس - دمدم ليتوما -. إن العمل في الحرس الأهلي في بيورا أو تالارا هو خبز سهل. أما في سلسلة الجبال فهو الجحيم يا توماسيتو. لست أستغرب ذلك بوجود كل هؤلاء الجبليين.

- ولماذا تكره الجبليين كثيراً، إذا كان بإمكاني أن أعرف؟

كانا قد بدأا صعود السفح باتجاه الموقع، وبما أنه كان عليهما أن يمضيا منحنيين، فقد نزعا البندقيتين عن كتفيهما وحملاهما باليد. وكلما ابتعدا عن المعسكر كانا يغرقان أكثر في الظلام.

- حسن، أنت جبلي ولست أكرهك. إنني أستلطفك جداً.

- شكراً لنصيبي منك - ضحك الحارس الأهلي -. ثم أضاف بعد لحظة صمت: - لا تظن أن الناس في المعسكر يعاملونك ببرود لأنك ساحلي. إنهم يفعلون ذلك لأنك شرطي... وأنا أيضاً ينظرون إلي من بعيد بالرغم من كوني جبلياً. إنهم لا يحبون ذوي البدلات العسكرية. يخافون إذا ما اجتمعوا معنا أن يحاكمهم الإرهابيون كوشاة.

- الحقيقة أن المرء يجب أن يكون قليل الذكاء حتى ينضم إلى سلك الحرس الأهلي - دمدم ليتوما -. فأنت فيه تكسب القليل، وليس هناك من يتقبلك، ثم إنهم يضعونك في الصف الأول كي تُنسف بالديناميت.

- هناك من يستغلون الزي الرسمي، وهؤلاء يشوهون سمعتنا جميعاً.

- لا يوجد في ناكوس ما يمكن استغلال الزي من أجله - تذمر ليتوما -. يا لبيدريتو تينوكو المسكين، كراخو. في الأسبوع الذي اختفى فيه لم نكن قد دفعنا له إكراميته.

توقف ليخرج سيجارة. وقدم واحدة إلى مساعده. ومن أجل أن

يشعلاهما كان عليهما أن يشكّلا ساتراً بجسديهما وقبعتيهما لأن الريح كانت تطفئ أعواد الثقاب. لقد كانت تهب وتعوي في كل مكان، مثل ذئاب جائعة. استأنف الشرطيان سيرهما ببطء، متلمسين الأحجار الزلقة بمقدمة حذاءيهما قبل أن يضعا أقدامهما.

- إنني واثق من أن كل أنواع الشذوذ تمارس في الحانة بعد أن نغادرها أنا وأنت - قال ليتوما -، ألا تظن ذلك؟

- أشعر بقرف شديد، ولا أحب المجيء إلى الحانة - ردّ مساعده -. ولكن أحدنا سيموت غماً إذا بقي محبوساً في الموقع دون أن يشرب كأساً من حين لآخر. من المؤكد أن أشياء فظيعة تحدث. ديونيسيو يسكرهم على هواه، ثم يأخذون بعضهم بعضاً من مؤخراتهم بعد ذلك. هل أخبرك بشيء يا عريفي؟ أنا لا أشعر بالأسف حين تحكم جماعة الدرب المضيء على الشاذين بالإعدام.

- الغريب هو أنني أشعر بشيء من الشفقة على كل هؤلاء الجبليين يا توماسيتو. على الرغم من خستهم، أشعر بالرثاء لحالهم. حياتهم كئيبة، أليس كذلك؟ يعملون بالرفوش مثل البغال، وما يكسبونه لا يكاد يكفي لطعامهم. فليمرحوا قليلاً إذا استطاعوا، قبل أن يقطع الإرهابيون خصاهم أو قبل أن يأتيهم ملازم مثل بانكورفو ويقوم بمعالجتهم.

- أوليست حياتنا كئيبة أيضاً يا عريفي؟ ولكننا لا نسكر مثل البهائم ولا نسمح لهذا المأفون بأن يمد يده لمداعبتنا.

- انتظر بضعة شهور، ومن يعرف ما الذي سيحدث عندئذ يا توماسيتو.

كانت برك الماء قد غطت الأرض بعد مطر المساء. وكانا يتقدمان ببطء شديد. مشيا لوقت لا بأس به صامتين. وفجأة قال ليتوما:

- ستقول إنه يجب علي عدم التدخل فيما لا يعنيني يا توماسيتو.

ولكن، بما أنني أتعاطف معك، ولأن خمر الينسون قد أفلت لساني. فسأقول لك: لقد سمعتك تبكي في الليل.

لاحظ أن الشاب قد غيّر إيقاع مشيه، وكأنه قد تعثر، كانا يضيئان طريقيهما بمصباحين يدويين. وواصل ليتوما كلامه قائلاً:

- الرجال يبكون أيضاً حين يقتضي الأمر. فلا تشعر بالخجل. الدموع لا تحوّل أحداً إلى مخنث.

واصلا صعود الجبل دون أن يفتح الحارس الشاب فمه. وبين الفينة والأخرى كان العريف يعود إلى التحدث:

- حين أفكر أحياناً «لن تخرج من ناكوس حياً على الإطلاق يا ليتوما» يداخلني اليأس. وأرغب عندئذ في أن أبكي صارخاً أنا أيضاً. لا تخجل. لم أقل لك ذلك لكي أعذبك. وإنما لأنها ليست المرة الأولى التي أسمعك فيها تبكي. لقد سمعتك تبكي أيضاً في الليلة السابقة، وإن كنت تبكي عندها وأنت تدفن وجهك في الفراش. لست أدري ما الذي ينتابني وأنا أراك تتعذب هكذا. هل تبكي لأنك لا تريد أن تموت في هذه القرية التافهة؟ إذا كان هذا هو السبب، فإنني أفهمك. ولكن، ألا يكون تذكرك الكثير لميرثيدس هو السبب في سوء حالتك؟ أنت تروي لي غرامياتك، فأتأثر بنجواك لبعض الوقت، ولكنك تتحول بعد ذلك إلى ما يشبه الخرقة المبللة. ربما يكون من الأفضل ألا تحدثني عنها بعد اليوم، أن تنساها يا توماسيتو.

وأخيراً جاء صوت مساعده المرتبك:

- إنني أخفف عن نفسي بالحديث عن ميرثيدس. هل أبكي وأنا نائم إذن؟ هذا يعني أنني لم أتصلب بما فيه الكفاية.

- فلنطفئ المصباحين - همس ليتوما -. لقد فكرت دائماً بأنهم إذا أرادوا أن يكمنوا لنا، فسيفعلون ذلك عند هذا المنعطف.

❖ ❖ ❖

دخلوا إلى أنداماركا من الدربين اللذين يمكن الوصول عبرهما إلى البلدة ـ فمنهم من صعدوا من نهر نيغرومايا، ومنهم من خاضوا نهر بومارانغا وتجنبوا تشيباو. ـ ومن درب ثالث خطه من يأتون من قرية كابانا المجاورة، تسلقوا منحدر الجدول المغني (وهذا هو اسمه بلغة الكيتشوا القديمة الشائعة في المنطقة). فعلوا ذلك مع بزوغ أول أضواء الفجر، وقبل أن يخرج الفلاحون للعمل في حقولهم والرعاة لاقتياد قطعانهم، وقبل أن يبدأ التجار العابرون مسيرهم باتجاه بوكيو أو سان خوان دي لوكاناس في الجنوب، أو باتجاه هوانكاسانكوس وكيروبامبا. لقد ساروا طوال الليل، أو أنهم أمضوا الليل في المنطقة المجاورة، منتظرين انتشار بعض الضوء للانقضاض على القرية. كانوا يريدون تفادي أن يهرب بعض من هم في القائمة مستغلين انتشار الظلام.

لكن أحدهم تمكن من الهرب، أحد أكثر من كانوا يرغبون في إعدامهم: إنه الضابط الحاكم في أنداماركا. وقد هرب بطريقة شديدة العبثية جعلت الناس يجدون صعوبة في تصديقها فيما بعد. فبفضل إسهال جنوني أصاب دون ميداردو يانتك، نهض مهرولاً من حجرة النوم الوحيدة في البيت الذي يتقاسمه مع زوجته وأمه وستة من أبنائه، في امتداد شارع خيرون خورخي تشابيث، وقرفص خارج بيته، عند السور المتاخم للمقبرة.

وكان ما يزال هناك يتألم ويذرف سائلاً نتناً ويلعن معدته عندما أحس بقدومهم، فتحوا الباب بركلة قوية، وسألوا عنه صارخين. كان يعرف من هم وماذا يريدون. فقد كان ينتظرهم منذ أن عينه نائب محافظ المقاطعة، بما يشبه الإكراه، حاكماً على قرية أنداماركا. ودون أن يتمكن من رفع بنطاله، انبطح دون ميداردو أرضاً، وزحف مثل دودة إلى المقبرة ثم انزلق إلى قبر حُفر في اليوم السابق، فانزوى

فيه وأعاد الصفيحة الحجرية فوقه. اختار أن يقبع فوق الجثمان المتجمد لدون فلوريسيل أوكاتوما، ابن عمه، وبقي منذ الفجر حتى المساء دون أن يرى شيئاً، ولكنه كان يسمع الكثير مما يحدث في القرية التي يفترض، نظرياً، أنه أعلى سلطة سياسية فيها.

كان عناصر الميليشيا يعرفون المكان، أو أنهم يحصلون على مساعدة جيدة من أعوانهم بين الأهالي. نشروا حراساً على كل المخارج، بينما كانت الطوابير المتواقتة تجوب الشوارع الخمسة المتوازية التي تشكلها البيوت والأكواخ الموزعة في كتل مربعة حول الكنيسة والساحة العامة. بعضهم كان ينتعل الأخفاف وآخرون صنادل القش وبعضهم يمشي بأقدام عارية، ولم تكن تسمع أصوات خطواتهم في شوارع أنداماركا المعبدة بالإسفلت أو الترابية، باستثناء الشارع الرئيسي، خيرون ليما، المرصوف بأحجار غير مشذبة. ذهبوا مباشرة في جماعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص لإيقاظ من وردت أسماؤهم في القائمة من نومهم. اعتقلوا العمدة، وقاضي الصلح، ورئيس البريد، وأصحاب الحانات الثلاث وزوجاتهم، وشخصين مسرحين من الجيش، والصيدلي المرابي دون سيباستيان يوبانكي، والخبيرين الفنيين اللذين أرسلهما المصرف الزراعي لتدريب المزارعين على الري والتسميد. اقتادوهم جميعاً بالدفع والركل إلى ساحة الكنيسة، حيث كان بقية أفراد الميليشيا قد جمعوا الشعب.

في أثناء ذلك كان النهار قد طلع وصاروا قادرين على رؤية وجوههم. وقد كانوا سافري الوجوه، باستثناء ثلاثة أو أربعة منهم كانوا يضعون طاقيات لا تكشف إلا عيونهم. وكان معظمهم من الشباب والرجال، ولكن كان بينهم نساء وأطفال أيضاً، بعضهم لا يمكن أن يكونوا قد تجاوزوا الثانية عشرة من عمرهم. ومن لم

يكونوا مسلحين بالرشاشات والبنادق والمسدسات، كانوا يحملون بنادق صيد قديمة وهراوى ومناجل ماتشيتي وسكاكين ومقاليع، وأصابع ديناميت في أحزمة عمال المناجم. وكانوا يحملون كذلك رايات حمراء عليها رسم منجل ومطرقة، وقد رفعوها فوق برج أجراس الكنيسة، وعلى سارية دار الحكومة وفي أعلى شجرة بيسونياي ذات أزهار حمراء تشرف على القرية. وبينما كانوا يعقدون المحكمة ـ وقد فعلوا ذلك بمنهجية، وكأنهم تعودوا عليه في مرات سابقة ـ راح عدد منهم ينقشون على جدران أنداماركا شعارات تحيي النضال المسلح، وحرب الشعب، والماركسية ـ اللينينية، الفكر المرشد للرئيس غونثالو[1]، وتدعو إلى إسقاط الإمبريالية والتحريفية والخونة وعملاء نظام الإبادة المعادي للعمال.

قبل بدء المحاكمة أنشدوا نشيد الثورة البروليتارية، باللغتين الإسبانية والكيتشية، معلنين أن الشعب قد بدأ بتحطيم أغلاله. ولأن القرويين ما كانوا يعرفون كلمات النشيد، فقد توزعوا بينهم وجعلوهم يكررون الأبيات وهم يصفرون لهم اللحن.

بعد ذلك باشروا المحاكمات. وإضافة إلى من وردت أسماؤهم في القائمة، كان على آخرين أيضاً أن يواجهوا هيئة المحكمة ـ وهي الشعب بأسره ـ بتهمة السرقة، واستغلال الضعفاء والفقراء، أو لكونهم زناة وممارسي رذائل فردية أخرى.

كانوا يتناوبون على الكلام، بالإسبانية والكيتشوا: للثورة مليون عين ومليون أذن. لا يمكن لأحد أن يعمل بعيداً عن أعين الشعب وينجو من القصاص. هؤلاء الكلاب القمامة حاولوا ذلك وهاهم أمامنا الآن، يركعون متوسلين الرحمة ممن كانوا هم

---

[1] غونثالو: الاسم الحربي لإبيغايل غوثمان، مؤسس حركة الدرب المضيء الماوية في البيرو.

أنفسهم قد طعنوهم في الظهر. هؤلاء الضباع كانوا في خدمة الحكومة العميلة التي تقتل الفلاحين، وتطلق النار على العمال، وتبيع البلاد للإمبريالية والتحريفية، وتعمل ليل نهار لتزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً. أولم يذهب هؤلاء البراز إلى بوكيو ليطلبوا من السلطات أن ترسل الحرس المدني كي يحمي أنداماركا؟ أولم يدعوا القرويين إلى الوشاية بأنصار الثورة للدوريات العسكرية؟

كانوا يتداولون ويتحدثون بصبر وأناة عن الجرائم، الحقيقية والمفترضة، التي اقترفها هؤلاء الخدم لحكومة ملوثة بالدماء حتى النخاع. هؤلاء المتواطئون في جرائم القمع والتعذيب ضد الجميع وضد كل واحد من الحاضرين، ضد أبنائهم وذرية أبنائهم. كانوا يوجهونهم ويشجعونهم على المشاركة، على التكلم دون خوف من العقاب، لأن ذراع الشعب المسلحة تحميهم.

وشيئاً فشيئاً كسر القرويون ترددهم واضطرابهم، يستحثهم خوفهم بالذات، والجو الحماسي وأسباب غامضة ـ نزاعات قديمة، أحقاد دفينة، عداوات عائلية ـ وتحمس الفلاحون لطلب الكلمة. صحيح، لقد كان دون سيباستيان بخيلاً مع من لا يستطيع دفع ثمن الدواء نقداً وفوراً. وإذا لم يرد إليه المستدين نقوده في اليوم المحدد، يحتفظ بالرهونات مهما توسلوا إليه. فهو قبل أيام مثلاً... وفي نحو منتصف النهار كان كثيرون من أهالي أنداماركا قد تشجعوا على التقدم إلى وسط الساحة لعرض شكاواهم، وتوجيه شتائمهم والإشارة إلى الجيران السيئين، والأصدقاء السيئين، والأقرباء السيئين. وكانوا يتأججون حماسة وهم يلقون خطاباتهم، فترتعش أصواتهم حين يتذكرون أبناءهم الذين فقدوهم، وحيواناتهم التي نفقت من الجفاف والأوبئة، وكيف أنه هناك كل يوم مشترون أقل، وجوع أكثر، ومزيد من المرضى، ومزيد من الأطفال في المقبرة.

تمت إدانة الجميع بغابة من الأيدي المرفوعة. كثيرون من ذوي المتهمين لم يرفعوا أيديهم عند التصويت، ولكن خشيتهم من الغيظ والعداء الذي راح يختمر، منعتهم كذلك من التجرؤ على قول أي شيء في مصلحتهم.

أعدموهم بإجبارهم على الركوع وإسناد رؤوسهم إلى حافة بئر الماء. وثبتوهم جيداً بينما راح الأهالي يمرون في صف طويل ويهشمون تلك الرؤوس بأحجار يلتقطونها من ورشة البناء، بجوار دار الحكومة. لم يشارك أعضاء الميليشيا في تنفيذ الإعدامات. ولم يجر إطلاق رصاصة واحدة. لم تستخدم طعنة سكين واحدة. لم تهو ضربة منجل ماتشيتي واحدة. لم تُستخدم سوى الأيدي والأحجار والهراوى، وهل من الضروري تبديد ذخيرة الشعب على جرذان وسرطانات؟ وبينما هم يقررون وينفذون ويشاركون في العدالة الشعبية، راح أهالي أنداماركا يعون قوتهم. إنه قدر لا عودة عنه. لم يعودوا ضحايا، فقد صاروا محررين.

بعد ذلك جاءت محاكمة المواطنين الأشرار، والأزواج السيئين، والزوجات الخبيثات، والطفيليات الاجتماعية، والمنحطين، والعاهرات، والمخنثين، والمسيئين إلى كرامة أنداماركا، الحثالة المتعفنة للنظام الرأسمالي الإقطاعي المدعوم من الإمبريالية الأميركية والتحريفية السوفيتية، هذا النظام الذي يشجع تلك الحثالة على تخدير روح الجماهير النضالية. فهذا كله سيتغير أيضاً. ففي محرقة التطهير التي تمثلها الثورة، ستحترق الفردية الأنانية البرجوازية، وستنبثق الروح الجماعية والتضامن الطبقي.

تظاهر الأهالي بأنهم يسمعون أكثر مما يسمعونه، ويفهمون أكثر مما يفهمونه. ولكنهم بعد الذي حدث في ذلك الصباح، كانوا منفعلين انفعالاً خارقاً، مذهولين، مرتبكين بما يكفي

للمشاركة دون أي تكلف في هذه الحفلة الثانية التي ستبقى في ذاكرتهم وذاكرة أبنائهم وأحفادهم باعتبارها أكثر قصص اندامارکا صخباً.

أول من رفعت إصبع الاتهام، يشجعها تحريض النساء والرجال المسلحين الذين كانوا يتوالون على الكلام، هي السيدة دوميتيلا تشونتاتا. فكلما شرب زوجها جرعة من الخمر، يدحرجها على الأرض بالركلات ويدعوها «براز الشيطان». أما زوجها، وهو أحدب ضئيل على رأسه حزمة من جلد قنفذ، فأقسم على أن ما تقوله كذب. ثم ما لبث أن ناقض نفسه بعد ذلك حين قال وهو ينشج إن روحاً شريرة تسيطر على بدنه ويستولي عليه الغضب كلما شرب، وإنه يضطر إلى إخراج تلك الروح بالضرب.

الأربعون جلدة التي تلقاها أدمت حدبته وورمتها. ولم يكن الألم الجسدي، وإنما الخوف هو الذي دفعه للقسم بأنه لن يعود أبداً إلى شرب قطرة واحدة من الكحول، وللتذلل بالقول «شكراً، شكراً جزيلاً» لجيرانه الذين كانوا يجلدونه بسياط من الجلد والأمعاء. وقد قادته زوجته جراً لتضع له بعض المراهم.

جرت محاكمة نحو عشرين رجلاً وامرأة وإدانتهم وجلدهم أو تغريمهم، وإجبارهم على إعادة ما كانوا قد استحوذوا عليه دون وجه حق، والتعويض على من أجبروهم على العمل أكثر من الأجر أو من خدعوهم بوعود كاذبة. كم من تلك الاتهامات كانت صحيحة، وكم منها كانت أكاذيب أملاها الحسد والضغينة، أو جاءت نتيجة حالة الهيجان التي كان الجميع فيها يشعرون بأنهم مدفوعون إلى التنافس، للكشف عن أعمال القسوة والجور التي كانوا ضحية لها؟ لم يكن بإمكانهم هم أنفسهم أن يعرفوا ذلك حين حاكموا، في نحو منتصف النهار، دون كريسوستومو، قارع الأجراس القديم.

كان يقوم بهذا العمل عندما كانت توجد أجراس في برج كنيسة أنداماركا، وعندما كان في الكنيسة نفسها كاهن، وهو تاريخ قديم. وقد اتهمته إحدى النساء بأنها فاجأته في أحد الأيام وقد أنزل سروال أحد الأطفال في مكان خارج القرية. ثم أكد آخرون الشكوى. صحيح لقد كان طويل اليد، وكان يداعب الصبيان ويحاول إدخالهم إلى بيته. واعترف أحد الرجال بصوت منكسر من الانفعال، وسط صمت مكهرب، بأنه عندما كان طفلاً، استعمله دون كريسوستومو، مثلما تُستعمل النساء. لم يكن يتجرأ على قول ذلك من قبل بسبب الخجل. ويمكن لآخرين موجودين هنا بالذات أن يروا قصصاً مشابهة. حُكم على قارع الأجراس بالإعدام رجماً بالحجارة والهراوى، وبقيت جثته مختلطة بجثث من وردت أسماؤهم في القائمة.

كان الظلام قد بدأ يخيم حين أنهوا المحاكمات. وكانت تلك هي اللحظة التي انتهزها دون ميدارو يانتك ليزيح حجر قبر ابن عمه فلوريسيل ويزحف إلى خارج المقبرة، ثم ينطلق راكضاً عبر الحقول، مثل روح يحملها الشيطان، متوجهاً إلى بوكيو. وقد وصل إلى حاضرة المقاطعة بعد يوم ونصف اليوم، منهوكاً ولا يزال الرعب يملأ عينيه، ليروي ما يحصل في أنداماركا.

كان أهالي أنداماركا المنهوكون والمشوشون الذين لا يستطيعون النظر في عيون بعضهم البعض، يشعرون بذلك الإحساس الذي ينتابهم على أثر الاحتفال بعيد القديس شفيع قريتهم، بعد أن يكونوا قد شربوا كل ما يستطيعون شربه وأكلوا، ورقصوا، وتضاربوا بالأحذية، وتشاجروا، وصلّوا، دون أن يناموا طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال، حين يتكلفون مشقة كبيرة في الاقتناع بفكرة أن هذا الانفجار الكبير من فقدان الوعي واللاواقعية قد انتهى وأنه لا

بد لهم من أن يعودوا إلى الانتظام في الروتين اليومي. ولكنهم الآن يشعرون بقدر أكبر من البلبلة، وبقلق أشد عمقاً، أمام هذه الجثث غير المدفونة، المغطاة بالذباب والتي بدأت تتعفن تحت أنوفهم، والظهور المتقرحة لمن كانوا قد جلدوهم. لقد كانوا جميعهم يدركون أن انداماركا لن تعود أبداً مثلما كانت من قبل.

كان عناصر الميليشيا يواصلون، دون كلل، التناوب على الكلام. وقد بدؤوا الآن بالأمور التنظيمية. فليس هناك نصر شعبي دون مشاركة فولاذية لا تقهر من جانب الجماهير. وانداماركا ستتحول إلى قاعدة إسناد، إلى حلقة أخرى من السلسلة التي تغطي جبال الأنديز كلها وتمد فروعها باتجاه الساحل والأدغال. وقواعد الإسناد هي المؤخرة المأمونة للطليعة. إنها مهمة جداً، وذات فائدة، ولا غنى عنها، لأنها كما يشير اسمها، موجودة من أجل دعم المقاتلين: توفير الطعام لهم، معالجتهم، إيوائهم، إلباسهم، تسليحهم، وتقديم المعلومات لهم عن تحركات العدو، وتزودهم بمن يحلون محل أولئك الذين يضحون بأنفسهم. الجميع لهم مهمات ينفذونها، حبة رمل يساهمون بها. عليهم أن ينتظموا في جماعات حسب الأحياء، وأن يضاعفوا أعدادهم في كل شارع وكل حارة وكل أسرة، ليضيفوا عيوناً وآذاناً وأذرعاً وأدمغة أخرى إلى المليون عين وأذن وذراع ودماغ التي أصبحت في عداد الحزب.

وفي الليل اختار الأهالي خمسة رجال وأربع نساء ليتولوا مسؤولية التنظيم. ومن أجل مساعدة الأهالي وتأمين الاتصال مع القيادة سيبقى في انداماركا الرفيق خوان والرفيقة تيريسا. يجب استيعابهم ضمن الأهالي، والتعامل معهم كما لو أنهم ولدوا هناك وكما لو أن موتاهم يرقدون بين موتى القرية.

بعد ذلك طهوا الطعام وأكلوا، ثم توزعوا على البيوت وناموا مع

الأهـالي الـذين أمضى معظمهـم تلـك الليلـة سـاهرين، مـشوشـين، غـير مصدقين، غير واثقين، مذعورين مما أقدموا عليه ورأوه وسمعوه.

عنـد الفجـر تجـددت الاجتماعـات مـرة أخـرى. وتم اختيـار بـضعة فتيـان وفتيـات لـضمهم إلى الميليـشيا. ثـم أنـشدوا أناشـيدهـم، وأطلقـوا صرخاتهم الانتصارية وهم يهزون الرايات الحمـراء. وتوزعـوا بعـد ذلـك فـي مفارز، مثلما جـاؤوا، ورآهـم الأهـالي ينفصلون عنهم، يبتعـدون، يخـوض بعـضهم فـــي نهـر ميغرومـايو ويمـضي آخـرون باتجـاه تـشيبا وبومبارانغـا، ويختفـون بـين خـضرة الأشـجار القاتمـة، وتحـت صـفرة الجبال الرصاصية.

وصلت دورية الحـرس الجمهوري والحـرس الأهلـي إلى انـداماركـا بعـد ثمـان وأربعـين سـاعة مـن مغـادرة جماعـة الـدرب المـضيء. كـان يقودهم مـلازم شـاب، سـاحلي، حليـق الـرأس، بـارز العضلات، يضع نظـارة قاتمـة، وكـان رجالـه يدعونـه بلقبـه فقـط: الجـاروف. وكـان معهم الحاكم دون ميداردو يانتك الـذي كـان قـد هـرم سـنوات وفقـد كيلوغرامات من وزنه. كانت الجثث ما تزال فـي الساحة دون دفـن، ولإبعـاد النـسور عنهـا، أشـعل القرويـون نـاراً، ولـكـن علـى الـرغم مـن ألـسنة اللـهب، كـانـت عـشرات النـسور تنتـشر متأهبـة حـول المكـان، وكـان هنـاك ذباب أكثر مما يكون فـي المذبح يوم تُذبح بقـرة لتوزيـع لحمها إحسـاناً. وعندما سـأل دون ميداردو والملازم عن سبب عـدم دفـن الجثث، لم يجـد الأهـالي جوابـاً يـردون بـه. إذ لم يتجـرأ أي منهم علـى المبـادرة، حتـى ولا أقربـاء الـضحايا، فقـد شـلهم رعـب خرافـــي مـن اجتذاب الميليشيا مرة أخرى أو من التسبب فـي كارثـة جديـدة إذا مـا لمسوا، ولـو لمجـرد الـدفن، أولئـك الـضحايا الـذين سـحقوا رؤوسـهم ووجوههم وعظامهم، كما لو كانوا أعداء لدودين.

ولأنـه لم يكـن هنـاك قاضـي صـلح ـ فالقاضـي هـو أحـد الـذين

أُعدموا ـ، فقد أصدر الملازم أمراً إلى الحاكم ليتولى كتابة محضرٍ بالحادث يوقعه عددٌ من الأهالي كشهود. ثم حملوا بعد ذلك الموتى إلى المقبرة، وحفروا لهم قبوراً ودفنوهم. وعندئذ فقط جاء رد فعل الأقارب على الألم والغضب المتوقع. فبكت أرامل الضحايا، وأبناؤهم، وإخوتهم، وأبناء إخوتهم، وتعانقوا وهم يطلقون الشتائم ويرفعون قبضاتهم نحو السماء مطالبين بالانتقام.

بعد تعقيم المكان بدلاء من المطهرات، بدأ الملازم بطلب الإيضاحات. ليس أمام الملأ، وإنما دخل إلى دار الحكومة وراح يستدعي الأسر واحدة فواحدة. كان قد نشر حراساً على مخارج انداماركا وأصدر أمراً صارماً بعدم ابتعاد أحد عن القرية دون إذن منه (ولكن الرفيق خوان والرفيقة تيريسا كانا قد هربا فور رؤيتهما الدورية قادمة من طريق بوكيو).

كان الأقرباء يدخلون ويخرجون كل ربع ساعة، كل نصف ساعة، وهم يطأطئون رؤوسهم، ويبكون مضطربين قلقين من أن يكونوا قد قالوا أكثر أو أقل مما يجب أن يقولوه فيندمون على ذلك. كان يخيم على القرية جو من الكآبة وصمت حزين. كان الأهالي يلحون على إخفاء الخوف والقلق بإظهار الغيظ والوجوم على وجوههم، ولكن كانت تكشفهم تلك الطريقة بالمشي مثل المسرنمين، حيث كانوا يجوبون أزقة انداماركا المستقيمة حتى ساعات متأخرة. وقد أمضت نساء كثيرات النهار وهن يرتلن الصلوات في كنيسة الساحة المهدمة منذ أن تداعى سقفها في أثناء الزلزال الأخير.

استجوب الملازم الناس طوال النهار وشطراً من الليل، دون أن يستريح ولو من أجل تناول الغداء ـ طلب أن يأتوه بطبق من حساء اللحم المقدد تناوله وهو يواصل التحقيقات ـ وكان أحد الأشياء القليلة التي عرفها الأهالي، في سياق هذا اليوم الاستثنائي الثاني،

هو أن ميداردو يانتك يجلس إلى جوار الضابط حانقاً، ويقدم له معلومات عن الداخلين للإدلاء بالشهادة ويدس أنفه في التحقيقات طالباً ذكر الأسماء والوقائع بدقة وتحديد.

في تلك الليلة تمزق التعايش الزائف في انداماركا إرباً. ففي البيوت، وعلى النواصي، والشوارع، وفي محيط الساحة حيث كان الجميع يأتون ليرصدوا الخارجين من قاعة دار الحكومة، كانت تنفجر المناقشات والنزاعات والاتهامات والشتائم والتهديدات. وجرى التدافع والشد وتبادل اللكمات. ولم يتدخل الحراس الجمهوريون ولا الحراس الأهليون، إما لأنهم تلقوا تعليمات بعدم التدخل أو لأن عدم وجود الأوامر جعلهم لا يعرفون كيف يتصرفون حيال هذا العداء المنفلت من الجميع ضد الجميع. فكانوا ينظرون بازدراء أو دون مبالاة إلى الجيران وهم ينعتون بعضهم بعضاً بالقتلة، والمتواطئين، والإرهابيين، والواشين، والخونة، والجبناء، والوصول إلى الاشتباك بالأيدي دون أن يتدخلوا للفصل بينهم.

لا بد أن المستجوبين كانوا يروون للملازم كل شيء، مستثنين مسؤوليتهم على أحسن وجه ممكن ـ أي بإبراز مسؤولية الآخرين ـ واستطاع الملازم أن يرسم الملامح العامة لما جرى في المحاكمات، لأنه في اليوم التالي قام باعتقال خمسة الرجال وأربعة النساء الذين اختيروا قادة لقاعدة الإسناد وحبسهم في دار الحكومة.

وعند الضحى جمع الملازم الأهالي في ساحة انداماركا ـ وكانت هناك نسور مازالت تحوم في الركن الذي جرت فيه الإعدامات ـ وتكلم إليهم. ما كانوا كلهم يفهمون الإسبانية الساحلية المرخمة والسريعة التي يتكلمها الضابط، ولكن حتى من فاتهم جلّ الخطاب كانوا يفهمون أنه يؤنبهم لتعاونهم مع الإرهابيين، ومشاركتهم في مهزلة تلك المحاكمة، وتنفيذهم تلك المذبحة الفظيعة.

«يجب محاكمة اندامارك كلها ومعاقبتها»، كرر هذا القول عدة مرات. ثم استمع بعد ذلك بصبر، وإن لم يبدِ علائم الاقتناع، إلى أقوال القرويين الذين تجرؤوا على تقديم اعتذارات مضطربة: ليس ما يقوله صحيحاً، فليس هناك بينهم من فعل شيئاً، وكل شيء كان من عمل المخربين. لقد هددوهم يا سيدي. أجبروهم وهم يصوبون الرشاشات والمسدسات إلى رؤوسهم، قائلين إنهم سيذبحون الأطفال مثلما تذبح الخنازير إذا هم لم يحملوا الأحجار. كانوا يناقضون، ويقاطعون، ويخالفون بعضهم بعضاً، وانتهى بهم الأمر إلى تبادل الاتهامات والشتائم فيما بينهم، وكان الملازم ينظر إليهم بأسى.

بقيت الدورية في اندامارك يومذاك. وخلال المساء والليل قام الحرس الجمهوري والحرس الأهلي بالتفتيش ومصادرة الحلي والزينات والأشياء التي تبدو ثمينة، وصرر النقود التي وجدوها مخبأة في الفرش وفي مخابئ سرية في قاع الصناديق والخزائن. ولكن أحداً من الأهالي لم يتقدم إلى الملازم بشكوى ضد السارقين.

في صباح اليوم التالي، وبينما كانت القوة تستعد للمغادرة آخذة معها المعتقلين، تجادل دون ميداردو يانتك مع الضابط أمام الأهالي. فقد طالب الحاكم بالإبقاء على بعض رجال القوة في القرية. ولكن، كانت لدى الملازم أوامر بالعودة مع كل الرجال إلى حاضرة المقاطعة. وأنه يتوجب على الأهالي أنفسهم أن ينظموا الحماية بتشكيل دوريات حراسة.

ـ وبأي أسلحة أيها الملازم؟ ـ كان ميداردو يانيك يزعق ـ هل نواجههم بالعصي بينما هم يحملون البنادق؟ هكذا تريدنا أن نقاتل؟

وعد الملازم بأن يكلم رؤساءه في الأمر. وأن يحاول إقناعهم بإعادة فتح مخفر الحرس الأهلي المغلق منذ نحو سنة. ثم انطلق بعد ذلك وهو يقتاد معه المعتقلين المقيدين في صف طويل.

بعد بعض الوقت، ذهب ذوو المعتقلين التسعة إلى بوكيو، فلم تستطع السلطات هناك أن تقدم لهم أدنى بصيص نور حول مصير المعتقلين. فليس هناك في أي مركز للشرطة ولا في مكاتب القيادة السياسية ـ العسكرية أي قيود تشير إلى وصول مجموعة سجناء من اندامارِكا. أما بالنسبة للملازم الشاب الملقب بالجاروف فربما يكون قد بدّل مصيره، فهو ليس من بين الضباط الموجودين وليس هناك في بوكيو من يعرفه. وفي أثناء ذلك كان دون ميداردو يانيك وزوجته قد اختفيا من القرية دون أن يخبر حتى أمه وأولاده عن المكان الذي ذهبا إليه.

❖ ❖ ❖

ـ أعرف أنك مستيقظ وأنك تتحرق رغبة في التحدث إلي ـ قال ليتوما ـ. حسن يا توماسيتو، حدثني.

دخلت الشاحنة إلى هوانكو عند الغروب، بعد عشرين ساعة من خروجها من تنغو ماريا. لقد انثقبت إحدى العجلات مرتين على الطريق التي جرفتها الأمطار، ونزل توماس من صندوق الشاحنة في المرتين ليساعد السائق، وهو هوانوكوي لا يوجه أسئلة متهورة. عند مخرج أكومايا، أمام أحد الحواجز، ومن بين أكياس الفواكه حيث يختبئان، سمعاه يقول «لا أحد» رداً على الحارس الأهلي الذي سأله كم راكباً معه. وقد توقفوا مرتين أخريين لتناول الفطور والغداء في مطاعم على الطريق، ونزل حينئذ توماس وميرثيدس أيضاً، ولكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة مع السائق. وقد أوصلهما الرجل أخيراً إلى قبالة السوق المركزي.

ـ شكرته لأنه لم يُبلّغ عنا عند حاجز أكومايا ـ قال توماس ـ. وجعلناه يعتقد بأننا هاربان من زوج غيور.

ـ إذا كنتما هاربين لسبب آخر أيضاً، فلا تضلا هنا ـ نصحهما

ـ اللعنة، لقد كِنتَ أكثر شبقاً من عجل القمر ـ قال له ليتوما بتقدير ـ. وما زلتَ كذلك يا توماسيتو.

واصل الفتى بإصرار:

ـ وبالرغم من شعرها المشعث، وبالرغم من فقدانها كل زينتها، وبالرغم من غبار السفر، فإن ذلك كله لم يؤثر عليها. لقد بقيت جميلة جداً يا عريفـي.

ـ أنت لديك على الأقل هذه الذكريات عن ميرثيدس تعزي نفسك بها ـ قال ليتوما متذمراً ـ. أما أنا فلم أحضر معي أية ذكرى من بيورا أو من تالارا، بل ولست أجد فـي ذاكرتي امرأة واحدة فـي الدنيا تستثير أشواقي.

تناولا الحساء صامتين، ثم جاؤوهما بلفائف خبز بالأرز لم يطلباها، ولكنهما أكلاها أيضاً.

ـ وفجأة امتلأت عيناها بالدموع، بالرغم من أنها بذلت جهدها كيلا تبكي ـ قال توماس ـ. كانت ترتجف وكنت أعلم أن السبب هو خوفها مما يمكن أن يحدث لنا. أردت مواساتها، ولكنني لم أعرف كيف أفعل ذلك. فقد كان المستقبل يبدو لي قاتماً أنا أيضاً.

فقال له ليتوما:

ـ اقفز عن هذا الجزء من القصة ولنصل إلى السرير دفعة واحدة.

ـ امسحي دموعك ـ قدم لها كارينيو منديله ـ. لن أسمح بأن ينالك أذى، أقسم لك.

مسحت ميرثيدس وجهها وظلت صامتة إلى أن انتهيا من الأكل. كانت الغرفة فـي الطابق الثاني، فـي نهاية الممر وكان يفصل بين السريرين مقعد خشبي، مثل كوميدينو. وكان المصباح يتأرجح معلقاً بحبل عليه شبكة عنكبوت، ولا يكاد يضيء سوى الجدران المشققة ذات الطلاء الباهت وألواح خشبية تئن تحت أقدامهما.

واصل توماسيتو المماطلة:

- أحضرت لنا العاملة منشفتين وقطعة صابون. وقالت لنا إنه إذا أردنا الاستحمام فعلينا أن نفعل ذلك الآن، لأن الماء لا يصل إلى الطابق الثاني في النهار.

خرجت العاملة وتبعتها ميرثيدس حاملة المنشفة على كتفها. وعندما رجعت بعد بعض الوقت كان الفتى قد استلقى في السرير وهو متوتر مثل وتر غيتار، وما إن أحس بها في الغرفة حتى انتفض فجأة. دخلت وهي تلف المنشفة على رأسها مثل عمامة، وكانت أزرار ثوبها مفتوحة وتحمل حذاءها بيدها. وسمعها تقول:

- حمام لذيذ، لقد أعادني الماء البارد إلى الحياة من جديد.

وحمل هو منشفته وخرج ليستحم أيضاً.

- هل أنت رجل خصي؟ - قال ليتوما غاضباً - ما الذي كنت تنتظره إذن؟ وإذا ما نامت البيورانية أثناء استحمامك؟

كان الماء قليلاً، ولكنه كان ينصب بقوة، وكان بارداً بالفعل. دعك توماس جسمه بالصابون، وفركه جيداً وأحس بأنه يخلع عنه التعب. جفف بدنه ولبس سرواله الداخلي ولف المنشفة وثبتها حول خصره. وجد الغرفة مظلمة. وضع ملابسه على كوميدينو، حيث كانت مرثيدس قد وضعت ملابسها مطوية، وتقدم متلمساً طريقه نحو السرير الفارغ ثم دس نفسه تحت الغطاء. اعتادت عيناه شيئاً فشيئاً على العتمة. أرهف سمعه بلهفة وجزع محاولاً التنصت. كانت تتنفس بعمق وبفواصل متباعدة. أتكون قد نامت؟

وبدا له أنه يشم جسدها على مقربة منه. أخذ نفساً عميقاً وهو مضطرب، هل يذهب لرؤية عرابه ويحاول أن يوضح له ما حدث؟ «أهكذا ترد لي كل ما فعلته من أجلك يا شقفة ابن العاهرة» عليه أن يغادر إلى خارج البلاد بأي طريقة.

وارتعش صوت الشرطي وهو يخاطب العريف:

ـ كنت أفكر في كل شيء وفي لا شيء. أحسست برغبة في التدخين، ولكنني لم أنهض كيلا أوقظها. كم هو غريب النوم قربها. كم هو غريب التفكير: «إذا مددت يدي أستطيع لمسها».

ـ تابع، هيا ـ رنّ صوت ليتوما ـ. إنك تستثيرني يا توماسيتو.

وفجأة سألته ميرثيدس:

ـ هل فعلت ذلك لأني أعجبتك؟ هل تأملتني بتمعن عندما ذهبت لإحضاري مع البدين من مطار تينغو ماريا؟

فدمدم كارينيو وهو يشعر بألم في فمه لدى النطق:

ـ كنت قد رأيتك قبل ذلك. عندما ذهبتِ الشهر الماضي إلى بوكايبا لتقضي الليل مع تشانشو.

ـ أأنت من كان يحرسه في بوكايبا؟ لهذا السبب أحسست أن وجهك مألوف حين رأيتك في تنغو ماريا.

وقال مساعد العريف:

ـ الحقيقة أنها لم تكن تتذكر أنني أنا الذي أوصلتها إليه أيضاً في رحلتها الأولى، وأنني أنا الذي كنت أحرس طوال الليل كذلك البيت في بوكايبا، بين النهر ومنشرة الأخشاب. وكنت أسمع حينئذ كيف كان يضربها. وكيف كانت تتوسل إليه.

ـ إذا لم ينته هذا كله بمضاجعتها فسوف أضربك ـ حذره ليتوما.

ـ طبعاً، لهذا بدا لي وجهك مألوفاً بالطبع ـ واصلت هي الكلام ـ. لم يكن سبب التوتر الذي أصابك إذن هو القرف أو التدين. كنتَ قد أمعنتَ النظر بي، وكنتُ قد أعجبتك. فأحسستَ بالغيرة، هل هذا هو ما دفعك إلى إطلاق النار عليه يا كارينيتو.

ـ كان الحر يحرق وجهي يا عريفي. وفكرت في أنني سأطبق فمها بصفعة عليه إذا ما واصلت التكلم هكذا.

وأكدت ميرثيدس بمزيج من الغضب والحنان:

ـ كنت مغرماً بي.. لقد بدأتُ أفهم. فحين يعشق الرجال لا يتورعون عن ارتكاب أي حماقة. نحن النساء أكثر برودة.

ـ أنت تظنين نفسك شيئاً كبيراً لأنك تنقلت كثيراً، ولأن لك عالمك ـ استطاع التفى الرد أخيراً ـ. لستُ أحب أن تعامليني وكأنني صبي ببنطال قصير.

ـ هكذا أنت يا كارينيتو. صبي ببنطال قصير ـ ضحكت ميرثيدس، ثم أبدت الجدية وأضافت متهجية الكلمات: ـ ولكن، إذا كنتَ قد أحببتني، لماذا لم تقل لي أي شيء. أعني وأنا هنا، بجانبك.

ـ معها كل ما في الدنيا من حق ـ صاح ليتوما ـ. لماذا لم تفعل لها أي شيء؟ ما الذي كنت تنتظره يا توماسيتو؟

أسكتهما نباح حانق في الشارع. وسمعا «اللعنة» وصوت ارتطام حجر. سكتت الكلاب. كان الفتى يتعرق من قدميه حتى رأسه، أحس بها تنهض وتتحرك حول السرير. وبعد ثوان، تغلغلت يد ميرثيدس بين شعره. وبدأت تداعب الشعر برقة.

ـ ما هذا الذي تقوله؟ ـ طار صواب ليتوما.

ـ لماذا لم تأت مباشرة إلى سريري عند رجوعك من الحمام يا كارينيتو؟ ألم يكن هذا هو ما تريده؟ ـ ونزلت يد ميرثيدس من رأسه إلى وجهه، داعبت وجنتيه ووصلت إلى صدره: ـ كيف يخفق قلبك! بوم، بوم، كم أنت غريب الأطوار، هل تشعر بالخجل؟ هل تعاني من أي مشكلة مع النساء؟

ـ ما، ما، ما هذا ـ كرر ليتوما وهو يستوي جالساً في الظلام ليراقب توماسيتو.

فتلعثم الفتى وهو يمسك بيد ميرثيدس ويقبلها:

ـ أنا لا أستطيع أن أستغلك مطلقاً، ولن أضربك أبداً. كما إنني...

- أنت تكذب الآن - كان ليتوما يكرر غير مصدق ما يسمعه: - هذا غير ممكن، هذا غير ممكن.

واعترف لها الفتى أخيراً:

- لم أنفرد بأي امرأة من قبل. يمكنكِ أن تسخري مني إذا شئت.

لم تضحك ميرثيدس. وأحس بها كارينيو تنهض وترفع الغطاء، فتخلى عن نصف السرير ليفسح لها مكاناً. وعندما أحس بها ملتصقة بجسده، احتضنها.

- أكنتَ ما تزال «بكراً» وأنت في الثالثة والعشرين؟ - قال ليتوما - لست أدري ما الذي تفعله في الحرس الأهلي أيها الصبي.

وبينما هو يقبل شعرها، عنقها، أذنها، سمعها تقول مغمغمة:

- أظنني بدأت أفهمك أخيراً يا كارينيتو.

IV

هل يتقدم العمل في هذا الطريق؟ لقد كان لدى ليتوما إحساس بأن العمل في شق الطريق يتراجع بدل أن يتقدم. فخلال الشهور التي أمضاها هنا وقعت ثلاثة اضطرابات، وقد تكررت فيها كلها الأحداث نفسها مثل أسطوانة مشروخة. فالحكومة تنذر شركة المقاولات بأنها ستوقف العمل في نهاية هذا الأسبوع أو نهاية هذا الشهر. عندئذ تجتمع النقابة ويحتل العمال المنشآت، ويستولون على الآلات ويطالبون بضمانات. وتكون هناك فترة مطاطية لا يحدث فيها شيء. فيذهب المهندسون، ويبقى المعسكر في أيدي مراقبي العمال والمَسَّاح الذين يتآخون مع العمال المضربين ويتقاسمون معهم القِدر المشتركة التي تُطبخ عند الغروب في الميدان القاحل الذي يتوسط المهاجع. لم تكن تحدث أعمال عنف على الإطلاق، ولهذا لم يضطر العريف ومساعده إلى التدخل أبداً. وكانت الإضرابات تنتهي بصورة غامضة، دون أن يتحدد مصير الطريق. فالشركة أو ممثل الوزارة المبعوث لحل الخلاف يتعهد بعدم تسريح أحد وبأن تُدفع للعمال أجورهم عن أيام الإضراب. فيتجدد العمل في حركة كاميرا بطيئة. ولكن، بدلاً من بدء العمل من المكان الذي توقفوا فيه، كان يبدو لليتوما أن العمال يعودون إلى ما كانوا قد أنجزوه من قبل. إما بسبب حدوث انهيارات في الجبال التي كانوا يفجرون فيها الديناميت، وإما لأن الفيضانات التي أحدثها المطر قد خرّبت العلامات وحطمت الساتر، أو لأي سبب آخر. كان يخيل إلى العريف أنهم يواصلون الحفر والتفجير والتسوية أو إلقاء طبقات الحصى والزفت في المقطع نفسه الذي كانوا يعملون فيه عند مجيئه إلى ناكوس.

كان يقف في أعلى مرتفع صخري، عند خط بدء الثلوج، على بعد كيلومتر ونصف الكيلومتر من المعسكر، حيث يمكنه أن يرى هناك في الأسفل، من خلال هواء الفجر النقي، سقوف التوتياء التي تغطي المهاجع وهي تلمع تحت شمس الشروق. «عند فتحة المنجم المهجور»، هذا ما قاله ذلك الشخص لتوماسيتو. وها هي ذي الفتحة تكاد تكون مغطاة بدعائم منخورة، وقد كانت تشير فيما مضى إلى مدخل الحفرة، ولكن الدعائم انهارت، وقد غطت الآن مع الأحجار والصخور التي تدحرجت من القمة، ثلاثة أرباع الفتحة.

وماذا لو كان هذا الموعد كميناً؟ وإذا كان خدعة لإبعاده عن كارينيو؟ سينقضون عليهما منفصلين، فيجردونهما من السلاح ويقتلونهما. تخيل ليتوما جثته مدروزة بالرصاص، مهروسة ومقطعة الأوصال، وعليها لافتة صغيرة مكتوبة بطلاء أحمر: «هكذا يموت كلاب البرجوازية» سحب مسدسه السميث ويزون 38 من قرابه وألقى نظرة فيما حوله: أحجار، وسماء، وبعض الغيوم المتفرقة شديدة البياض في البعيد. ليس هناك ولو عصفور لعين واحد في الجو.

كان ذلك الشخص قد اقترب من توماسيتو من الخلف في اليوم السابق، حين كان هذا الأخير يتفرج على مباراة بكرة القدم بين فرق العمال، وهمس له متظاهراً بأنه يعلق على اللعب: «هناك من لديه معلومات عن المختفين. سيقدمها للعريف شخصياً إذا كانت ثمة مكافأة». أتوجد مكافأة؟

ـ لست أدري. ـ قال كارينيو.

ـ ابتسم ـ أضاف الشخص ـ إنظر إلى الكرة، أشر بيدك. لا تورطني.

ـ لا بأس، سوف أسأل رئيسي ـ قال الحارس.

ـ فليذهب وحده غداً إلى المنجم المهجور، عند شروق الشمس ـ وابتسم الشخص وهو يشير بيده ويكشر كما لو أنه لا يضيع ضربة

واحدة فـي الملعب: ـ اضحك، أشر إلى الطابة، وانس أنني كلمتك.
جاء كارينيو منفعلاً جداً ليطلعه على الخبر:
ـ أخيراً هناك شيء يمكننا الإمساك به يا عريفـي.
ـ سنرى يا توماسيتو. عسى أن يحدث ذلك. هل لديك فكرة عمن يكون ذلك الشخص؟
ـ يبدو أنه عامل. وأظن أنني لم أره من قبل.
كان العريف قد نهض فـي العتمة ورأى شروق الشمس وهو فـي الطريق إلى المنجم. وقد انتظر هناك طويلاً. كان انفعاله قد تبخر. فإذا لم يكن فـي الأمر كميناً، فقد يكون مزحة من جبليّ ابن عاهرة يريد أن يتسلى على حساب ذي البدلة الشرطية. لقد حولوه إلى سخرية، يحمل مسدسه فـي يده وينتظر شبحاً.
ـ صباح الخير. سمع الصوت وراء ظهره.
فالتفت والسمث ويزون مُشهر فـي يده، ووجد أمامه ديونيسيو الخمّار.
ـ انتبه، انتبه ـ طمأنه الخمّار بيديه وهو يبتسم، ثم قال: ـ أنزل المسدس أيها السيد العريف، حذار أن ينطلق منه الرصاص.
كان قصيراً، مربوعاً، يرتدي الكنزة الزرقاء المعهودة الملتفة على العنق حتى الذقن. ذلك الوجه الممتلئ والمسخم، تلك الأسنان الضاربة إلى الخضرة، خصل الشعر الأشهب تلك، وتينك العينان المتقدتان بحمى السكر، واليدان الشبيهتان بريشتي مروحة، كلها أفقدت ليتوما سيطرته على نفسه. ما الذي يفعله هذا هنا؟
ـ عمل سيء مجيئك بصمت هكذا ـ دمدم ـ. كان يمكن لك أن تتلقى رصاصتك.
ـ جميعنا تحولنا إلى عصبيين فـي هذه الأحداث التي تقع ـ تمتم الخمّار. وكانت له طريقة مجاملة ومتذللة فـي الكلام. ولكن

عينيه، مع ذلك، كانتا تكذبانه بنظراتهما الاتهامية الواثقة، بل والاحتفالية: ـ وخاصة أنتم رجال الشرطة. وليس هذا غريب بالطبع.

لقد كان ديونيسيو يثير الريبة في نفس ليتوما على الدوام، وفي هذه اللحظة أكثر من أي وقت آخر. ولكنه أخفى مشاعره واتجه نحوه وهو يمد يده للمصافحة قائلاً:

ـ إنني أنتظر شخصاً. عليك أن تغادر المكان.

ـ إنك تنتظرني أنا ـ رد ديونيسيو مستمتعاً ـ وأنا هنا، لأني جئت.

ـ لست أنت من تحدث أمس إلى توماسيتو.

ـ انسَ ذلك الشخص، وانس كذلك اسمي ووجهي. ـ قال الخمّار ذلك وهو يقرفص: ـ من الأفضل أن تجلس، لأنهم يستطيعون رؤيتنا من تحت. هذا لقاء سري.

جلس ليتوما إلى جواره على حجر أملس:

ـ أنت إذن من يستطيع أن يقدم لي معلومات عن هؤلاء الثلاثة؟

ـ إنني أقامر بجلدي في هذا اللقاء يا حضرة العريف ـ تمتم ديونيسيو.

ـ جميعنا نقامر بجلدنا كل يوم ـ دمدم ليتوما، كان قد ظهر هناك في الأعلى ظل يطير دون خفق أجنحة، معلقاً في الهواء، يدفعه تيار ناعم وغير مرئي، يجب ألا يكون إلا نسر كوندور في مثل هذا الارتفاع. ثم تابع ليتوما: ـ حتى الحيوانات المسكينة تقامر بجلدها. هل سمعت أخبار تلك الأسرة في هوانكابي؟ لقد أعدموهم جميعاً، بما في ذلك الكلاب على ما يبدو.

فرد ديونيسيو بنبرة بدت لليتوما ملاطفة، بل منشرحة تقريباً:

ـ الليلة الماضية جاء إلى الحانة شخص كان هناك حين دخل الإرهابيون. لقد أقاموا لهم محكمتهم الشعبية كالعادة. المحظوظون منهم تعرضوا للجلد، أما عاثرو الحظ فهُشمت رؤوسهم.

ـ لم يعد ينقص إلا مص دماء الناس وأكل لحمهم نيئاً.

- سنصل إلى ذلك. - قال الخمّار مؤكداً، ورأى ليتوما أن عينيه تلمعان ممتلئتين بالهياج، ففكر في نفسه: «طائر الشؤم». ثم قال:

- حسن، فلنعد إلى شأننا هنا. إذا كنت تعرف أي براز يحدث وأخبرتني به فسأكون شاكراً لك. بالنسبة لحوادث الاختفاء هذه، إنني لا أعرف شيئاً عنها، وكأنني تائه في القمر. وأنا صريح معك كما ترى. أهم جماعة الدرب؟ هل قتلوهم؟ هل أخذوهم معهم؟ لن تقول لي إن من فعل ذلك هم البستاكو أو أرواح الجبال مثلما تدعي دونيا أدريانا، أليس كذلك؟

أخذ الخمار يكشط التراب بالعود الصغير الذي كان يمضغه قبل لحظات ولم ينظر إليه. لقد رآه ليتوما دوماً بهذه الكنزة الزرقاء المزيتة. وكانت تلفت انتباهه على الدوام خصلة الشيب في شعره. نادراً ما كان الجبليون يشيبون. وحتى الشيوخ منهم، أولئك الهنود المنكمشون المتضائلون الذين يبدون مثل الأطفال أو الأقزام، يحتفظون بشعورهم سوداء، لا صلع ولا شيب. لا بد أنها عوامل المناخ. أو ربما بسبب كثرة ما يمضغون من الكوكا.

- لا أحد يعمل مجاناً - همس الخمّار -. المعلومات التي لديّ ستسبب أضراراً في ناكوس. رؤوس كثيرة ستسقط. إنني أقامر بعنقي إذا أعطيتك إياها. هل فكرت بمكافأة معينة؟ أنت تفهمني.

فتش ليتوما جيوبه بحثاً عن سجائر. قدم واحدة إلى ديونيسيو وأشعلها. ثم اعترف بوقار:

- لا أريد أن أخدعك. إذا كنت تأمل بنقود، فليس لدي قرش واحد. يمكن لأي كان أن يرى الظروف التي أعيش فيها أنا ومساعدي. إننا نعيش أسوأ من العمال، ولا أقول مراقبي العمال. وأسوأ منك أنت بالذات. يجب علي أن أستفسر من القيادة في هوانكايو. وسيتأخرون بالرد، هذا إذا ردوا. ويجب أن أبعث

استفساري عبر جهاز اللاسلكي الذي تملكه الشركة، وهكذا سيعلم بالأمر عامل الجهاز، أي أن ناكوس بأسرها ستعلم. ثم سيردون عليّ في نهاية المطاف: «اقطع خصية هذا الذي يطالب بمكافأة واجعله يغني، فإذا لم يغنِ، اقطع خصيته الأخرى، وإذا لم يغن بعدها، فدس حربة في مؤخرته».

انفجر ديونيسيو في الضحك وهو يتلوى بجسمه الرخو ويصفق. ضحك ليتوما كذلك دون رغبة. كان الشكل المجنح يهبط في دورة واسعة ووقورة فوق رأسيهما وقد بدأ يخفق أجنحته بنوع من الأنفة. أجل، إنه كوندور. إنه يعرف أنهم في بعض قرى خونين، في احتفالات القديس الشفيع، يمسكون هذه الطيور حية ويقيدونها إلى الثيران لينقرها الكوندور بينما الجبليون يصارعونها. إنه منظر جدير بالمشاهدة.

ـ أنت حارس أهلي طيب ـ سمع ديونيسيو يؤكد له ـ. جميع من في المعسكر يعترفون بذلك فأنت لا تستغل سلطتك أبداً. لا يوجد كثيرون مثلك. وهذا يؤكده لك شخص يعرف سلسلة الجبال مثلما يعرف رائحة يده. لقد تجولت فيها من أقصاها إلى أقصاها.

ـ أيستلطفني العمال؟ ـ قال ليتوما ساخراً ـ وكيف لهم أن يستاؤوا مني. فأنا لم أقم صداقة مع أي واحد ممن في المنجم حتى الآن.

ـ الدليل على أنهم يقدرونك هو أنك ما زلت أنت ومساعدك على قيد الحياة ـ أكد ديونيسيو ذلك بنبرة طبيعية، وكأنه يقول إن الماء سائل وإن الليل ظلام. توقف عن الكلام لحظة وعاد يكشط الأرض بعوده، ثم أضاف: ـ أما أولئك الثلاثة بالمقابل، بيدريتو وديميتريو وكاسيميرو، فلم يكن هناك من يتقبلهم. أتعرف أن اسم ديميتريو تشانكا كان اسماً مزيفاً؟

ـ وما هو اسمه إذاً؟

ـ ميداردو يانتك.

بقيا صامتين، وبينما هما يدخنان كان ليتوما يحك جسده. ديونيسيو يعرف كل شيء. والآن سيعرف هو نفسه الحقيقة أيضاً. ماذا فعلوا بهم؟ من المؤكد أن ما فعلوه شيئاً مرعباً. من يكونون؟ ولماذا فعلوا ذلك؟ هذا المتملق السكير متواطئ معهم دون شك. كان النهار يتقدم بسرعة، ويحل دفء منعش محل برودة الفجر، بدا أن حر الجبال قد بدأ بالاشتداد، وبدأت بعض القمم تلمع تحت أشعة الشمس وبريق الثلج. وهناك في الأسفل، في شفافية الهواء، لمح ليتوما بعض الأشباح الصغيرة تتحرك.

ـ أود أن أعرف ما جرى لهم ـ دمدم ـ. وسأكون شاكراً لك إذا ما أخبرتني بكل شيء، كل شيء بالتمام. إنه أمر يؤرقني. ما هذا الذي قلته عن أن ديميتريو تشانكا يدعى ميداردو يانتك.

ـ لقد بدّل اسمه لأنه كان هارباً من الإرهابيين. ومن الشرطة أيضاً. جاء إلى هنا معتقداً أن أحداً لن يجده في ناكوس. ويقولون إنه كان سيء المزاج جداً كمراقب عمال.

ـ لقد قُتلوا إذن، ليس هناك مجال للشك والتردد. فالثلاثة قد قُتلوا، أليس كذلك؟ أقتلهم الإرهابيون؟ هل هناك كثيرون من جماعة الدرب في المعسكر؟

كان الخمّار يطأطئ رأسه وهو ما يزال يكشط التراب بعوده. وكان ليتوما يرى خصلة شعره البيضاء وسط الشعر القاتم المشعث. تذكر سكرة يوم العيد الوطني في الحانة المزدحمة. حين كان ديونيسيو مثل حبة عنب، عيناه تشعان بالضغينة وهو يشجع الجميع على الرقص رجالاً مع رجال: موضوعه المعهود كل ليلة. كان يتنقل من جماعة إلى أخرى، متعثراً، متراقصاً، مرتشفاً من الكؤوس والزجاجات، ومقدماً خمرة بيسكو الكاسدة، مقلداً حركات

الدب بين الحين والآخر. وفجأة أنزل بنطاله. وسمع ليتوما مجدداً ضحكة دونيا أدريانا وقهقهات العمال، ورأى مرة أخرى إليتي الخمّار المتعرقتين، وأحس بالقرف نفسه الذي أحس به تلك الليلة. أية قذارات حدثت بعد ذلك، حين غادر هو وتوماسيتو الحانة؟ اهتز الرأس ذو الخصلة البيضاء موافقاً. وارتفع العود عن الأرض ورسم نصف دائرة في الهواء ليستقر باتجاه المنجم المهجور.

- هل الجثث الثلاث في هذه الحفرة؟

لم يؤكد ديونيسيو ولم ينفِ. وعادت يده السمينة إلى وضعها السابق، وبدأ العود يكشط الصخر من جديد بشيء من الهلع.

- لا أنصحك بالدخول هناك للبحث عنهم - قال ذلك بطريقة بدت لليتوما أقرب للغدر منها إلى اللطف، وأضاف: هذه الحفر ما زالت مدعمة بأعجوبة. لدى أول خطوة متعثرة سيأتي الانهيار. ثم إن أنفاق المنجم ممتلئة بالغازات. أجل، لا بد أنهم ما زالوا هنا، في هذه المتاهة، إذا لم يكن «الموكي» قد أكلهم. أنت تعرف من هو الموكي، أليس كذلك؟ شيطان المناجم، المنتقم للجبال التي يستنزفها الجشع البشري. إنه لا يقتل إلا عمال المناجم. من الأفضل ألا أخبرك بالمزيد أيها السيد العريف. ففي اللحظة التي تعرف فيها حضرتك المزيد، فإن هذا الرجل الذي أمامك سيموت. لن أعيش بعدها ساعة واحدة. كنت سأخبرك مقابل النقود، وأنا أعرف أنني أرسلك بذلك إلى الموت. إننا بحاجة إلى النقود لكي نذهب من هنا. حضرتك لاحظت كيف هي الأمور. الحصار يضيق من حولنا وقد يصلون في أي لحظة. وبعد أن يقتلوك أنت ومساعدك، سأكون أنا وزوجتي بعدكما تماماً في القائمة. وربما نكون قبلكما. فهم لا يحقدون على رجال الشرطة فقط. بل كذلك على من يسكرون ويزنون، ومن يشجعون على الشرب وعلى مضاجعة الآخرين. على من

يلهون، بالرغم من النكبات. فنحن أيضاً محكومان سلفاً بالرجم بالأحجار. يجب أن نغادر. ولكن كيف؟ من حسن حظك أنك لا تملك الثمن لشراء السر. إنك تنقذ حياتك بذلك أيها السيد العريف!

سحق ليتوما عقب السيجارة بقدمه. ربما كان الخمّار على حق، ربما يكون جهله هو السبب في بقائه على قيد الحياة. حاول أن يتصورهم مقطعي الأوصال في أعماق هذه الأنفاق الرطبة الغارقة في الظلام الأبدي، في هذه السراديب ذات الأبخرة الانفجارية والكبريتوزات السامة. ما قالته دونيا أدريانا قد يكون صحيحاً. ربما قُتلوا على يد مشعوذي الديانة. فجماعة الدرب لا يلقون من يقتلونهم في الأنفاق، بل يتركون الجثث معروضة في الضوء كي يعلم بها الجميع. الخمّار يعرف ما حدث بالتفصيل. من هم الذين أقدموا على مثل هذه الفعلة وإذا ما دسست السميث ويزون في فمه وجعلته يعترف؟ «انبح وإلا ستكون معهم في قاع الحفرة» هذا ما كان سيفعله الملازم سيلفا، هناك في تالارا. وجاءته الضحكة.

- إروِ لي النكتة التي أضحكتك أيها العريف.

- أضحك لأني عصبي - أوضح ليتوما -. تذكّر أنني كنت أعرف أحد أولئك الثلاثة. بيدريتو تينوكو ساعدنا في إعداد الموقع وعاش معنا مذ أحضره مساعدي إلى ناكوس. لم يكن يُلحق الأذى بأحد.

نهض واقفاً ومشى بضع خطوات وهو يتنفس بعمق. وكما في مرات أخرى، أحس بالحضور الساحق والطاغي للجبال الشاهقة، ولسماء سلسلة الجبال العميقة. كل شيء يتجه نحو الأعالي هنا. وبكل ما في جسده من خلايا أحس بالحنين إلى الصحارى، إلى بطاح بيورا غير المحدودة، المشعثة بأشجار الخروب، وبقطعان الماعز والكثبان البيضاء. ما الذي تفعله يا ليتوما؟

وأيقن مرة أخرى، مثلما أيقن مرات كثيرة خلال هذه الشهور، من

أنه لن يخرج حياً من ناكوس. سينتهي في أعماق نفق مثل هؤلاء الثلاثة.

ـ الإصرار على كشف القضية هو مضيعة للوقت أيها السيد العريف ـ قال الخمّار، وقد جلس على الحجر المسطح الذي كان يجلس عليه ليتوما من قبل: ـ رؤوس الناس حامية بسبب ما يحدث. وحين يكون الناس في مثل هذه الحال يمكن حدوث أي شيء.

ـ أنتم هنا سريعو التصديق، ساذجون جداً ـ ردّ ليتوما ـ. تصدقون أي أكذوبة تقال، مثل قصة البستاكو أو الموكي... أشياء لم يعد يؤمن بها أحد في أي مكان متحضر.

ـ أما الساحليون فأناس حكماء، أليس كذلك ـ قال ديونيسيو.

ـ من السهل إلقاء مسؤولية اختفاء هؤلاء على الشيطان، مثلما تفعل زوجتك.

ـ مسكين الشيطان ـ ضحك ديونيسيو ـ. أدريانا تجاري التيار فقط. أولم يلقوا منذ الأزل مسؤولية كل الشرور التي تحدث على الشيطان؟ فلماذا تستغرب إذن.

فقال ليتوما متنبهاً وهو يتفحصه:

ـ آه، يبدو أنك لا ترى الشيطان سيئاً إلى هذا الحد.

وتحداه ديونيسيو بنظرته الصفراوية:

ـ لولا الشيطان لما تعلم البشر التمتع بالحياة. أم إنك ضد أن يلهو الناس أيضاً، مثل أولئك المتعصبين؟

ـ بالنسبة لي، فليمرح الناس وليقضوا وقتهم في اللهو ـ رد ليتوما ـ. فهذا ما أرغب في عمله هنا. ولكنني لا أجد أحداً ألهو معه.

فضحك ديونيسيو:

ـ وما الذي تنتظره لتضاجع مساعدك. الفتى ليس سيئاً.

ـ هذه الشذوذات لا تنفع معي ـ غضب ليتوما.

ـ إنها مجرد مزحة أيها السيد العريف، لا تغضب ـ قال الخمّار

وهو ينهض ـ حسناً، بما أنه لا توجد أي مكافأة، فسوف أتركك تائهاً في القمر. وأكرر لك أن هذا أفضل بالنسبة إليك، وأسوأ بالنسبة إليّ. فأنا أعرف أنني أصبحت بين يديك. إذا خطر لك أن تروي هذه المحادثة لأي شخص، فسوف أكون جثة.

كان يقول ذلك دون أدنى ظل من القلق، وكأنه لا يراوده أدنى شك في أن العريف سيكون عاجزاً عن الوشاية به.

ـ هذا الفم لا يدخله الذباب ـ قال ليتوما ـ وأنا آسف لأننا لم نعقد الصفقة. ولكنني لست المسؤول. فأنا غير موجود مهما تظاهرت ببدلتي الشرطية.

ـ يمكنني أن أقدم لك نصيحة ـ قال ديونيسيو ـ اسكر سكرة محترمة وانسَ كل شيء. حين تذهب الأفكار يصبح الإنسان سعيداً. وأنا موجود في الحانة لخدمتك. إلى اللقاء أيها السيد العريف.

حياه بحركة مبهمة من يده وانصرف، ليس عبر المسار الذي ينزل مباشرة إلى المعسكر، وإنما بالالتفاف حول فتحة المنجم. عاد ليتوما للجلوس على الحجر، وأشعل بيديه المتعرقتين سيجارته الثانية هذا الصباح. ما قاله الخمّار كان يحوم في رأسه مثلما تحوم في السماء هذه الطيور التي ظهرت من جهة الثلوج. هنالك أنصار كثيرون للإرهابيين في المعسكر دون شك ولهذا بدا ديونيسيو خائفاً ويريد مغادرة المكان، حتى وإن تطلب ذلك الوشاية ببعض زبائنه من أجل المال. هل رفض أولئك الثلاثة التعاون في أمر ما، مع أحد ما، ولهذا ألقوا بهم هناك في الأسفل؟ إذا جاء الإرهابيون في أي ليلة من هذه الليالي وأشعلوا النار في الموقع وشووه هو ومساعده، فإن القيادة سترسل التعازي إلى أسرتيهما وستذكر اسميهما في الأمر اليومي. يا له من عزاء بائس.

كان يمج السيجارة مرة بعد أخرى، وكان مزاجه يتحول من

الغضب إلى الإحباط ثم إلى الحزن. لا، لا يمكن أن تكون جماعة الدرب هي التي قتلتهم. الأقرب إلى الصواب أنهم ذهبوا ضحية عمل من أعمال السحر أو حماقة من حماقات الجبليين. نهض وتقدم بضع خطوات من فتحة المنجم شبه المسدودة بالأحجار. أيكونون هنا؟ أم إنها حكاية سكير يريد أن يكسب بعض السولات بأي طريقة، لكي يهرب من ناكوس؟ يجب عليه هو وتوماسيتو أن يدسا أنفيهما ليريا ما الذي سيجدانه.

ألقى عقب السيجارة وبدأ النزول. لا بد أن كارينيو قد بدأ بإعداد الفطور. إن لدى توماسيتو سره أيضاً. ماذا عن بكائه المفاجئ. أيكون ذلك بسبب البيورانية فقط؟ إنه مضحك بالرغم من كل شيء. العالم ينهار، إعدامات، اختفاءات، شياطين، بيستاكوات، وموكيات. بينما الحارس الأهلي توماس كارينيو يبكي لأن امرأة تركته. حسن، لقد كانت أول واحدة يضاجعها، إنها من فضت عذريته. ويبدو أنها الوحيدة التي أكلها هذا الساذج.

❖ ❖ ❖

في فجر ذلك اليوم، مثلما في غيره من أيام السفر والرحلات، نهضت السيدة دِهاركور والظلام ما يزال مخيماً، وقبل أن يرن جرس المنبه بثوان. ومع أنها تفعل ذلك منذ نحو ثلاثين سنة، فقد أحست بالدغدغة نفسها إلى الجديد التي تشعر بها في كل مرة تخرج فيها إلى الريف، سواء للعمل أو من أجل المتعة فقط (ولم يكن هناك فرق بين الأمرين في نظرها). ارتدت ملابسها بسرعة، ولكي لا توقظ زوجها نزلت على رؤوس أصابعها إلى المطبخ لتعد القهوة. وكانت قد جهزت حقيبة الرحلات منذ اليوم السابق ووضعتها عند باب الخروج. وبينما هي تغسل الفنجان ظهر مارثيلو عند باب المطبخ وهو يتثاءب، وكان حافياً وشعره مشعث ويرتدي روب النوم.

ـ إنني أُحدثُ ضجة دائماً مهما حاولت تفادي ذلك ـ قالت له معتذرة ـ. أو ربما كان عقلي الباطن يخونني لأني أرغب في إيقاظك؟

تثاءب مرة أخرى وهو يقول:

ـ سأعطيك أي شيء مقابل تخليك عن الذهاب إلى هوانكافيليكا. فلنتفاوض؟ ها هو دفتر الشيكات.

ـ كبداية للتفاوض، أريد القمر والنجوم. ـ ثم ضحكت وهي تقدم له فنجان قهوة، وأضافت: ـ لا تكن أحمق يا مارثيلو. سأكون في الجبال أكثر أماناً مما أنت عليه في ذهابك إلى المكتب. شوارع ليما، إحصائياً، أشد خطورة من الجبال.

ـ لم أؤمن يوماً بالإحصائيات ـ قال هو يتمطى متثائباً، وظل يراقبها ملاحظاً الترتيب الدقيق الذي تضع به الفناجين والأطباق والملاعق في الخزانة، ثم قال: ـ رحلاتك هذه ستسبب لي قرحة يا هورتينسيا، هذا إذا لم تقتلني بجلطة قلبية قبل ذلك.

قالت وهي ترفع خصلة الشعر عن جبهته:

ـ سأحضر لك جبناً طازجاً من الجبال. عد إلى السرير واحلم بي. لن يحدث لي أي شيء، فلا تكن أحمق.

عندئذ سمعا سيارة الجيب التابعة للوزارة تتوقف عند الباب، فأسرعت السيدة دِهاركور بالخروج. قبّلت زوجها مؤكدة له مرة أخرى أنه ليس ثمة سبب للقلق، وذكّرته بأن يرسل إلى سميثسونيان مغلف صور الحديقة الوطنية «ياناغا ـ تشيملين». خرج مارثيلو إلى البوابة، وقال لكانياس لدى الوداع ما كان يقوله له في المرات السابقة:

ـ أعدها إليّ سليمة معافاة أيها المهندس.

كانت شوارع ليما مقفرة ورطبة. ووصلت سيارة الجيب في دقائق قليلة إلى الطريق العام المركزي، حيث كانت حركة السير ما تزال قليلة الكثافة.

ــ هــل تــصبح زوجتــكَ عــصبية مثـل زوجــي عنــدما تــسافر أيهــا المهندس؟ ـ سـألت الـسيدة دِهـاركور. وكـانوا حينئذ يخلفـون أضـواء ليما وراءهم ويتقدمون فـي ضوء الفجر الحليبي.

ورد عليها المهندس بالإيجاب:

ـ قليلاً، ولكـن زوجتي ميرتا ليست شاطرة جداً فــي الجغرافــية، ولهذا فإنها لا تعرف أننا ذاهبون إلى فم الذئب.

فارتجت السيارة، وقال السائق:

ـ هل نحن ذاهبون إلى فم الذئب؟ كان عليك أن تخبرني بذلك مـن قبـل أيهـا المهنـدس، لأنـني مـا كـنت سـأوافق على المجـيء. فلن أقـامر بجلدي من أجل الراتب البائس الذي يدفعونه لي.

ـ الذي يدفعونه لنا ـ ضحك المهندس كانياس.

ـ الـذي يدفعونـه لكمـا ـ عبقـت الـسيدة دِهـاركور. أمـا أنـا فـلا أكسب سنتاً واحداً. إنني أفعل هذا كله حباً بالفن.

ـ وأنت سعيدة بذلك تماماً يا سيدتي. بـل إنـك مـستعدة لأن تـدفعي مقابل هذه الأشياء.

ـ حسن، أجل، هذه هـي الحقيقة ـ أقرت ـ. لقد مـلأت هـذه الأمـور حياتي. أيكون ذلـك لأن النباتـات والحيوانـات لم تخـذلني قـطّ، بينمـا خذلني البشر أحياناً. وأنتَ أيضاً يروقك هذا العمل أيهـا المهنـدس. فمـا كنـت ستبقى فــي الـوزارة لـو لم تكـن لـديك أسـباب أقـوى مـن هـذا الراتب البائس.

ــ أنــت المذنبــة يــا ســيدتي. لقــد كنــتُ أقــرأ مقالاتــك فــي الــ *الكوميرثيو*، مثلمـا أخبرتـك سـابقاً. وأنـت مـن فتحـت شـهيتي ورغبتي فــي الـسفر عبر البيرو، والتعـرف على العجائـب الـتي تـصفـينها فــي كتاباتك. أنتِ المذنبة فــي دفعي إلى دراسـة الهندسـة الزراعيـة، وفــي وصولي كذلك إلى إدارة الأحراج. ألا يؤنبك ضميرك؟

فصفقت السيدة دِهاركور:

ـ بعد ثلاثين سنة من العمل التبشيري، أصبح لدي مُريد واحد. الآن يمكنني أن أموت مطمئنة.

ـ لديك الكثير من المريدين ـ أكد المهندس كانياس باقتناع ـ. فأنت من اكتشفت لنا هذه الأرض المحظوظة التي نعيش عليها، والتي نعاملها بأسوأ ما يمكن. لا أظن أن هناك شخصاً واحداً في البيرو يعرف هذه البلاد، ظاهرها وباطنها، مثلك.

ـ بما أننا دخلنا في المجاملات، فسوف أرد إليك مجاملتك ـ قالت السيدة دِهاركور ـ. لقد تبدلت حياتي منذ مجيئك إلى الوزارة. فقد وجدت أخيراً من يفهم ما يعنيه الوسط البيئي، ومن يناضل ضد البيروقراطيين. ليس هذا خطاباً أيها المهندس. فبفضلك لم أعد أشعر بأنني يتيمة مثلما كنت أشعر في السابق.

عند الوصول إلى مقربة من ماتومانا بدأت بوادر الشمس بالظهور بين الجبال. كان الصباح جافاً وبارداً، وفي بقية الطريق، بينما هم يجتازون قمم أرويو الجليدية ووادي خاوخا الدافئ، كان المهندس والسيدة دِهاركور يضعان الخطط للوصول إلى ممولين لمشروع إعادة تشجير جبال هوانكافيليكا الذي ترعاه منظمة (الفاو) وهولندا، والذي بدأت أولى نتائجه تثمر. لقد كان انتصاراً احتفلا به كلاهما بسعادة في سان ايسيدرو قبل بضعة شهور. فقد أمضيا نحو أربع سنوات من المساعي، والمذكرات، والمحاضرات، والمقالات، والرسائل، والمعاملات، والتوصيات. حتى توصلا إلى ذلك. وقد بدأ المشروع ينطلق، وبدلاً من التشرد في الرعي وزراعة ما يقيم الأود، ستبدأ التجمعات السكانية القروية بالعمل في التشجير، وإذا ما استمر وصول الأرصدة، فإن أحراجاً كثيفة من أشجار الكينيوا ستظلل مرة أخرى هذه الكهوف المليئة بكتابات ورسوم غامضة،

رسائل من الأسلاف القدماء سيتمكن أركيولوجيون من كل أنحاء العالم من المجيء لحل رموزها فور استتباب الأمن والسلام. لا بد من أن تساهم بلدان وهيئات أخرى في تقديم الأموال. ولا بد من رواد يعلّمون القرويين استخدام روث الحيوانات بدلاً من الحطب في الطبخ والتدفئة، يجب إقامة محطة تجريبية، وإنشاء عشرة مشاتل أخرى للغراس على الأقل. يعني.. ومع أن السيدة دِهاركور امرأة عملية، إلا أنها كانت تسمح لنفسها أحياناً بالانقياد وراء التخيل، وتعيد تركيب الواقع وفق رغباتها رغم أنها تعرف جيداً هذا الواقع الذي أمضت نصف حياتها في الصراع معه.

وصلوا إلى هوانكايو بعيد منتصف النهار وتوقفوا ليأكلوا لقمة ما، على عجل، وليملأ السائق خزان سيارة الجيب بالبنزين ويفحص المحرك والعجلات. دخلوا إلى مطعم في أحد أركان الساحة.

- كدت أُقنع سفير إسبانيا بالمجيء معنا - روت السيدة دِهاركور للمهندس: - ولم يستطع المجيء لأن وفداً ما جاءه من مدريد. لقد وعدني بالمجيء في المرة القادمة. وقال إنه سيبذل المساعي لعل الحكومة الإسبانية تقدم المساعدة. فالبيئة أصبحت موضة هناك أيضاً كما يبدو.

قال المهندس كانياس:

- كم أرغب في التعرف على أوروبا - قال المهندس كانياس -. جد أمي كان غاليسياً، لا بد أن لي أقارب هناك.

في الجزء الثاني من الرحلة لم يستطيعا تبادل الحديث تقريباً، بسبب عثرات واهتزازات الجيب على الطريق المخرب. لقد كانت الحفر والانجرافات ما بين كوستاميو وازكوتشاكا كثيرة إلى حد أنهم كانوا على وشك العودة؛ فعلى الرغم من تشبثها بالمقاعد والسقف، كانت المطبات تضرب كلاً منهما بالآخر وتهدد بقذفهما

خارج السيارة. وكان السائق يغني بمتعة: «غواردا باخوا» و«ثور هائج على مدى الرؤية». وصلوا إلى هوانكافيليكا ليلاً. كان الجو بارداً، فلبسوا كنزات وقفازات ولفاعات صوفية.

كان المحافظ ينتظرهما في فندق السياح، فقد تلقى تعليمات بذلك من ليما. انتظرهما إلى أن استحما، ثم دعاهما لتناول الطعام في الفندق نفسه. وهناك جاء للقاء بهما أيضاً فنيا الوزارة اللذان سيرافقانهما. وحضر كذلك قائد الحامية، وهو رجل قصير وودود، حياهما تحية عسكرية ثم مد يده لمصافحتهما.

- شرف كبير أن ألتقي بشخصية مرموقة مثلك يا سيدتي - قال ذلك وهو يخلع قبعته: - إنني أواظب على قراءة صفحتك في جريدة *كوميرثيو*. وقد قرأت كتابك عن هوايلانس. من المؤسف أنه ليس معي لتضعي توقيعك عليه.

أخبرهما أن الدورية التي سترافقهما جاهزة، وأنهم يستطيعون بدء الجولة في الساعة السابعة صباحاً.

- الدورية؟ قالت السيدة دِهاركور ذلك وهي تستجوب المهندس كانياس بعينيها.

- لقد أوضحت لكم أننا لا نريد حراسة - قال المهندس للمحافظ.

- وأنا نقلت رغبتكما إلى القائد - ردّ المحافظ وهو يهز كتفيه -. ولكن حيث يأمر ربان لا مكان لملاح. وهذه منطقة طوارئ، وهي خاضعة للسلطات العسكرية.

- متأسف جداً يا سيدتي، ولكنني لا أستطيع السماح لكما بأن توغلا هناك دون حماية - قال القائد العسكري محذراً. وكان رجلاً شاباً، له شارب جيد التشذيب، وهو يجهد نفسه ليبدو لطيفاً: - المنطقة خطرة، فالمتمردون يسمونها «أرض محررة». وهذه مسؤولية كبيرة بالنسبة إلي. أؤكد لكم أن الدورية لن تتدخل في أي شيء.

تنهدت السيدة دِهاركور وتبادلت مع المهندس كانياس نظرة مكروبة. عليها أنْ تشرح موقفها مثلما شرحته، منذ بدأ العنف يملأ هذه الجبال بالموت والخوف والأشباح، لكل من قابلته من المحافظين ومعاونيهم والعمداء والرواد والنقباء والحراس الأهليين والحراس الجمهوريين والجنود العاديين.

- نحن لسنا سياسيين، وليست لنا أي علاقة بالسياسة أيها القائد. ما يشغلنا هو الطبيعة، الوسط البيئي، الحيوانات، النباتات. نحن لا نخدم هذه الحكومة، وإنما نخدم البيرو. جميع أهالي البيرو، العسكريين وأولئك المجانين أيضاً. ألا ترى ذلك؟ إذا ما رأونا محاطين بالجنود فستتكون لديهم فكرة غير صحيحة عنا وعما نفعله. إنني شاكرة حسن نواياك. ولكنني أؤكد لك أننا لا نحتاج لمن يحمينا: أفضل حماية لنا هي ذهابنا وحدنا، وإظهارنا أنه ليس لدينا ما نخفيه.

لم يكن القائد ليسمح بلوي ذراعه، لاسيما وأنه من المخيف اجتياز الطريق من هوانكايو إلى هوانكافيليكا براً، حيث وقعت عشرات الهجمات المباغتة والاغتيالات. أصر على موقفه بنبرة اعتذارية. قد يبدو لهما وقحاً في إصراره. إنما هذا هو واجبه، وهو لا يريد أن يأتي من يؤنبه فيما بعد.

- سنوقع لك على وثيقة تعفيك من أي مسؤولية - اقترح عليه المهندس كانياس - لا تنظر إلى الأمر على أنه إهانة أيها القائد، ولكن مصلحة عملنا تقتضي ألا يعتبروننا منكم.

ولم يتوقف الجدل إلا عندما قالت السيدة دِهاركور أنها ستلغي الحملة كلها إذا ظل الضابط مصراً على موقفه. عندئذ حرر القائد وثيقة جعل المحافظ والخبيرين الآخرين يوقعون عليها كشهود.

وصالحته السيدة دِهاركور وهي تتمنى له ليلة سعيدة:

- يا لصلابة رأسكَ. ولكنني أشكر لطفك على أي حال. أكتب

لي عنوانك هنا وسأرسل لك كتابي الجديد الذي سيصدر قريباً عن وادي كولكا. إنه يتضمن صوراً جميلة جداً، سترى ذلك.

في صباح اليوم التالي ذهبت السيدة دِهاركور لتستمع إلى القداس في كنيسة سان سيباستيان، وظلت لوقت طويل تتأمل أقواس الكنيسة الكولونيالية المهيبة ورسوم الملائكة الغُمص القديمة. ثم انطلقوا في سيارتين: سيارة الجيب وسيارة فورد عتيقة ركب فيها الفنيان والمحافظ، وعند اتجاه مناجم سانتا باربارا التقوا بدورية جنود؛ كانوا يحملون البنادق وقد رُكِّبت عليها الحراب، وبدا عليهم أنهم مستعدون لإطلاق النار. وبعد كيلومترات قليلة تحول الطريق إلى درب غير واضح المعالم، فخففت سيارة الجيب من سرعتها في محاولة لعدم الابتعاد كثيراً عن الفورد. وواصلوا الصعود والهبوط طوال ساعتين وسط مشهد شبه مقفر، تتوالى فيه جبال جرداء تظهر أحياناً على سفوحها، كعلامة على الحياة واللون، حفنة أكواخ وقطع أرض مربعة صغيرة مزروعة بالبطاطا والشعير والفول والأوكة والماسهوا. وكانت الفورد قد تخلفت كثيراً وغابت عن أنظارهم.

- حين كنا في المرة الأخيرة لم تكن توجد كل هذه الشعارات والرايات الحمراء - علّق المهندس كانياس -. لا بد أن ما قاله القائد صحيح. يبدو أنهم يسيطرون على هذه المنطقة.

فقالت السيدة دِهاركور:

- أرجو ألا يقوض ذلك مشروع إعادة التشجير. هذا ما كان ينقصنا. أربع سنوات لكي ينطلق المشروع، وعندما يبدأ....

فتدخل السائق:

- حتى الآن لم أحاول التدخل، وأود أن ألفت نظركما إلى ذلك. ولكن لو أنكما سألتماني لقلت لكما إنني كنت سأشعر باطمئنان أكثر بوجود الحراسة.

- عندئذ سيعتبروننا أعداء لهم، ونحن لسنا كذلك - قالت السيدة دِهاركور - لسنا أعداء أحد. نحن نعمل من أجلهم أيضاً. ألا ترى ذلك؟

- أنا أرى - زمجر الرجل - ولكنني أرجو أن يروا هم أنفسهم ذلك أيضاً. ألم تشاهدي في التلفزيون الفظاعات التي يقترفونها؟

- أنا لا أشاهد التلفزيون أبداً - ردت السيدة دِهاركور -. وربما هذا هو سبب إحساسي بالطمأنينة.

وصلوا في المساء إلى ضيعة هوايّارخكرا، حيث يوجد أحد المشاتل. وكان الفلاحون يأتون إلى هناك ليأخذوا شتول أشجار الكينيوا لغرسها حول حقولهم وعلى ضفاف البحيرات والجداول. كان مركز الضيعة شبه مقفر، بكنيسته الصغيرة ذات السقف القرميدي والبرج المبتور، ومدرستها الطينية الصغيرة وساحتها ذات الأحجار المسطحة. ولكن عمدة هوايّارخكرا وأعضاء مجلسها القروي الذين كانوا يحملون عصي القيادة، تجولوا معهم في المشتل الذي جرى بناؤه بعمل جماعي. كانوا يبدون متحمسين لبرنامج التشجير. ويقولون إن القرويين كانوا يعيشون حتى الآن في الأعالي، منفصلين كثيراً عن بعضهم البعض، ولكن إذا ما تحققت خطط التجميع على أرض الواقع، فإنهم سيحصلون على الكهرباء ومياه الشرب. وعلى ضوء الشمس المائلة إلى الغروب كان بإمكان النظر الإحاطة بامتدادات فسيحة فيها أجزاء مزروعة وقطعة أرض وتشمخ حتى تضيع بين الغيوم. تنفس المهندس كانياس بعمق، وفتح ذراعيه وهو يهتف بانفعال ويشير:

- هذا المنظر يخلصني من عصاب ليما. ألا تشعرين بالشيء نفسه يا سيدتي؟ كان علينا أن نجلب معنا زجاجة خمر من أجل مقاومة البرد.

- هل تعرف متى رأيت هذا المشهد أول مرة؟ منذ خمس وعشرين

سنة. ومن هذا المكان الذي تقف أنت فيه بالذات. مشهد رائع، أليس كذلك؟

إلى جانب المشتل، هناك حوش يقدم فيه الطعام. وكان المهندس والسيدة دِهاركور قد ناما هناك في مرات سابقة وهو ما سيفعلانه أيضاً هذه المرة. ولكن الأسرة التي كانت هنا في السابق لم يبق منها الآن إلا امرأة عجوز لم تستطع أن توضح لهما أين ذهب أقرباؤها وسبب ذهابهم. كان الكوخ خاوياً، اللهم إلا من فراش ضيق. بقيت المرأة العجوز صامتة ومشغولة طوال الوقت، فهي تسعّر النار وتحرك الطعام في القدر، وتدير لهم ظهرها، رجع العمدة وأعضاء المجلس إلى بيوتهم. وبقوا وحدهم وسط الضيعة. وكان حارسا المشتل قد دخلا غرفتهما وأغلقا الباب بالمزلاج على نفسيهما. الزريبة المشيدة من القصب التي تتذكر السيدة دِهاركور أنها كانت تؤوي خرافاً ودجاجاً، كانت مقفرة وعيدان القصب منزوعة من مكانها. وبين أكوام القش التي على السطح، كانت هناك عصا تخفق في أعلاها قطعة فانلة حمراء ممزقة.

حين وصلت سيارة الفورد وفيها العمدة والفنيان إلى هوايّا رخكرا، كانت النجوم تتلألأ في السماء الداكنة. وكان المهندس والسيدة دِهاركور يُخرجان أمتعتهما. وكانا قد فردا كيسي نومهما في أحد أركان الكوخ، وكانا قد نفخا وسادتيهما المطاطيتين، وسخنا القهوة على موقد بريموس نقال.

حيّا المهندس كانياس القادمين:

ـ ظننا أنكم قد تعرضتم لحادث. كنت على وشك الخروج للبحث عنكم.

ولكن المحافظ كان قد تحول إلى شخص آخر؛ فالرجل الضئيل الخدوم الدمث في هوانكافيليا صار يطلق الشرر غضباً. فقد نُقبت إحدى العجلات بالفعل، إنما لم يكن هذا هو سبب غضبه.

- يجب علينا أن نرجع فوراً - قال آمراً فور نزوله من السيارة - لا يمكننا قضاء الليل هنا بأي حال من الأحوال.

- تناول الآن فنجان قهوة وقطعة بسكويت واستمتع بالمشهد - هدّأ المهندس من روعه - هذا منظر لا يمكن رؤيته في أي مكان آخر في العالم. لا حاجة للغضب يا رجل.

- ألم تنتبه حضرتك؟ ألم تر الرسوم والشعارات على الطريق؟ - رفع المحافظ صوته؛ وكانت ذقنه تهتز وهو يفتح عينيه ويغمضهما مثل مبهور - ألا توجد راية حمراء فوق رؤوسنا؟ لقد كان القائد على حق. هذا تهور. لا يمكننا أن نعرض أنفسنا للخطر هكذا. وخاصة أنت أيتها السيدة.

- جئنا للقيام بعمل لا علاقة له بالسياسة - حاولت هي تهدئته - وإذا كنت لا تشعر بالأمان، فيمكنك العودة إلى المدينة.

كان صوت المحافظ قد تبدل، وكانت تخرج منه أصوات آمرة:

- أنا لست جباناً. ولكن، هذا تصرف طائش ومتهور. إننا في خطر. لا يمكننا قضاء الليل هنا. لن أفعل ذلك أنا والفنيان والمهندس. اسمعي نصيحتي ولنعد معاً. سنرجع ثانية ومعنا الدورية. لا تعرضي الناس للخطر هكذا يا سيدتي.

التفت المهندس إلى الفنيين. وكانا يستمعان إلى الجدال صامتين:

- أنتما أيضاً تريدان الذهاب؟

كانا شابين صغيرين يرتديان ملابس بائسة. وكان يبدو عليهما عدم الاطمئنان. تبادلا النظرات فيما بينهما دون أن يقولا شيئاً.

- أرجوكما ألا تشعرا بأنكما مجبران على البقاء - تدخلت السيدة دِهاركور - إذا كنتما تفضلان العودة فيمكنكما عمل ذلك.

وأخيراً سأل أحدهما المهندس بلهجة شمالية:

- هل ستبقى أنت أيها المهندس؟

فقال المهندس:

ـ لقد خضنا نضالاً من أجل إضفاء الصبغة الرسمية على هذا المشروع، ومن أجل الحصول على الأموال من (الفاو) وهولندا. ولن أتراجع الآن بعد أن بدأ المشروع بالانطلاق. فقال صاحب السؤال:

ـ نحن أيضاً سنبقى إذن. وليكن ما يشاؤه الله.

ـ أنا آسف جداً، ولكنني سأذهب ـ أعلن المحافظ ـ. فأنا لدي منصب سياسي، وإذا جاؤوا فلن أستطيع النجاة. سأطلب من القائد العسكري أن يرسل إليكم الدورية.

ـ ولا بأي شكل. ـ قالت السيدة وهي تمد يدها لمصافحته ـ اذهب وحسب. سنلتقي في هوانكافيليكا بعد يومين. وأتمنى لك عودة ميمونة. ولا تقلق علينا، فهناك في الأعلى من يحمينا خيراً من أي دورية.

أنزلوا بطانيات وحقائب الفنيين ورأوا سيارة الفورد تبتعد في الظلام. فدمدم أحد الفنيين:

ـ عودته وحيداً في هذا الوقت وعبر هذه الدروب هي عمل جنوني.

عملوا لوقت لا بأس به بصمت مهيئين أنفسهم لقضاء الليل في الكوخ. تمددت العجوز في فراشها بعد أن قدمت لهم حساء لاذعاً جداً فيه قطع من اليوكا. صفوا أكياس النوم والبطانيات بجوار بعضها البعض ثم أشعلوا ناراً وجلسوا حولها وهم يرون تألق النجوم وتكاثرها. كان معهم سندويتشات جامبون وفروج وأفوكاتو، ووزعت عليهم السيدة دِهاركور ألواحاً من الشوكولاتة كحلوى. أكلوا بتمهل وهم يتبادلون الحديث. تحدثوا عن خط سيرهم في اليوم التالي، عن أسرهم في ليما، وقد كان الفني الشمالي من باكاسمايو وخطيبته من تروخيللو: لقد فازت في العام السابق بمسابقة لامارينيرا. ثم تركز الحديث عن كثرة النجوم وشدة بريقها

عند تأمل الليل من هذه القمم الأنديزية. وفجأة بدلت السيدة دِهاركور مجرى الحديث:

- منذ ثلاثين سنة وأنا أتجول في أنحاء البيرو، والحقيقة أنه لم يخطر لي قطّ أنه يمكن أن تحدث مثل هذه الأمور.

ظل المهندس والفنيان والسائق صامتين يفكرون بكلماتها. ثم استلقوا بعد ذلك بثيابهم ليناموا.

لقد وصلوا عند الفجر، حين كان أفراد البعثة يستيقظون. كانوا نحو خمسين رجلاً وامرأة، كثيرون منهم شباب، وبعضهم أطفال، ومعظمهم فلاحون، ولكن كان بينهم كذلك خلاسيون من المدينة، وكانوا يرتدون السترات وعباءات البونتشو، والأخفاف والأوخوتا[1]، وبنطلونات رعاة البقر وكنزات طُرزت عليها زينات الأضرحة القديمة البدائية التي ترجع إلى ما قبل مجيء الإسبان. وكانوا يعتمرون طاقيات تغطي الأذنين وأنواع أخرى من القبعات، ويغطي بعضهم وجوههم بطاقيات لا تظهر منها إلا الأعين. وكان تسليحهم بائساً، ثلاثة أو أربعة منهم يحملون بنادق الكلاشينكوف؛ أما الآخرون فكانوا مسلحين بالبواريد أو المسدسات أو بنادق الصيد، أو بالسيوف والهراوى وحدها. وكانت الطاهية العجوز قد اختفت.

قالت السيدة دِهاركور وهي تتقدم نحوهم:

- لستم بحاجة إلى تصويب أسلحتكم نحونا. نحن غير مسلحين ولن نهرب كذلك. هل يمكنني التحدث إلى قائدكم؟ أريد أن أشرح له ما الذي نفعله هنا.

لم يجبها أحد، ولم تسمع أية أوامر، ولكنهم جميعاً كما يبدو كانوا يعرفون التعليمات جيداً، إذ راحوا ينفصلون عن بعضهم بعضاً

---

[1] أوخوتا (Ojota): نوع من الصنادل يستخدمه الهنود، ويصنع من ألياف نباتية.

في جماعات من شخصين أو ثلاثة أشخاص، لتحيط كل جماعة منهم بواحد من الخمسة. فتشوهم بدقة، وأخرجوا ما في جيوبهم، ثم قيدوا أيديهم وراء ظهورهم بقطع حبال أو بأمعاء حيوانات.

وكانت السيدة دِهاركور تقول وهي تمد يديها لتسهيل عمل محتجزيها.

ـ لسنا أعداءكم، لسنا سياسيين، نحن لا نعمل من أجل الحكومة وإنما من أجل جميع البيرويين. مهمتنا هي الدفاع عن الوسط البيئي، وعن الثروات الطبيعية. نريد الحيلولة دون تدمير الطبيعة، لكي يكون هناك في المستقبل طعام ويتوفر عمل لجميع أطفال سلسلة الجبال.

وكان المهندس كانياس يوضح لهم:

ـ لقد كتبت السيدة دِهاركور كتباً كثيرة عن نباتات بلادنا وحيواناتها. إنها امرأة مثالية. مثلكم. إنها تريد حياة أفضل للفلاحين. وبفضلها ستمتلئ هذه المنطقة بالأشجار. وهذا شيء عظيم بالنسبة للقرويين وبالنسبة لهوانكافيليكا. من أجلكم ومن أجل أبنائكم. هذا مفيد لنا جميعاً، مهما كانت أفكارنا السياسية.

تركوهما يتكلمان دون أن يقاطعوهما، ولكنهم لم يولوهما أي اهتمام. كانوا قد احتشدوا ونشروا حراساً منهم في نقاط عديدة يمكن منها مراقبة طريق القدوم والدرب الذي يصعد عبر الثلوج. كان الصباح بارداً وجافاً، سماؤه صافية وهواؤه قارس. وكانت سفوح الجبال المنتصبة كجدران شاهقة تلمع بلون مائل إلى الخضرة.

وكانت السيدة دِهاركور تقول بصوت هادئ وتعابير وجهها لا تشي بأدنى قدر من الذعر:

ـ نضالنا يشبه نضالكم. فلا تعاملونا كأعداء، لأننا لسنا كذلك.

وكان المهندس كانياس يسأل من حين لآخر:

- هل يمكننا التكلم مع القائد؟ أو مع أي مسؤول؟ اسمحوا لي أن أشرح لكم.

وبعد وقت لا بأس به، دخلت جماعة منهم إلى الكوخ، ومن بقوا في الخارج بدؤوا بإدخال أعضاء البعثة واحداً بعد آخر. كانوا يستجوبونهم بأصوات عالية. وكان بإمكان من هم في الخارج سماع مقاطع من الحوار. كان الاستجواب بطيئاً ومكرراً، فهم يخلطون البيانات الشخصية بالاعتبارات السياسية، ويضيفون إليها أحياناً استفسارات عن أشخاص وقضايا غريبة. دخل السائق أولاً، ثم الفنيان، وبعدهما المهندس كانياس. وعندما خرج هذا الأخير كان الوقت غروباً. وفكرت السيدة دِهاركور متفاجئة بأنها تقف هناك منذ عشر ساعات دون أن تأكل أو تشرب شيئاً. ولكنها لم تكن تشعر بالجوع ولا العطش ولا التعب. كانت تفكر بزوجها وهي حزينة من أجله أكثر من حزنها على نفسها. رأت المهندس كانياس يخرج. وكانت ملامحه قد تبدلت، كما لو أنه فقد الثقة التي كانت تبثه الحماسة طوال النهار، حين كان يحاول التحدث إليهم.

وسمعته يهمس وهو يمر أمامها:

- إنهم يصغون، ولكنهم لا يريدون أن يسمعوا أو يفهموا ما يقال لهم. وكأنهم من كوكب آخر.

حين صارت داخل الكوخ أجلسوها على الأرض، بالوضع الذي كان يجلس فيه ثلاثة رجال وامرأة منهم. توجهت السيدة دِهاركور إلى الذي يرتدي سترة جلدية ويلف عنقه بلفاع، إنه شاب، له لحية نامية وعينان بنيتان، باردتان ومباشرتان. وروت له سيرة حياتها بشيء من التفصيل، منذ ولادتها قبل نحو ستين سنة في بلاد نائية تطل على بحر البلطيق، ولكنها تجهلها ولا تحسن تكلم لغتها، مروراً

بطفولتها المتنقلة في أوروبا وأميركا، ودراستها المتقاطعة، مستبدلة المدارس، واللغات، والبلدان... وحتى مجيئها إلى البيرو، قبل أن تكمل العشرين من عمرها، وكانت قد تزوجت حديثاً من دبلوماسي شاب. حدثته عن حبها للبيرويين منذ النظرة الأولى، وعن انبهارها بالصحارى، والغابات، والأشجار، والحيوانات، والثلوج، وبكل ما في هذه البلاد التي هي بلادها الآن أيضاً. ليس لأن ذلك ما يقوله جواز سفرها - وكان زوجها الثاني مارثيلو، قد منحها الجنسية -، وإنما لأنها اكتسبت حق أن تكون بيروية بقوة ترحالها ودراستها وتنبيهها إلى جماليات هذه البلاد في مقالات ومحاضرات وكتب منذ سنوات طويلة. وستواصل عمل ذلك حتى نهاية حياتها، لأن هذا العمل هو الذي منح المغزى لحياتها. هل أدركوا أنها ليست عدوتهم؟

أصغوا إليها دون مقاطعة، ولكن دون أن يبدو على وجوههم أدنى اهتمام. ولم يبدؤوا بتوجيه الأسئلة إليها إلا حين صمتت، بعد أن أوضحت لهم مدى المصاعب التي واجهتها هي وهذا الشاب الكريم المتفاني، المهندس كانياس، حين يدفعا إلى الأمام مشروع إعادة تشجير هوانكافيليكا. كانوا يسألونها دون حماسة ودون جفاء، بصيغ جافة، آلية، وأصوات محايدة روتينية، وكأن تلك – كما فكرت السيدة دِهاركور – مجرد شكليات لا طائل منها لأنهم يعرفون الإجابات مسبقاً. سألوها منذ متى وهي تقدم معلومات إلى الشرطة والجيش والمخابرات، وعن رحلاتها وجولاتها.

وقدمت لهم كل شيء بدقة. فالمعهد الجغرافي العسكري كان قد طلب منها أن تساعد اللجنة الدائمة المكلفة بإعادة رسم أطلس البلاد وضبطه، وكانت تلك هي علاقتها الوحيدة بالقوات المسلحة، باستثناء محاضرة أو اثنتين في المدرسة العسكرية، أو المدرسة البحرية أو في مركز الدراسات العسكرية العليا. أرادوا أن يعرفوا

علاقاتها مع الحكومات الأجنبية، وإلى أي تلك الحكومات تقدم خدماتها، ومن أيها تتلقى التعليمات. وأوضحت أن الأمر لا يتعلق بحكومات وإنما بمعاهد علمية، مثل سميثسونيان في واشنطن، ومتحف الإنسان في باريس، والمتحف البريطاني في لندن، وبعض المؤسسات أو المراكز البيئية التي استطاعت الحصول منها أحياناً على بعض المساعدات الضئيلة («مبالغ تكاد تكون بائسة على الدوام»). ولكن، على الرغم من أنها كانت تتكلم، وتصحح، وتحدد، وبالرغم من أنها كانت تؤكد في إجاباتها على أن أياً من علاقاتها لم تكن ذات طابع سياسي، وأن كل تلك الاتصالات والعلاقات كانت علمية، وعلمية فقط، إلا أنها بسبب ملامح ونظرات مستجوبيها، كانت تشعر موقنة بأنها في حالة سوء تفاهم لا يمكن تجاوزها... حالة عدم تواصل أكبر مما لو كانت تتكلم الصينية وهم يتكلمون الإسبانية.

وعندما بدا أن ذلك الوضع قد وصل إلى نهايته ـ كانت تشعر بجفاف في فمها وحريق في حنجرتها. أحست السيدة دِهاركور بأنها متعبة جداً.

- هل ستقتلونني؟ - سألتهم وهي تشعر للمرة الأولى بانكسار في صوتها.

نظر ذو السترة الجلدية إلى عينيها مباشرة دون أن يرمش:

- إننا في حالة حرب، وأنت مجرد بيدق في يد العدو الطبقي ـ راح يشرح لها وهو يتطلع إليها بنظرته البيضاء، بصوته المونولوجي الخالي من التلونات: ـ أنت لم تنتبهي إلى أنك مجرد أداة في يد الإمبريالية والدولة البرجوازية. وتتعمين فوق هذا كله بترف الإحساس براحة الضمير، والشعور بأنك سامرية البيرو العظيمة. إنك حالة تقليدية.

ـ أيمكنك أن توضح لي ذلك فأنا، بصراحة، لا أفهمك ـ قالت ـ. كيف أكون حالة تقليدية؟

فقال الرجل بالثقة الهادئة والجليدية نفسها:

ـ إنك نموذج المثقف الذي يخون شعبه. المثقف الذي يخدم السلطة البرجوازية، والطبقة السائدة. ما تفعلينه حضرتك لا علاقة له بالمحيط البيئي، وإنما هو أمر له علاقة بطبقتك وبالسلطة. أنت جئت مع هؤلاء الموظفين، والصحف ستقوم بالدعاية وستكسب الحكومة معركة. فمن يقول إن المنطقة هي أرض محررة؟ ومن الذي أقام في هذه المنطقة ولو جزءاً من جمهورية الديمقراطية الجديدة؟ كلها أكاذيب، وها هو ذا الدليل. انظروا الصور. فالسلام البرجوازي مستتب في الأنديز. أنتِ أيضاً لا تعلمين، ولكن هناك بلد جديد يولد هنا. بكثير من الدماء والآلام. إننا نواجه أعداء أقوياء، ولا يمكننا أخذ النوايا بعين الاعتبار.

فتلعثمت السيدة دِهاركور:

ـ هل يمكنني أن أتشَفَّع على الأقل من أجل المهندس كانياس؟ إنه شاب، ربما هو من جيلك أنت بالذات. وأنا لم أتعرف من قبل على بيروي واحد على هذا القدر من المثالية، إنه يعمل بكل...

ـ انتهت الجلسة ـ قال الشاب ذو السترة وهو ينهض واقفاً.

عندما خرجوا كانت الشمس تغيب وراء الجبال، وكان مشتل الغراس قد بدأ يختفي في محرقة هائلة تدفئ الجو بلهيبها. توقدت وجنتاها. ورأت السيدة دِهاركور السائق وهو يصعد إلى سيارة الجيب. وقد انطلق بها بعد قليل على الطريق المؤدي إلى هوانكافيليكا.

ـ لقد نجا هو على الأقل. ـ قال المهندس كانياس بجانبها ـ. إنني سعيد، لأن هذا الخلاسي كان شخصاً طيباً جداً.

فهمست:

ـ آسفة جداً أيها المهندس. إنني أشعر بالذنب تجاهك. لست أدري كيف أطلب منك...

ـ إنه شرف كبير لي يا سيدتي ـ قال دون أن يخونه صوته ـ. أعني مرافقتي لك في هذه اللحظة الحاسمة. لقد اقتادوا الفنيين إلى هناك، وبما أنهما أقل مكانة فسوف يطلقون على كل منهما رصاصة في الرأس. أما أنا وأنت، فإننا أكثر حظوة. لقد أوضحوا لي ذلك للتو. إنها مسألة رموز على ما يبدو. حضرتك مؤمنة، أليس كذلك؟ أرجوك أن أن تصلي من أجلي، فأنا غير متدين. أيمكننا أن نلتصق ببعضنا؟ سأصمد أكثر إذا أمسكتُ يدكِ. فلنحاول، هل تريدين ذلك؟ اقتربي يا سيدتي.

❖ ❖ ❖

ـ ما الذي كنت تقوله في أحلامك يا توماسيتو؟ ـ سأله ليتوما.

حين فتح الفتى عينيه، فزعاً، كانت الشمس تتلألأ في الغرفة التي بدت أضيق وأكثر خراباً مما كانت تبدو عليه في الليلة السابقة. وكانت ميرثيدس قد سرحت شعرها وارتدت ثيابها ووقفت تتأمله من أحد أركان السرير بعينين تفتيشيتين. وكانت تطفو على وجهها ابتسامة ساخرة.

قال لها وهو يتمطى:

ـ كم الساعة؟

ففتحت ميرثيدس فمها وضحكت:

ـ منذ ساعات وأنا أتأملك نائماً.

ـ الله، الله! ـ قال الفتى متحرجاً ـ لحسن الحظ أنك استيقظتِ رائقة المزاج اليوم.

ــ لم أكن أراك وأنت نائم فقط، بل كنت أسمعك أيضاً ــ

وكانت تلمع فـي وجه ميرثيدس الأسمر أسنان فـأر ناصعة البيـاض يـا عريفـي. وقـد أكملـت كلامهـا قائلـة: ـ كنـت تـتكلم وتـتكلم. فظننتك تتظاهر بالنوم. ولكنني اقتربت منك ووجدتك متيبساً.

فقال ليتوما بإلحاح:

ـ وأية شياطين كنت تقولها فـي نومك يا توماسيتو؟

ـ لقد كنت آكل ديكاً رومياً لا يمكن تصوره يا عريفـي.

ـ يا للسرعة التي تعلمت فـيها، لقد صرت تعرف كل شـيء. ـ قالت ميرثيدس ذلك وهي تطلق قهقهة أخرى. فتصنع هو تثاؤباً طويلاً لكي يداري اضطرابه، وأضافت هي قائلة: ـ لقد كنت تواصل فـي نومك قول الكلمات الجميلة التي قلتها لي ليلاً.

وعلق ليتوما مستمتعاً:

ـ لقد حان وقت التغنج.

ـ حسن، يمكـن للمـرء أن يقـول أي شـيء وهـو نـائم. ـ قـال لهـا كارينيو مدافعاً عن نفسه.

اتخـذت ميرثيـدس هيئـة الجـدّ ونظـرت إلى عينيـه مباشـرة. مـدت يدها نحوه، وغاصت أصابعها فـي شعره، فأحس توماس بأنها تمسد الشعر مثلما فعلت فـي العشية:

ـ هل صحيح أنك تشعر نحوي بهذا الذي كنت تقوله طوال الليل؟ هذا الذي واصلت قوله وأنت نائم؟

وتلعثم كارينيو منفعلاً:

ـ كانت لها طريقة صريحة جداً لم أر مثلها فـي الحـديث عن الأمور الحميمة. لقد صدمتني كثيراً يا عريفـي.

فرد عليه ليتوما:

ـ كـان لكلامهـا فــي نفـسك طعـم القطـر والكـراميلا أيهـا الغشاش. لقد وضعتك ابنة مدينتي على لفة ونصف.

وأضافت ميرثيدس وهي تأكله بعينيها:

ــ أم أنـك كنـت تـشتهيني وقـد انتهـى الآن كـل شـيء بعـد أن استمتعت بي؟

ـ هذا الحديث فـي وضح النهار عن الأشياء التي تقال فـي الظـلام همساً فـي الأذن لا يناسبني يا عريفـي. كدت أغضب منها، أقسم لك. ولكنها ما إن بدأت تبعثر شعري حتى زال غضبي.

وقالت ميرثيدس بنبرة جدية:

ــ أعـرف أنـك لا تحـب أن أحـدثك فـي هـذه الأمـور. ولكـنني لا أسـتطيع أن أقتنـع بأنـك قـد أحببـتني بهـذه الـصورة بمجـرد أن رأيـتني مـرتين، ودون أن تكلمـني ولـو كلمـتين، لم يقـل لـي أحـد مثـل هـذا الكـلام، وأنـت قلتـه سـاعات وسـاعات، حتـى بعـد أن انتهيـت. ولم يركع أحد ويقبّل قدمي مثلما فعلتَ أنت.

ذهل ليتوما:

ـ هل ركعت وقبلت قدميها؟ هذا لم يعد حباً، إنه عبادة.

ـ وجهي يتوقد خجلاً ولا أعرف أين أخفـيه ـ قال لها الفتـى مازحـاً. بحـث عـن المنشفة الـتي يتـذكر أنـه تركهـا فـي الليلـة الـسابقة عنـد طـرف الـسرير. كانـت علـى الأرض، فالتقطهـا وغطـى بهـا وسـطه ونهض واقفاً. وحين مرّ بجوار ميرثيـدس، مـال عليهـا ليقبلهـا. وقـال لهـا بينما فمه على شعرها:

ـ ما قلته هو ما أشعر به. إنها مشاعري نحوكِ.

ـ أكلة نظيفة ـ تحمس ليتومـا ــ. وهـل طرحتهـا فـي الـسرير مـرة أخرى؟

وقالت له ميرثيدس:

ـ لا تتهيج، فقد جاءتني العادة.

أفلتها كارينيو ضاحكاً:

ـ لك طريقة في قول الأشياء سأحتاج لجهود كي أعتاد عليها. فهل سأعتاد يوماً أم إنه علي أن أجعلك تتغيرين؟

فربتت على صدره:

ـ هيا، ألبس ثيابك ولنخرج ونتناول الفطور. ألا تشعر بالجوع بعد ما عملته في الليل؟

قال ليتوما متذكراً:

ـ لقد ضاجعتُ في إحدى المرات مومساً وهي في العادة الشهرية، كان ذلك في البيت الأخضر في بيورا. خفضت لي السعر إلى النصف. وقد سبب لي «المنيعون» الجنون بالقول إنني سأصاب بالسفلس.

خرج كارينيو إلى الممر وهو يضحك مقهقهاً. لم يكن هناك ماء في الدوش، ولا في المغسلة، ولكنهم كانوا قد تركوا طشتاً فاستطاع أن يغتسل مثل قط. ارتدى ملابسه ونزلا إلى المطعم. كانت المناضد مشغولة الآن، وقد التفت الجميع لتفحصهما. كان الناس يتناولون الغداء، فالوقت قد تجاوز منتصف النهار. جلسا إلى المنضدة الوحيدة الشاغرة. وقد قال لهما الفتى الذي يخدم إن موعد تناول الفطور قد فات. فقررا الخروج.

دفعا أجرة الليل وأخبرتهما المشرفة بأن مكاتب حافلات السفر وسيارات الأجرة الجماعية في ساحة السلاح. وقبل الذهاب إلى هناك. مرا على صيدلية لشراء فوط نسائية من أجل ميرثيدس. واشتريا من السوق كنزتين من وبر الألبكة، من أجل برد سلسلة الجبال.

قال توماس:

ـ من حسن الحظ أن تشانشو كان قد دفع لي مقدماً. هل تتصور ما كان سيحدث لو أننا كنا لا نملك سنتافو واحداً في جيبنا؟

فسأله ليتوما:

- أليس لتاجر المخدرات هذا من اسم؟ لماذا تدعوه دائماً تشانشو أو الشخص أو الزعيم؟

- لا أحد يعرف اسمه يا عريفي. حتى عرابي نفسه لم يكن يعرف اسمه على ما أظن.

أكلا بضع ساندويتشات جبن دسم في مقهى وذهبا ليستفسرا عن مواعيد السفر. قررا الذهاب في سيارة أجرة تخرج في الساعة الخامسة مساءً وتصل إلى العاصمة في ظهيرة اليوم التالي. ففي الليل تكون الحراسة أكثر تساهلاً على حواجز مراقبة الطرق. لم تكن الساعة عندئذ قد بلغت الواحدة بعد الظهر، فأمضيا بعض الوقت في ساحة السلاح، حيث كان الحر أقل وطأة في ظل الأشجار الضخمة. لمّع كارينيو حذاءه. فقد كان هناك في الساحة الفسيحة أسراب من ماسحي الأحذية، والباعة، والمصورين المتجولين والكسالى الذين يتمشون أو ينامون جالسين. وكانت حركة المرور كثيفة جداً، فهناك شاحنات محملة بالفواكه تأتي من الغابة أو تنطلق نحو الجبال أو الساحل.

- وماذا سيحدث عندما نصل إلى ليما؟ - سألته ميرثيدس.

- سنعيش معاً.

- أي أنك قررت كل شيء وحدك.

- حسن، إذا أنتِ رغبتِ يمكننا أن نتزوج.

فقال ليتوما:

- هذا اسمه الوصول بسرعة. هل كنت تتحدث بجد عن الزواج؟

وسألته ميرثيدس مجارية:

- أنتزوج في الكنيسة، بطرحة وفستان زفاف أبيض؟

- مثلما تشائين أنت. وإذا كان لك أقارب في بيورا، فسأذهب

إلى هناك مع أمي لأطلب يدك، فأنا لا أب لي. مثلما تشائين يا حبي.

ـ إنني أحسدك أحياناً ـ تنهد ليتوما ـ. لا بد أن المجامعة رائعة هكذا.

ـ أرى أنك جاد. ـ قالت ميرثيدس ذلك وهي تلتصق بجسده، فطوق الفتى كتفيها بذراعه. بينما أضافت هي: ـ أنت مجنون بي يا كارينيو.

ـ أكثر مما تتصورين ـ همس في أذنها ـ. إنني مستعد لقتل ألف تشانشو إذا اقتضى الأمر. سنخرج من هذه الورطة، وسترين ذلك. فمدينة ليما كبيرة جداً. إذا وصلنا إلى هناك لن يستطيعوا الإمساك بنا. ولكن ما يقلقني هو أمر آخر. فأنتِ تعرفين الآن مشاعري نحوك. ولكن، ماذا عنك؟ هل تحبينني؟ ولو قليلاً فقط؟

فقالت ميرثيدس فوراً:

ـ لا، لست أحبك. يؤسفني أن أخذلك، ولكنني لا أستطيع أن أقول لك ما هو غير صحيح.

ـ وبدأت القول إنها لا تحب الكذب. ـ قال توماسيتو مغموماً: ـ وإنها ليست من اللواتي يعشقن خبط عشواء. وكنا في هذا الحديث حين سقط علينا فجأة من السماء اسخريوطي البدين.

ـ هل أنت مجنون؟ ما الذي تفعله هنا؟ أتظن أن هذا هو الوقت المناسب للتناجي في مكان عام مع عشيقة الشخص الذي قتلته أنت نفسك منذ قليل يا شقفة الـ...

وكان كارينيو يقول له:

ـ اهدأ، اهدأ أيها البدين.

وقال ليتوما معترفاً:

ـ إنه محق تماماً. لا بد أنهم كانوا يبحثون عنك في تنغو ماريا، في ليما، في كل مكان بينما أنت تستحم في مياه دافئة.

فقال توماس:

- الحياة تعاش فقط، ويجب أن نعيشها مرة واحدة يا عريفي. وقد كنت أعيشها بأقصى سرعة منذ الليلة السابقة مع محبوبتي. فماذا يهمني التشانشو، وماذا يهمني أن يبحثوا عني أو أن يحبسوني. فمن الذي كان قادراً على أن ينتزع مني ما حصلت عليه من السعادة؟

كانت عينا اسخريوطي البدين تخرجان من محجريهما وسفط الهوميتا[1] يهتز في يده من الغضب:

- ألا يمكنك أن تكون أكثر حرصاً يا كارينيتو.

- أنت محق أيها البدين. لا تغضب هكذا. أتريدني أن أخبرك أمراً؟ إنني سعيد جداً لأني التقيت بك ثانية. كنت أظن أنني لن أراك أبداً.

كان اسخريوطي يضع ربطة عنق ويرتدي سترة، ولكن القميص كان يضايقه؛ وقد بدا ذلك واضحاً من الطريقة التي يمط بها رقبته، فقد كان يبدو كأنه يريد التحرر من ذلك القميص. وكانت هناك حبيبات لحيةٍ في وجهه المنتفخ والمتلألئ بالعرق. نظر في ما حوله بذعر. كان ماسحو الأحذية يتفحصونه بفضول، وكان هناك متشرد مستلقٍ على مقعد يرشف شراب ليمون، مدّ إليه يده يطلب صدقة. انهار البدين على المقعد بجوار ميرثيدس. ولكنه نهض واقفاً على الفور، وكأنه تلقى شحنة كهربائية، وأشار إلى فندق السياح:

- الجميع يروننا هنا. سنكون أحسن حالاً هناك، إنني أقيم في الغرفة رقم 27. اصعدا دون أن تسألا أحداً. لقد خرجت لأشتري هوميتا.

ابتعد بخطوات واسعة دون أن يلتفت نحوهما. انتظرا بضع دقائق،

---

[1] هوميتا (humita): نوع من الطعام المحلي يشبه الكبة المقلية، يصنع من الذرة الطرية المبشورة مع الفلفل والبندورة.

ثم قاما بجولة حول الساحة، ولحقا به. وأشارت لهما إلى الدرج امرأة كانت تمسح البهو في فندق السياح. وكانت الغرفة رقم 27 بجوار الدرج، ودفع كارينيو الباب بعد أن طرقه بأصابعه.

قال ليتوما:

ـ كان بديناً، وكان يأكل بشراهةٍ وحش ويحرس تاجر المخدرات. هذا هو كل ما قلته لي عن اسخريوطي.

ـ لقد كان مرتبطاً بالشرطة بطريقة ما ـ قال مساعده ـ. وقد عرّفني عليه عرابي، ولم أعرف الكثير عن حياته. ولم يكن يعمل مع التشانشو طوال الوقت أيضاً، بل بصورة مؤقتة، مثلي.

ـ أغلق الباب بالمفتاح. ـ أمره البدين دون أن يتوقف عن المضغ. كان قد خلع سترته وجلس على السرير واضعاً السفط بين ساقيه وهو يأكل قطع الهوميتا بيديه. وكان يضع المنديل حول عنقه كأنه فوطة. جلس توماس إلى جانبه، بينما جلست ميرثيدس على الكرسي الوحيد في الغرفة. ومن خلال النافذة كانت تظهر قمم الأشجار المكتظة بالأوراق في الساحة وفي الميدان القديم ذي الحاجز الباهت. ودون أن يقول اسخريوطي كلمة واحدة، مد إليهما السفط الذي ما زال يحتوي قطعتي هوميتا، ولكنهما لم يأكلا.

ـ في السابق كانوا يصنعونها بطريقة أفضل ـ قال البدين ذلك وهو يملأ فمه بنصف هوميتا. ـ أيمكنني أن أعرف ما الذي تفعله في هوانوكو يا كارينيتو؟

ربت توماس على ركبته وقال له:

ـ سنغادر هذا المساء أيها البدين. الهوميتا غير جيدة، ولكنك تأكلها بشراهة.

ـ العصبية تسبب لي الجوع. لقد انتصب شعر بدني حين رأيتك في الساحة. حسن، الحقيقة أن كل شيء يسبب لي الجوع.

كان قد انتهى من الأكل. نهض واقفاً ومضى ليُخرج علبة سجائر شقراء من جيب سترته أشعل واحدة منها، ثم قال وهو يطلق الدخان في حلقات:

- لقد تكلمت بالهاتف مع واسطة ارتباطي، ذاك الذي يدعونه المملوك. وقد أطلعته على الخبر. قلت له إن الزعيم قد قتل وإنك اختفيت أنت والمرأة. فباغتته نوبة فواق. وماذا تظن كان رد فعله؟ لقد قال لي: «هذا يعني أن الفتى قد باع نفسه للكولومبيين. والعاهرة أيضاً لا شك في ذلك».

- كان وجه اسخريوطي شبه باسم، ولكن الابتسامة انقلبت فجأة إلى تكشيرة: - هل دفع لك الكولومبيون لتقتله يا كارينيتو؟

- لقد كان يشبهك قليلاً يا عريفي، فرأسه لا يتسع لإمكانية وجود من هو مستعد للقتل من أجل الحب وحده.

فضحك ليتوما:

- اسخريوطي، المملوك، تشونشو، إنها أسماء أفلام.

أومأ البدين وقد بدت على وجهه ملامح الريبة. ووراء مجموعة أخرى من حلقات الدخان، كانت عيناه المغضنتان، شبه الضائعتين بين كتل الشحم في وجنتيه، تتفحصان ميرثيدس من أعلى إلى أسفل.

- هل كنت تضاجع هذه من قبل؟ سأل وهو يطلق صفير إعجاب.

فاحتجت ميرثيدس:

- قليل من الاحترام. من تظن نفسك أيها الفيل...

أمسك كارينيو المرأة من ذراعها بحركة متضامنة:

- إنها الآن معي، ولهذا عليك معاملتها باحترام، ميرثيدس هي خطيبتي الآن أيها البدين.

فاعتذر اسخريوطي وهو يُنقِّل نظره فيما بينهما:

ـ حسن، لا تصنعا من الحبة قبة. أريد أن أتأكد فقط من أمر واحد. هل الكولومبيون وراء ما حدث؟

ـ أنا لم تكن لي أي علاقة ـ سارعت ميرثيدس إلى الرد.

وأقسم الفتى:

ـ لقد فعلتُ ذلك وحدي أيها البدين. أعرف أنك تجد صعوبة في الاقتناع. ولكن الأمر كان هكذا. اندفاعة بنت لحظتها.

فألح البدين:

ـ أخبرني على الأقل إن كانت عشيقتك من قبل. أخبرني بذلك على الأقل يا كارينيتو.

ـ لم أتبادل معها كلمة واحدة من قبل. لقد رأيتها بسرعة عندما ذهبنا لإحضارها وإعادتها إلى المطار في بوكايبا وفي تنغو ماريا. هذا كل ما هناك أيها البدين، يجب عليك أن تصدقني.

واصل اسخريوطي التدخين وهو يهز رأسه متضايقاً من حجم هذه الحماقة. ثم دمدم:

ـ عمل مجانين. يجب أن يكون صحيحاً إذن أنك قتلته من أجل...

فقاطعه الفتى ضاحكاً:

ـ حسن، حسن. هم يظنون أن الكولومبيين قد دفعوا لي، فما الفائدة.

رمى اسخريوطي عقب السيجارة من النافذة ورآه يتمايل في الهواء قبل أن يسقط بين المارة في ساحة السلاح.

ـ التشانشو كان يريد أن يشق طريقاً لنفسه بعيداً عن الكولومبيين، فقد مل من استيلائهم على حصة الأسد، لقد سمعته يقول ذلك مرات ومرات. وقد وصلت إلى الكولومبيين وشاية بذلك، فأرسلوا من يقتله. ألا ترى هذا الكلام منطقياً؟

فاعترف الفتى:

- بلى. ولكنها ليست الحقيقة.

كان اسخريوطي البدين يتأمل قمم أشجار الساحة. ثم قال أخيراً وهو يقوم بإيماءة غامضة.

- يمكن لها أن تكون الحقيقة. وستكون الحقيقة التي تناسبك أيضاً. هل تفهمني يا كارينتو؟

فوجئ ليتوما:

- لم أفهم كلمة واحدة. أي مؤامرة هذه؟

- هذا الفيل يعرف كل شيء - قالت ميرثيدس.

- لقد فهمتني هي - وعاد اسخريوطي للجلوس على السرير إلى جانب كارينيو. ووضع إحدى يديه على كتفه قبل أن يضيف: - قدم هذه الجثة هدية إلى الكولومبيين يا توماسيتو. ألم يكن التشانشو راغباً في اختراقهم؟ ألم يكن يريد تكرير الكوكائين وتصديره بنفسه، والتخلص من جسرهم؟ لقد قدمتَ لهم جميلاً عظيماً بإزاحة هذا المنافس من طريقهم. وعليهم أن يشكروك على ذلك. يا للعنة، لماذا هم ملوك هذه التجارة إذن.

نهض ثانية، وبحث عن سترته ثم أشعل سيجارة أخرى. وبدأ توماس وميرثيدس التدخين أيضاً. ظلوا صامتين لبعض الوقت وهم يعبون أنفاساً ويطلقون الدخان. وفي الخارج بدأت تدوي نواقيس عدة كنائس. بعض الأجراس كانت مبحوحة، وبعضها ذات أصوات حادة، أو أصداء طويلة أو قصيرة، وامتلأت الغرفة بالدوي، فرسمت ميرثيدس إشارة الصليب.

قال اسخريوطي:

- عند وصولك إلى ليما، ارتد بدلتك الرسمية واذهب فوراً إلى عرابك، وقل له: «أنا أزحته من الطريق، خلصتهم منه. لقد قدمت للكولومبيين خدمة العمر يا عرابي. ويمكنك الآن أن تطلب منهم

فاتورة الحساب» وقائدك يعرفهم. فهو على اتصال معهم. وهو أيضاً من يوفر لهم الحماية. وهكذا ستحول النكبة إلى نعمة يا كارينيو. وبهذه الطريقة ستجعل عرابك يغفر لك ما فعلته.

أبدى ليتوما إعجابه:

ـ هذا البدين لعنة كاملة. يا للفكرة العاهرة!

ـ حسن، لست أدري ـ قال الفتى ـ. تبدو مصيباً. أظن أن هذا هو ما يتوجب علي عمله.

وكانت ميرثيدس تنقل نظرها من أحدهما إلى الآخر مرتابة وسألت:

ـ ما هذا الذي قاله عن ارتدائك البدلة الرسمية؟

ـ لقد فكر البدين جيداً في الأمر ـ أوضح الفتى للعريف ـ. كانت لديه خطته. أراد جعل الكولومبيين يعتقدون بأنني قتلت التشانشو لمصلحتهم. لقد كان حلم حياة اسخريوطي هو العمل في المافيا الدولية والوصول يوماً إلى نيويورك.

قال اسخريوطي بابتهاج:

ـ وهكذا، من النكبة الكبرى سنخرج بنعمة أكبر لك، ولي أنا أيضاً. هل ستذهب إلى عرابك وتقول له ذلك يا كارينيتو.

ـ أعاهدك بأن أذهب إليه أيها البدين. يجب أن نبقى على اتصال في ليما.

فقال اسخريوطي:

ـ هذا إذا أنت استطعت الوصول إلى هناك. ما زال الأمر نظرياً فقط. فلن أكون ملاكك الحارس كلما اقترفت حماقة.

ـ البدين بدأ يصبح أكثر أهمية من مداعباتك مع البيورانية ـ هتف ليتوما ـ. حدثني عنه أكثر.

ـ إنه شخص عظيم يا عريفي. وصديق عظيم أيضاً.

أوصاهما اسخريوطي:

– إلى أن يحين موعد سفركما، من الأفضل ألا تمضيا في الطريق العام بهذا الاستعراض غير المحتشم. ألم يعلموك هذا عندما ارتديت البدلة الرسمية؟

فسألت ميرثيدس توماس بسخط مرة أخرى:

- عن أية بدلة رسمية يتكلم؟

فانفجر اسخريوطي البدين بالضحك، ثم واجه المرأة بسؤال مباغت:

- ما الذي فعلتِهِ بصديقي حتى يتورط هكذا؟ ما هو سرك؟

- ما هو، ما هو السر؟ - قاطعه ليتوما - أهو الـ...؟

ولكن ميرثيدس لم توله اهتماماً وواصلت استجواب الفتى:

- ما هذا الذي قاله عن البدلة، ما الذي يعنيه؟

فقال اسخريوطي ساخراً:

– إنها خطيبتك، ولم تخبرها بعد بأنك شرطي في الحرس الأهلي؟ يا للصفقة الخبيثة التي عقدتِها يا صديقتي... تخليتِ عن زعيم حقيقي من زعماء تهريب المخدرات من أجل شرطي عادي.

فأطلق ليتوما قهقهة مجلجلة:

– البدين ابن العاهرة كان على حق يا توماسيتو. فالبيورانية عقدت صفقة خاسرة تماماً.

V

ـ هل تعني أننا معتقلان هنا؟ ـ سألت السيدة أدريانا.

كان المطر يهطل مدراراً، وكان صوتها لا يكاد يُسمع مع قرع قطرات المطر الكبيرة على توتياء السطح. كانت تجلس على الأرض، فوق جلد خروف، وتنظر بثبات إلى العريف الذي جلس على أحد أركان المنضدة. وكان ديونيسيو يقف بجوارها، بتعابير ساهية، وكأنه ليس هناك ما يهمه من كل ما يدور حوله. كانت عيناه محتقنتين ونظرته أكثر زجاجية من المعتاد. وكان الحارس كارينيو واقفاً أيضاً، ويستند إلى خزانة الأسلحة.

ـ لا أجد مخرجاً آخر، عليكما أن تفهماني ـ قال ليتوما مؤكداً. لم تكن هذه العواصف الأنديزية ذات البروق والرعود تسعده، فهو لم يعتد عليها قطّ. فقد كان يخيل إليه أنها ستتفاقم وتتفاقم حتى تتحول إلى كارثة. ولم يكن يسعده كذلك أن يضطر إلى اعتقال الخمّار السكير وهذه المرأة، ولكنه قال: ـ من الأفضل أن تُسهلي علينا الأمور يا دونيا أدريانا.

فقالت بإصرار ودون اضطراب:

ـ ولماذا نحن معتقلان؟ ماذا فعلنا؟

ـ أنت لم تخبريني بالحقيقة عن ديميترو تشانكا، أو بعبارة أدق، عن ميداردو يانتك. فهذا هو الاسم الحقيقي لمراقب العمال، أليس كذلك؟ ـ وأخرج ليتوما البرقية التي كان قد تلقاها من هوانكايو رداً على استفساره ومررها أمام وجه المرأة قائلاً: ـ لماذا لم تخبريني أنه كان حاكم انداماركا الناجي من المذبحة التي اقترفتها جماعة الدرب؟ كنت تعلمين أن هذا الرجل جاء للاختباء هنا.

- كل من في ناكوس كانوا يعرفون ذلك - قالت المرأة بهدوء -. وهذا من سوء حظه.

- ولماذا لم تخبريني بذلك عندما استجوبتك في المرة السابقة؟

- لأنك لم تسألني - ردّت المرأة بالهدوء نفسه -. كنت أظنك تعرف ذلك أيضاً.

رفع ليتوما صوته:

- لا، لاحظي أنني لم أكن أعرف. ولكنني صرت أعرف الآن، وأعرف كذلك أنه كانت لديك، بعد شجارك مع مراقب العمال المسكين، طريقة سهلة للانتقام منه بتسليمه إلى الإرهابيين.

ظلت دونيا أدريانا ترمقه لبعض الوقت بنظرة إشفاق ساخرة، وهي تقيسه بعينيها المتقافزتين. ثم انفجرت بالضحك أخيراً، وهتفت بسخرية:

- ليست لي أي علاقة بجماعة الدرب. وهم يكرهوننا أكثر مما يكرهون ميداردو يانيك. ليسوا هم الذين قتلوه.

- من قتله إذن؟

- لقد أخبرتك من قبل. القَدَر.

أحس ليتوما برغبة في أن ينهال عليهما بالضرب، هي وزوجها السكير. ولكن لا، إنها لا تسخر منه، قد تكون مجنونة قذرة، ولكنها تعرف كل ما حدث؛ لا بد أنها متواطئة.

- أنت تعلمين على الأقل أن جثث هؤلاء الثلاثة تتعفن الآن في أحد سراديب المنجم المهجور، أليس هذا صحيحاً؟ ألم يخبرك زوجك بذلك؟ لقد أخبرني به. ويمكنه أن يؤكد ذلك الآن، لولا أنه يكاد يسقط من السكر.

فهذر ديونيسيو وهو يغمز ويقلد حركات الدب:

- لست أذكر أنني أخبرتك بأي شيء. لا بد أنني كنت مخموراً.

أما الآن، فأنا بكامل وعيي ولست أذكر أني تحدثت مع حضرتك أبداً أيها السيد العريف.

ضحك وهو يتلوى قليلاً بجسده المرن، وعاد إلى سهوه، متخذاً وضع التماسك ومتأملاً الأشياء التي في الغرفة. مضى كارينيو للجلوس على المقعد، وراء المرأة.

ـ كل الأيدي في ناكوس تشير إليكما. ـ قال لها مؤكداً، ولكن السيدة أدريانا لم تلتفت إليه، فأضاف: ـ الجميع يقولون إنكما من اختلق ما جرى للمخطوفين.

عندئذ أطلقت المرأة ضحكة استفزازية:

ـ وما الذي جرى لهم؟

ـ هذا ما أحب أن تخبرينا به يا دونيا أدريانا ـ قال ليتوما ـ. دعكِ من الشياطين، وانسي الأرواح الشريرة والسحر الأسود والأبيض، ودعك من كل هذه الحكايات التي يرويها العمال عن الشعوذة، وأخبريني ببساطة عما جرى لهؤلاء الأشخاص الثلاثة، لماذا يتهمامسون في المعسكر أنك أنت وزوجك مسؤولان عما حدث؟

عادت المرأة إلى الضحك، دون سعادة، وبرنة تنم عن الازدراء. لقد كان هناك شيء مشؤوم ومثير للقلق في وضعها المشوه ذاك، بملابسها المجعدة وجلوسها على جلد الخروف. لم تكن تبدو خائفة مما يمكن أن يحدث لها.

وفكر ليتوما في أن المرأة تشعر بالثقة من قدرها إلى حد الشفقة على تخبطه الأعمى هو ومساعده. أما بالنسبة للخمّار، فهل هناك بليد مثله؟ فهو لا يتذكر الآن أنه أراد أن يبيعه السر؛ بل وصلت به الصفاقة حد إنكار أنهما تبادلا الحديث بجانب المنجم المهجور، وأنه أفهمه بطريقة لا تقبل الخطأ أن المختفين الثلاثة يقبعون في قعر السرداب. منذ ذلك الحين وحتى وصول البرقية من هوانكايو، كان

ليتوما وتوماسيتو قد استبعدا الإرهابيين من المسؤولية عن مصير المختفين، ولكن الشكوك عادت تراودهما من جديد الآن. فالإرهابيون كانوا يبحثون دون شك عن حاكم اندماركا هذا، ذي الاسم المزيف. أي أنه... كل الأصابع تشير على أي حال إلى هذين الزوجين، مثلما قال توماسيتو. فشيئاً فشيئاً، باستخلاص كلمة عابرة من أحد العمال، ثم كلمة أخرى من عامل آخر، وربط ما أوحى به الأول والثاني، لم يعد هناك مجال للشك: الخمّار وزوجته لهما علاقة كبيرة، وهما في كل الأحوال يعرفان ما جرى بالتفصيل. وابل المطر ما زال متواصلاً، وهو يزداد قوة أكثر فأكثر.

هتف ديونيسيو فجأة وكأنه يعود إلى عالم الواقع ليواجه ليتوما:

- أنت بحاجة إلى مذنب في قضية المختفين. ولكنك أمسكت العود الخاطئ أيها السيد العريف. نحن ليس لنا أي علاقة بالأمر. أدريانا تقرأ مستقبل الناس ولكنها لا تقرره.

وانتزعت منه زوجته الكلمة:

- ما حدث لهؤلاء الثلاثة أكبر منكم ومنا. لقد أخبرتك سابقاً. إنه القدر... هذا هو اسمه. وهو موجود، حتى ولو كان لا يعجب الناس. ثم إن حضرتك تعرف جيداً أن التمتمات التي تصدر عن العمال ليست إلا قمامة.

فقال كارينيو من ورائها:

- ليست قمامة. زوجة ديميتريو، أقصد ميداردو يانتك، صرحت لنا قبل أن تغادر ناكوس أنها حين رأت زوجها آخر مرة قال لها إنه ذاهب لتناول كأس في حانتكم.

فتدخل ديونيسيو مستيقظاً من جديد:

- ألا يأتي جميع العمال ومراقبي العمال إلى محلنا؟ أين تريدهم أن يذهبوا؟ هل هناك حانة أخرى في ناكوس؟

ـ الحقيقة أنه ليست لدينا اتهامات محددة ضدكما ـ اعترف ليتوما ـ هذا صحيح، لأنهم لا يعرفون إلا جزءاً مما حدث، أو لأنهم خائفون. ولكن إذا ضغطنا عليهم، فسوف يؤكدون جميعهم بأن لكما يداً في هذه الاختفاءات.

ضحكت السيدة أدريانا مرة أخرى ضحكة مريرة ومتحدية. وكشرت تكشيرة غطت كل فمها، مثل تلك التكشيرات التي يشوه بها الكبار وجوههم لتسلية الأطفال. ودمدمت:

ـ أنا لا أدس أفكاراً في رأس أحد. أنا أسحب منهم ما لديهم من أفكار وأضعها أمام أنوفهم. كل ما هناك هو أن أياً من هؤلاء الهنود لا يحب النظر في المرآة.

وعاد ديونيسيو لمقاطعتها، مركّزاً عينيه المائعتين والمتذبذبتين على ليتوما:

ـ وأنا أساعدهم فقط على نسيان أحزانهم بتقديم الشراب لهم. ما الذي سيحلّ بالعمال إذا لم تتوفر لهم حتى حانة ليدفنوا أحزانهم في الكحول.

لمع برق في البعيد ثم تلاه دوي رعد. وظل الأربعة صامتين إلى أن توقف الدوي ولم يبق سوى قرع المطر الأبكم. كان كامل السفح المؤدي إلى المعسكر قد تحول إلى مخاضة وحل حركتها الجداول الكثيرة. ومن خلال الباب الموارب، رأى ليتوما ستائر ماء المطر ووراءها سحابة قاتمة. وكان المعسكر والجبال المحيطة قد اختفت في بقعة رمادية. وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر.

هتف كارينيو فجأة:

ـ هل صحيح هذا الذي يقال عنك بكثرة يا دونيا أدريانا؟ يقال إنك حين كنت شابة قتلتِ بيستاكو مع زوجك الأول، عامل المنجم الذي كان له أنف بهذا الحجم؟

التفتت الساحرة هذه المرة لتنظر إلى الحارس. بقي كل منهما يروز الآخر بصمت لبعض الوقت، وأخيراً رمش توماسيتو وخفض بصره. فهمست دونيا أدريانا بوداعة:

- أعطني يدك يا فتى.

رأى ليتوما الحارس يتراجع وهو يبدأ ابتسامة، ولكنه ما لبث أن اتخذ مظهراً جدياً على الفور. وكان ديونيسيو يتفحصه مستمتعاً وهو يدندن بصوت خافت. وظلت يد أدريانا ممدودة نحوه تنتظر. كان رأسها يبدو من الخلف مثل منفضة ريش مشعثة. استشاره مساعده بعينيه حول ما يجب عليه عمله. فهز ليتوما كتفيه. سمح توماسيتو للمرأة بأن تضع يده مستوية بين يديها. ومطّ العريف رأسه قليلاً. مسحت دونيا أدريانا يد الشرطي ونظفتها ثم قربتها من عينيها الكبيرتين البارزتين؛ فبدا لليتوما أنهما ستخرجان من محجريهما وتتدحرجان على أرض الكوخ. تركها توماسيتو تفعل ذلك وهو شاحب ينظر إليها بارتياب. وفكر ليتوما وقد جمد في مكانه: «يجب عليه أن يطلق لعنة ويضع حداً لهذا التهريج». كان ديونيسيو قد عاد للجوء إلى أحد أحلامه، مغمضاً عينيه، مدندناً بصوت خافت أحد تلك المقاطع التي يدندن بها البغالون لاستبعاد الضجر في مسيراتهم الطويلة. وأخيراً أفلتت الساحرة يد الشرطي وزفرت كما لو أنها بذلت جهداً عظيماً، ثم دمدمت:

- إنها آلام الحب إذن، هذا ما كان يقوله لي وجهك أيها الفتى.

- هذا ما تحزره دائماً كل العرافات في العالم - قال ليتوما -. فلنعد إلى الأمور الجدية يا دونيا أدريانا.

ولكنها واصلت وكأنها لم تسمع ما قاله ليتوما:

- ولك قلب بهذا الحجم. - وباعدت ما بين يديها مقدرة حجم قلب ضخم - يا لها من محظوظة إذ تجد من يحبها هكذا.

حاول ليتوما أن يضحك.

- إنها تسعى إلى تليّنك يا توماسيتو، إياك أن تنقاد لها - قال ذلك مدمدماً. ولكن الحارس لم يضحك. ولم يسمعه أيضاً. كان ينظر مفتوناً إلى المرأة وقد اكتسى وجهه بالجدية. وعادت تمسك يده وتمسحها وتمعن النظر فيها وهي تقرّبها أكثر من عينيها البارزتين، من محجريهما. وكان الخمّار لا يزال يدندن الأغنية نفسها، بصوت متوسط، وهو يهز جسده ويتقافز قليلاً على إيقاع اللحن، غير مبالٍ بكل ما حوله.

- إنه حب جلب عليك المصائب وجعلك تتألم - قالت دونيا أدريانا. قلبك ينزف كل ليلة. ولكن هذا يساعدك على البقاء حياً على الأقل.

لم يعد ليتوما يعرف ماذا يفعل. كان يشعر بالضيق. فهو لا يؤمن بالساحرات، وإيمانه أقل من ذلك بالتقولات والأكاذيب التي تُشاع حول أدريانا في المعسكر وبين أهالي ناكوس، مثل تلك الإشاعة القائلة بأنها هي وزوجها الأول، عامل المنجم، قد قتلا بأيديهما بيستاكو. ولكنه كان يشعر مع ذلك بالاضطراب وعدم التركيز كلما تعلق الأمر بعالم الغيب. أيمكن معرفة سيرة الناس من خطوط أيديهم؟ أو من ورق اللعب؟ أو من أوراق الكوكا؟

وانتهت دونيا أدريانا إلى القول وهي تفلت يد الشرطي:

- ستكون النهاية سعيدة، فلا تيأس. لست أدري متى. ربما عليك أن تتعذب بعض الشيء. إنهم جماعة من الشرهين، ولا يملون من طلب المزيد والمزيد. ولكن ما يسبب لك النزف الآن سينتهي نهاية طيبة.

زفرت مرة أخرى والتفتت إلى ليتوما الذي قال لها:

- هل تحاولين الظرافة معه لننسى المختفين أيتها السيدة؟

فأطلقت الساحرة ضحكتها مرة أخرى:

ـ أنت لن أقرأ لك حظك حتى ولو دفعت لي أجراً أيها العريف.

ـ وأنا لن أسمح لك بذلك أيضاً. ولكن، يا للعنة العاهرة! ماذا أصاب هذا.

كان ديونيسيو الذي تحمس في غيبوبته ورفع صوتَ ترنمه وهو يغمض عينيه قد بدأ يرقص في المكان، بحالة من التركيز الكبير. وعندما أمسكه الشرطي كارينيو من ذراعه وهزه، وقف الخمّار هادئاً وفتح عينيه اللتين مرت فيهما نظرة مذهولة، وكأنه يرى الجميع لأول مرة.

أنبَّه ليتوما:

ـ دعك من دور السكران، لأنك غير مخمور إلى هذا الحد. فلنعد إلى حيث كنا. هل ستقولان لي أخيراً ما الذي جرى لأولئك الرجال؟ وسوف أترككما تذهبان.

فقالت وهي تصلّب عينيها وصوتها:

ـ أنا وزوجي لا نعرف أي شيء. اذهب واستخرج الحقيقة ممن يتهموننا بأننا مختلقا أكاذيب.

ورتل ديونيسيو:

ـ على كل حال، ما حدث قد حدث وليس له علاج أيها السيد العريف. عليك أن تدرك بأنه لا جدوى. فلا تعارض القدر، وانتبه إلى أن ذلك لا طائل منه.

توقف المطر بصورة مفاجئة، وأشرق الفضاء في الخارج بشمس منتصف النهار. وكان بإمكان ليتوما أن يرى قوس قزح يكلل الجبال المحيطة بالمعسكر، فوق حرش أشجار الأوكاليبوتوس. كانت الأرض كلها ممتلئة ببرك وجداول تلمع وتبدو كأنها الزئبق. وهناك في الأفق كانت سلسلة الجبال، حيث تتلامس الصخور والسماء، تلك التلونات الغريبة ما بين البنفسجية والباذنجانية التي

رآها تتكرر بكثرة في تنانير الهنديات، وفي أجربة الصوف التي يعلقها الفلاحون بآذان حيوانات اللاما، وقد كانت في نظره هي تلونات جبال الأنديز نفسها، لون هذه الجبال السرية شديدة العنف. كان كارينيو قد غرق بالتفكير في كلمات الساحرة، وكأنه غائب عن الوعي. طبعاً يا توماسيتو، فقد قالت لك ما كنت تحب سماعه.

ألقت دونيا أدريانا نظرة متفحصة على الكوخ:

- وأين ستحتجزنا؟ هنا؟ هل سننام نحن الأربعة معاً بعضنا فوق بعض؟

- حسن، أعرف أنه ليس لدينا مخفر يليق بمقامك - قال ليتوما -. عليك أن تقنعي بما هو متوفر. فهذا المخفر لا يليق بمستوانا نحن أيضاً، أليس كذلك يا توماسيتو؟

- أجل يا عريفي - تلعثم الشرطي متنبهاً.

- دع ديونيسيو على الأقل يذهب. فمن سيخدم في الحانة إذا لم تتركوه. سوف يسرقون كل شيء، وتلك الأشياء التافهة هي كل ما نملكه.

تفحصها ليتوما مرة أخرى مستسلماً: بدينة، غير محددة المعالم، غارقة في أسمالها العتيقة، وليس فيها سوى عجيزتها البارزة تذكّر العالم بأنها كانت امرأة في أحد الأيام. كانت الساحرة تتكلم دون أدنى تأثر، كما لو أنها تنجز إجراءً شكلياً، مظهرة أنها غير مهتمة في أعماقها بما يمكن أن يحدث لها. وكان ديونيسيو يبدو مع ذلك أكثر استخفافاً بمصيره منها. كان قد عاد إلى إغماض عينيه والانعزال عن العالم. كلاهما كان يبدو كأنه فوق كل هذا. إنهما ما زالا يتشامخان عليه، يا للحياة العاهرة.

وأخيراً قال ليتوما وقد هزمه قنوط مفاجئ:

ـ فلنعقد صفقة. أنتما تتعهدان لي بأنكما لن تغادرا المعسكر. لا تبتعدا عنه ولو لمسافة عشرين متراً. وبهذا الشرط، أسمح لكما بالإقامة في محلكما ريثما ننهي التحريات.

ففتح ديونيسيو عينيه:

ـ وأين سنذهب؟ لو كان باستطاعتنا لكنا غادرنا منذ زمن. أليس أولئك هناك، مختبئين بين الجبال، وحجارتهم جاهزة؟ لقد تحولت ناكوس إلى سجن، وأنتم ونحن سجناء فيها. ألم تلاحظ ذلك حتى الآن أيها السيد العريف؟

نهضت المرأة واقفة بجهد كبير، فأمسكت بزوجها، وخرجا كلاهما من الكوخ دون كلمة وداع للشرطيين. ابتعدا بخطوات قصيرة وهما يبحثان عن موطئ لأقدامهما على الحجارة والآكام حيث الوحل أقل.

ـ لقد تيبستَ بعد الذي قالته لك الساحرة يا توماسيتو.

قدم إليه ليتوما سيجارة. دخنّا وهما يريان شبحي ديونيسيو وأدريانا يتضاءلان ويختفيان.

أطلق ليتوما نفثة دخان:

ـ هل تأثرت بما قالته لك عن أحزان الحب العظيم؟ ياه! الجميع يعانون الشيء نفسه، بعضهم أقل وبعضهم أكثر، أم أنك تظن نفسك الوحيد الذي يعاني من أجل امرأة؟

ـ أنت قلت لي إنك لم تعرف مثل هذا مطلقاً من قبل يا عريفي.

فقال ليتوما وقد أحس بأنه قد تضاءل:

ـ حسن، ولكن كانت لي بعض الغراميات. الفرق الوحيد هو أن غرامياتي كانت تنتهي في مكانها فوراً. وكانت كلها تقريباً مع العاهرات. ففي إحدى المرات، حين كنت في بيورا، وقعت مثل مجنون في حب واحدة سمراء في ذلك البيت الأخضر الذي حدثتك

عنه. ولكنني في الحقيقة لم أصل أبداً إلى تمني الموت من أجل امرأة.

دختّا بصمت لبعض الوقت. وظهر في الأسفل شبح بدأ يصعد على الدرب باتجاه المخفر.

ـ أظننا لن نعرف أبداً ما الذي جرى لهؤلاء الثلاثة يا توماسيتو.

والحقيقة أنه مهما حاول عمال المعسكر جعلنا نفهم أن ديونيسيو ودونيا أدريانا متواطئان في الأمر، إلا أنني لا أستطيع ابتلاع ذلك.

ـ وأنا أيضاً لا أستطيع أن أصدق يا عريفي. ولكن كيف نفسر اتهام جميع العمال لهما.

ـ يمكن تفسير ذلك لأن جميع الجبليين أناس خرافات يؤمنون بالشياطين والبيستاكو والموكي ـ قال ليتوما ـ. وبما أن ديونيسيو وزوجته نصف سحرة فإنهم يربطون بينهما وبين المختفين.

حاول الحارس أن يمزح:

ـ أنا لم أكن أصدق شيئاً من هذا كله حتى الآن. ولكن بعد الذي قرأته دونيا أدريانا في كفي، صار يلائمني أن أصدق. فقصة القلب الكبير هذه التي تحدثت عنها قد أعجبتني.

لقد أصبح بإمكان ليتوما أن يميز الشخص الذي يصعد نحوهما: إنه يعتمر خوذة عامل منجم تعكس أشعة الشمس في الأصيل الذي صار مضيئاً، بسمائه المشرقة الخالية من الغيوم. من الذي يقول إنه كانت هناك قبل قليل خراطيم ماء تنسكب، ورعود، وغيوم سوداء مترهلة؟

وجاراه ليتوما في المزاح:

ـ آه، كراخو، لقد اشترتك الساحرة. ألا تكون أنت من أخفى هؤلاء الثلاثة يا توماسيتو؟

ـ من يدري يا عريفي.

انتهيا إلى الضحك. كانا عصبيين، وكانت ضحكاتهما منافقة. وفي أثناء ذلك، وبينما كان ليتوما يرى الرجل ذا الخوذة وقد اقترب منهما كثيراً، لم يكن يستطيع أن يزيح من رأسه صورة بيدريتو تينوكو، ذلك الأبكم الذي كان ينفذ طلباتهما، وكان ينظف العنابر، والذي رأى بعينيه مجزرة قطيع الفكونا في بامبا غاليراس. منذ أن روى له توماسيتو القصة لم تعد صورة الأبكم تفارقه طوال الوقت تقريباً. لماذا يتذكره دائماً في ذلك المكان، ما بين المتراس وتلك الصخور الرمادية، وهو يغسل الملابس؟ كان الرجل ذو الخوذة يحمل مسدساً على خصره، وعصا مثل رجال الشرطة. ولكنه كان يرتدي ملابس مدنية، بنطال بلوجينز وسترة يظهر سوار أسود فوق ذراعها الأيمن.

- ليس لدي شك في أن كثيرين هنا يعرفون جيداً ما الذي جرى، وإن كانوا غير راغبين في قول كلمة واحدة. المغفلان الوحيدان اللذان ما زالا في القمر هما أنا وأنت. ألا تشعر بالضيق الشديد هنا في ناكوس يا توماسيتو؟

- بل إنني أشعر وكأنني منبوذ. فالجميع يعرفون شيئاً ما بالطبع، حتى وإن كانوا يكذبون ويريدون تحميل خطاياهم للخمّار وزوجته. بل إنني أظن أنهم قد اتفقوا جميعاً على جعلنا نعتقد بأن ديونيسيو ودونيا أدريانا هما المخادعان. وبهذا يضللوننا وينجون من أي مسؤولية. أليس من الأفضل دفن هذه القضية يا عريفي؟

– ليس هناك شيء خاص يشدني إلى كشف ملابساتها يا توماسيتو. أعني فيما يتعلق بالقضية كعمل. ولكنني شديد الفضول. لقد سكنتني سوسة حب معرفة ما حدث. ومنذ أن رويت لي قصة الأبكم والملازم بانكورفو، لن أستطيع النوم إلى أن أعرف الحقيقة.

ـ الناس خائفون. ألم تلاحظ ذلك؟ في الحانة، في مكان العمل، بين فرق العمل. وحتى بين هنود القرية الذين لم يغادروا بعد. الجو متوتر، وكأن شيئاً سيحدث. ربما تكون تلك الإشاعات التي تقول إنهم سيوقفون العمل في مشروع الطريق، وإنهم جميعاً سيبقون بلا عمل. أضف إلى ذلك كل هذه المذابح التي تُقترف في كل مكان. ليست هناك أعصاب قادرة على التحمل. إن الأجواء مشحونة. ألا تشعر بذلك؟

أجل، إن ليتوما يشعر بذلك. فوجوه العمال أصبحت تبدو غارقة في الأفكار، وعيونهم تتلفت ذات اليمين وذات الشمال وكأنها تريد أن تفاجئ عدواً مترصداً، الأحاديث في الحانة وبين العنابر تدور متقطعة، كئيبة، ثم تتوقف فجأة عند حضورهما. أيكون السبب عمليات الاختفاء؟ أم أنهم خائفون لأنَّ أي واحد منهم قد يكون الرابع؟

ـ مساء الخير أيها العريف. ـ قال ذلك الرجل الذي يعتمر الخوذة المنجمية وهو ينحني محيياً. كان خلاسياً طويلاً وقوياً، له ذقن نامية. وكان ينتعل جزمة عامل منجم ذات أرضية عريضة وملوثة بالوحل حتى الكاحلين. حاول تنظيف حذائه قبل أن يدخل إلى الكوخ بضربهِ بقوة بعارضة العتبة، وقال:

ـ أنا آتٍ من «لاسبيرانثا» في طلبك أيها العريف ليتوما.

لاسبيرانثا هو منجم فضة، على مسيرة نحو أربع ساعات، إلى الشرق من ناكوس. ليتوما لم يذهب إلى هناك من قبل، ولكنه يعرف أن عدداً من العمال في معسكر شركة المقاولات هم عمال مسرحون من تلك المؤسسة المنجمية.

ـ الليلة الماضية هاجمنا الإرهابيون وأحدثوا خراباً. ـ أوضح الرجل وهو يخلع خوذته ويهز شعره الطويل المزيت. وكان بنطاله وسترته

مبللين بالعرق: ـ لقد قتلوا واحداً من رجالي وجرحوا آخر. أنا مسؤول الأمن في منجم لاسبيرانثا، لقد استولوا على المتفجرات وعلى الفضة المستخرجة وعلى ألف شيء آخر.

فقال ليتوما معتذراً:

ـ آسف جداً، ولكنني لا أستطيع الذهاب. فنحن اثنان فقط في المخفر، أنا ومساعدي. ولدينا هنا مشكلة جدية يتوجب حلّها. عليّ أن أطلب تعليمات من القيادة في هوانكايو.

ـ لقد فعل المهندسون ذلك ـ رد عليه الرجل باحترام شديد. وأخرج ورقة مطوية من جيبه وقدمها إليه: ـ لقد اتصلوا بجهاز اللاسلكي مع رؤسائك. وجاء الرد من هوانكايو بأنه يجب على حضرتك أن تتولى القضية. فمنجم لاسبيرانثا يقع ضمن منطقتك.

قرأ ليتوما البرقية وأعاد قراءتها دون حماسة. هذا ما كان يقوله دائماً. ففي ذلك المنجم توجد تجهيزات أفضل مما في هذا المعسكر القذر. إنه هنا معزول دون اتصالات، أعمى وأصم عما يحدث في العالم الخارجي. لأن جهاز اللاسلكي الذي في المعسكر متخلف ويعمل بصورة سيئة، أو أنه لا يعمل أبداً. من الذي خطرت له الفكرة السخيفة بإقامة مخفر للحرس الأهلي في ناكوس؟ كان عليهم بالأحرى أن يقيموه في لاسبيرانثا. ولكنهما لو كانا هناك لكان عليه هو وتوماسيتو أن يتصديا للإرهابيين. لقد أصبحوا قريبين جداً إذن. إن الحبل يضغط على العنق أكثر فأكثر.

كان كارينيو قد انهمك بصنع القهوة على موقد البريموس. اسم الرجل القادم من المنجم فرانثيسكو لوبيث. وقد هوى جالساً على جلد الخروف الذي كانت تجلس عليه دونيا أدريانا قبل قليل. لقد بدأت غلاية القهوة تفور.

ـ لم يعد بالإمكان عمل شيء بالطبع ـ قال لوبيث موضحاً ـ. فقد

اختفوا بعد أن حملوا غنيمتهم. ولكن لا بد من التقرير الشرطي مع الشكوى، لكي يعوض التأمين خسائر الشركة.

ملأ توماسيتو فناجين الصفيح بالقهوة الساخنة وقدمها لهما.

ـ إذا أنت رغبت، يمكنني أن أقفز بسرعة إلى المنجم يا عريفي.

ـ لا، سأذهب أنا وحدي. ابق أنت في الموقع هنا. وإذا ما تأخرتُ في العودة، فصلِ «أبانا الذي في السماء» على روحي.

فطمأنه فرانثيسكو لوبيث:

ـ ليس هناك أي خطر أيها العريف. لقد جئت في سيارة الجيب. ولكنني اضطررت إلى تركها هناك حيث ينتهي الطريق. ليس بعيداً جداً، أقل من ساعة إذا مشينا بسرعة. لقد فاجأني وابل المطر فقط. سأعيدك إلى هنا أيضاً بعد أن تنتهي الإجراءات.

فرانثيسكو لوبيث يعمل منذ ثلاث سنوات في منجم لاسبيرانثا، وقد كان عمله في الأمن طوال السنوات الثلاث. كان ذلك هو الهجوم الثاني الذي يتعرضون له. الهجوم الأول وقع قبل ستة أشهر، ولم يسقط ضحايا، ولكنهم استولوا كذلك على متفجرات وملابس ولوازم أخرى وعلى كل محتويات صيدلية المنجم.

وقال المنجمي وهو يرشف القهوة ببطء:

ـ لحسن الحظ أن المهندسين استطاعوا الاختباء. وكذلك فعل أجنبي صديق لهم، هو هناك في زيارة. لقد صعدوا إلى خزان الماء. لو أنهم وجدوهم لكانوا في عداد الموتى الآن. فالمهندسون والإداريون لا ينجون أبداً. وخصوصاً الأجانب بالطبع.

ـ ولا تنس رجال الشرطة ـ قال ليتوما بصوت غائر.

فقال فرانثيسكو لوبيث مازحاً:

ـ لم أذكرهم حتى لا أخيفك. ولكنهم لا يفعلون شيئاً ضد العمال بالمقابل، اللهم إلا من يعتبرونهم من الصُفر.

كان يتكلم بأقصى ما يمكن من التلقائية، كما لو أن حدوث تلك الأمور أمر طبيعي، وكما لو أنها تحدث منذ الأزل. ربما كان محقاً، يا للعنة.

ـ بسبب كل هذه الأحداث، هناك من يتكلم عن إمكانية إغلاق منجم لاسبيرانثا. ـ أضاف لوبيث وهو ينفخ على الفنجان ويتناول رشفة أخرى: ـ المهندسون لا يريدون التخلي عن المنجم. والأتاوات الثورية ترفع الكلفة كثيراً.

ـ إذا كانوا يدفعون أتاوات، فلماذا يهاجمونهم؟ ـ قال ليتوما.

فوافق فرانثيسكو لوبيث:

ـ هذا ما نسأله جميعنا. ليس هناك منطق.

واصل النفخ على الفنجان وشرب القهوة في رشفات صغيرة، وكأن تلك المحادثة هي أيضاً من أكثر الأمور طبيعية في الدنيا.

❖ ❖ ❖

كان يمكن لامتلاك شعر بلون القش وعينين زرقاوين مائعتين أن يشكل كابوساً لكاسيميرو هواركايو في طفولته. لأن الجميع في قرية ياولي الأنديزية، حيث ولد، كانوا سمر البشرة، ولأن أبويه وأخوته كانوا سود الشعور وسمر الوجوه ولهم عيون سوداء. من أين خرج هذا الأمهق في الأسرة؟ سخريات زملائه في المدرسة العامة جعلت كاسيميرو يخوض مشاجرات في أحيان كثيرة. فعلى الرغم من طيب طباعه، كان الخردل يصعد إلى رأسه كلما لحقوا به ليستثيروا غضبه بالقول له إن أباه ليس أباه، وإنما أبوه هو غريب مرّ من ياولي أو إنه الشيطان نفسه حين يأتي لاقتراف شروره على الأرض، كما هو معروف في الأنديز، يتقمص أحياناً شخصية غريب له مظهر غرينغو أعرج.

لقد كان فكر كاسيميرو مشغولاً على الدوام كذلك في ما إذا كان أبوه نفسه، صانع الفخّار أبوليناريو هواركايا، لا تراوده الشكوك أيضاً حول أصله. لأنه كان متأكداً من أنه هو نفسه كان مصدر الخلافات بين أبويه، ولأن أباه أبوليناريو الذي كان يحسن معاملة أخوته وأخواته الآخرين، كان يتعمد تكليفه بأقسى الأعمال، ويحطم عظامه بالمقرعة عند اقترافه أدنى هفوة.

ولكن، على الرغم من سخريات رفاقه وسوء علاقته بأسرته، فقد ترعرع كاسيميرو دون عُقد، قوياً وماهر اليدين، متيقظاً ومحباً للحياة. ومنذ بلوغه سن الرشد صار يحلم بأن يكبر بسرعة ليغادر ياولي ويذهب إلى مدينة كبيرة، مثل هوانكايو أو بامباس أو أياكوتشو، حيث لا يجتذب فضول الناس كثيراً بشعره الذي بلون القش وعينيه الزرقاوين.

وقبل إتمامه الخامسة عشرة بقليل هرب من قريته مع تاجر جوال اعتاد الفتى أن يساعده كلما جاء إلى ياولي، فقد كان يعاون التاجر في إنزال بضاعته وتحميلها، وفي بيعها في السوق. وكانت لدى التاجر دون بيركلس تشالهوانكا شاحنة صغيرة من سنة نوح، مرقعة ومعادة الترقيع ألف مرة، وكان يجوب فيها كل قرى وضياع الفلاحين في وسط البلاد، يبيع منتجات المدن ـ أدوية، أدوات فلاحة، ملابس، أدوات مطبخية، أحذية ـ ويشتري الجبن والفول والفواكه والمنسوجات التي يحملها بعد ذلك ليبيعها في المدن. وإضافة إلى عمله التجاري، كان بيركلس ميكانيكياً ماهراً، وقد تعلم كاسيميرو إلى جانبه أن يعرف عن ظهر قلب كل أسرار الشاحنة وإصلاحها في كل مرة تتعطل فيها على الدروب الجبلية المريعة، وقد كانت تتعطل عدة مرات في كل رحلة.

لقد كان سعيداً تماماً إلى جانب بيركلس. فقد كان التاجر

العجوز يبهره برواية قصة حياته المغامرة، وسلوكه كديك متمادٍ في فناء الآخرين، مع نساء يغويهن ويحبّلهن ويهجرهن في أقاليم وأقضية أبوريماك وهو انكافيليكا وأياكوتشو وكوسكو وثيرر دي باسكو، وهي مناطق كان يتباهى بأنه «زرعها بأبناء وبنات زنا من صلبه». وقد كان في أثناء جولاتهما يدل كاسيميرو على بعض أولئك الأبناء بغمزة خبيثة. وكان كثيرون منهم يحيون التاجر باحترام، ويقبلون يده ويدعونه «عرابهم».

ولكن أكثر ما كان يروق الفتى هو حياة التنقل التي كان يعيشها دون مواعيد أو اتجاهات محددة سلفاً، خاضعاً لقسوة المناخ أو رحمته، ولمواعيد مهرجانات أو احتفالات بأعياد القديسين شفيعي القرى، ولإيصال الطلبات التي يتلقيانها، ولتوعكات الشاحنة، وهي العوامل التي كانت تقرر مصيرهما اليومي، وخط سيرهما، وعدد الليالي التي سيقضيانها في كل مكان. لقد كان لدون بيركلس بيت ريفي ثابت ودون عجلات، في بامباس، وكان يتقاسمه مع ابنة أخ له وأولادها. وحين يكون هناك، يقيم كاسيميرو معهم في البيت وكأنه واحد من أفراد الأسرة. ولكنه كان يقضي معظم الوقت في الشاحنة، حيث أقام ملجأ من جلود البقر ما بين أكداس البضائع المحملة والمحمية بشادر سميك. فإذا هطل المطر، كان ينام في قمرة القيادة أو تحت الشاحنة.

لم يكن ذلك العمل التجاري كبير المردود، بالنسبة لبيركلس وكاسيميرو على الأقل، فكل الأرباح كانت تلتهمها الشاحنة التي لا بد على الدوام من شراء قطع الغيار لها واستبدال إطاراتها، ولكنها كانت تؤمن لهما ما يكفيهما للعيش. وفي السنوات التي أمضاها إلى جانب دون بيركلس، توصل كاسيميرو إلى معرفة كل الأنديز الأوسط مثلما يعرف راحة يده، دساكره، قراه، مهرجاناته،

وهاده، وديانه. كما تعرّف فـي الوقت نفسه على كل أسرار التجارة: أين يمكن شراء أفضل أنواع الذرة، وإلى أين يجب أخذ الخيطان والإبر، وأن ينتظر الأهالي المصابيح والأقمشة القطنية مثل مَنٍّ السماء، وأي الشرائط والمشابك والعقود والأساور تجتذب جشع الفتيات بصورة لا تُقاوم.

عامله دون بيركلس أول الأمر كمتمرن، ثم كابن له، وصار يعامله أخيراً كشريك. وكلما كان دون بيركلس يهرم، كان الفتى يزداد رجولة، وراح ثقل العمل ينتقل إليه، إلى أن تحول دون بيركلس مع مرور السنوات إلى مجرد مدير فني للشركة، وصار كاسيميرو هو الوحيد الذي يقود الشاحنة ويقرر صفقات الشراء والبيع.

وعندما أصيب الشيخ بجلطة دماغية أدت إلى شلله وأفقدته القدرة على النطق، شاء حسن الطالع أن يكونا فـي بامباس. وهكذا استطاعوا نقله إلى المستشفى وإنقاذه من الموت. ولكن دون بيركلس لم يعد يستطيع بعدها العودة إلى السفر، وكان على كاسيميرو أن يقوم بالرحلات وحده منذ ذلك الحين، وواظب على ذلك لوقت طويل فـي السيارة الخالدة، إلى أن اضطر إلى الاستقالة فـي أحد الأيام، لأن ابنة أخ بيركلس وأحفاده طالبوه، إذ كان يريد مواصلة استخدام السيارة، بدفع مبلغ يفوق الإمكانيات الواقعية. فسلمهم الشاحنة، ولكنه واظب على زيارتهم بانتظام وحمل بعض الهدايا إليهم كلما جاء إلى بامباس إلى أن توفـي دون بيركلس، وكان قد أصبح فـي ذلك الحين سيد وصاحب تجارته، لقد كان شاباً قوياً عركته الحياة، له أصدقاء فـي كل مكان، وكان مرحاً ومحباً للعمل. فقد كان بإمكانه قضاء الليل فـي شرب الخمر والرقص فـي مهرجانات القرى، والرد بإجابات ذكية على تعليقات السكارى الساخرة من شعره الأصفر، ولكنه كان يعرض بضاعته فـي صباح اليوم التالي قبل أي

تاجر آخر. وكان قد استبدل الشاحنة بشاحنة أخرى مستعملة اشتراها من مزارع في هوانكايو، وكان يدفع له الأقساط الشهرية بانتظام.

في إحدى المرات، وبينما كان يبيع شرائط وأقراطاً في ضيعة صغيرة في انداهوايلاس، رأى فتاة يبدو عليها أنها تنتظر لتكلمه على انفراد. كانت شابة لها جديلتان، ووجه نضر، وبها ذعر متهيب مثل حيوان صغير. بدا له أنه قد رآها من قبل. وحين ظل وحيداً دون زبائن، اقتربت الفتاة من درجة الشاحنة حيث كان يجلس كاسيميرو.

ـ إنني أعرف ـ قال لها ضاحكاً ـ. أنت تريدين أحد هذه الأقراط ولكنك لا تملكين نقوداً.

فنفت بحركة من رأسها وهي مضطربة.

ـ لقد تركتني حبلى يا باباي ـ تلعثمت يالكيتشوا بصوت خافت ـ. ألا تذكرني؟

وفي ضباب ذهنه، تذكر كاسيميرو شيئاً. أتكون هذه هي الصبية التي صعدت إلى سيارته في عيد الملاك جبرائيل؟ ولكنه كان قد شرب الكثير من التشيتشا في ذلك اليوم، وهو غير واثق من أن هذا الوجه هو ذلك الوجه الغائم في ذاكرته.

ـ ومن يؤكد أنني أنا من فعل ذلك ـ أجابها باستهتار ـ. فكم من الرجال ضاجعت في تلك الاحتفالات. أو تظنين أنك ستقيدينني؟ وأنني سأتولى مسؤولية طفل لا يعرف أباه إلا الله؟

لم يستطع مواصلة الصراخ بها لأن الفتاة ذهبت مهرولة. وتذكر كاسيميرو أن نصيحة بيركلس، في مثل هذه الحالات، هي الجلوس وراء مقود الشاحنة والابتعاد. ولكنه بعد بضع ساعات من ذلك، عندما أقفل تجارته، بدأ يتجول من مكان لآخر في القرية باحثاً عن الفتاة.

وجدها على الطريق، عند مخرج القرية، بين أشجار صفصاف

وصخب المرح المختلط بنقيق الضفادع. كانت عائدة إلى بيتها وهي غاضبة جداً. وأخيراً استطاع هواركايا تهدئتها، وأقنعها بالصعود إلى الشاحنة وأوصلها إلى مقربة من الدسكرة التي تعيش فيها. واساها كيفما استطاع وأعطاها بعض النقود وهو ينصحها بأن تجد واحدة من أولئك القابلات اللواتي يمارسن الإجهاض أيضاً. وكانت هي تومئ موافقة بعينيها المخضلتين. كان اسمها اسونتا، وعندما سألها عن عمرها قالت ثمانية عشر عاماً، ولكنه قدر أنها تزيد من عمرها.

رجع إلى هناك بعد شهر من ذلك، وسأل، ووصل إلى بيت الفتاة. كانت تعيش مع أبويها وسحابة من الأخوة الذين استقبلوه بارتياب. فأبوها الذي يملك قطعة أرض خاصة يزرعها في القرية، كان مسؤولاً كذلك عن الاحتفالات. وكان يفهم الإسبانية، مع أنه كان يرد على أسئلة كاسيميرو بالكيتشوا. لم تكن أسونتا قد وجدت من يقدم لها ذلك النقيع من أجل الإجهاض، ولكنها طلبت من كاسيميرو ألا يقلق، لأن عرابيها يعيشان في دسكرة مجاورة، وقد قالا لها إنها تستطيع العيش معهما إذا طُردت من البيت بعد إنجابها الوليد. كانت تبدو قانعة بما حدث، وحين ودّعها كاسيميرو أهدى إليها حذاء ذا كعب متوسط وشالاً مزركشاً، فشكرته على ذلك بتقبيل يده.

وعندما مرّ من القرية في المرة التالية، لم يجد أسونتا هناك، ورفضت الأسرة أن تخبره بمكانها. وقد استقبله الأب بجفاء أكبر من المرة السابقة، وقال له بكل وضوح ألا يرجع إلى هناك. لم يكن أحد يعرف، أو لم يشأ أحد أن يخبره بالمكان الذي يعيش فيه عرابا أسونتا وقال كاسيميرو لنفسه إنه قد فعل كل ما باستطاعته من أجل الفتاة، إنه يجب ألا يشعر بمزيد من الأرق من أجلها. وإنه إذا التقى بها ثانية فسوف يساعدها.

ولكن حياته لم تعد إلى ما كانت عليه، وسرعان ما تبدلت

الأحوال في تلك الدروب، وتلك الجبال، وتلك الضياع التي أمضى سنوات طويلة يجوبها مع دون بيركلس، ثم بمفرده، دون أن يشعر بأي خطر أكبر من انفجار إحدى العجلات أو انقلاب الشاحنة على تلك الدروب السيئة، فقد بدأ العنف يزداد هناك أكثر فأكثر. صار كاسيميرو يرى في طريقه أبراج خطوط كهربائية منسوفة بالديناميت، وجسوراً مدمرة، ودروباً مسدودة بالصخور والجذوع، وكتاباتٍ متوعدة وخرقاً حمراء معلقة على الجبال. وصار يقابل جماعات يتوجب عليه دائماً أن يقدم لها شيئاً مما معه: ملابس، مؤن، سكاكين ومناجل متشيتي. وبدأت تظهر كذلك على الدروب دوريات السينتشيس[1] والجنود. فكانوا يتفحصون أوراقه ويسلبون ما في شاحنته، مثلما يفعل المتمردون. وكان الناس في القرى يشكون من التعسف والسرقات والمجازر، وبدأت عمليات نزوح حقيقية في بعض المناطق. فأسر وقرى بأكملها كانت تهجر أراضيها وبيوتها ومواشيها وتتوجه نحو مدن الساحل.

صارت تجارته لا تكاد تكفيه للعيش إلا بمشقة، ثم انتبه في أحد الأيام إلى أنه صار يخسر. لماذا كان يواصل الترحال والشراء والبيع؟ ربما لأنه أقنع نفسه بأنه قد يلتقي هكذا بأسونتا يوماً. وتحول الأمر من تحد وتمضية وقت إلى فكرة متسلطة على عقله. لقد سأل عنها كثيراً حيثما ذهب، حتى ظنه الناس مخبولاً وصاروا يستمتعون بتقديم معلومات مزيفة إليه وإعطائه أخباراً خيالية عنها.

لقد رجع مرتين أخريين إلى قريتها، محاولاً الحصول من أسرتها على أخبار عن وجودها. فشتمه أبوها وقذفه بالحجارة. ولكن إحدى شقيقات أسونتا اعترضته في الطريق وأخبرته بأن عرابي الفتاة

[1] السينتشيس: منظمات مدنية مسلحة في منطقة الطوارئ، تتعاون مع الجيش في حربه ضد الدرب المضيء.

يعيشان في انداهوايلاس وأن كنيتهما غاليرغو. ومع ذلك، لم يستطع أحد في انداهوايلاس أن يفيده بأي شيء عن أسرة بهذا الاسم. وعندما ذهب في المرة الثانية إلى بيت أسونتا كان أبوها قد توفي، وكانت أمها وأخوتها قد انتقلوا مع أسرٍ قروية أخرى إلى أيكا. فقد وقعت مجزرة في المنطقة، وصار الجميع يرتابون من بعضهم البعض.

لماذا يبحث عن أسونتا بكل هذا الإصرار؟ كان يسأل نفسه ذلك السؤال ولا يجد له جواباً. أهو يفعل ذلك من أجل الابن أو الابنة الذي سيكون في نحو الثالثة من عمره؟ ومع أنه لم يعد يؤمن كثيراً بوهم العثور عليها، فقد واصل السؤال عنها هنا وهناك، وكأنه يمارس شعيرة دينية، وهو يعلم أنه لن يتلقى سوى الردود النافية. قد تكون ذهبت إلى ليما، مثل الكثيرات من فتيات سلسلة الجبال. ولا بد أنها تعمل هناك خادمة في أحد البيوت، أو عاملة، أو ربما تكون قد تزوجت وصار لابنه أو ابنته أخوة آخرون.

كان قد انقضى زمن طويل، وكان تفكير كاسيميرو في أسونتا يتناقص شيئاً فشيئاً عندما وصل إلى قرية أركا، إلى الجنوب من أياكوتشو في إحدى ليالي السُّكر العام ـ وكانت تلك هي بداية الاحتفالات في القرية ـ. ولدى خروجه من النزل الذي تناول فيه طعامه، وجد نفسه محاطاً بجماعة معادية من رجال ونساء يشتمونه ويشيرون إلى شعره قائلين له: «ناكاك»، «بيستاكو». كانوا ثملين جداً بحيث لا يمكنه إعادتهم إلى رشدهم بتوضيحه لهم أنه ليس جميع الرجال الذي شاء سوء الطالع أن تكون لهم شعور بيضاء يمضون في العالم بحثاً عن ضحايا بشرية ليأخذوا شحمها، واختار بدلاً من ذلك الصعود إلى شاحنته. ولكنهم لم يسمحوا له بالانطلاق فيها. كانوا خائفين وغاضبين ويحرضون بعضهم بعضاً.

أخرجوه بالقوة من قمرة الشاحنة وبدؤوا يضربونه، دون أن يضغوا لشروحاته. وحين ظن أنه لم يعد أمامه مهرب، سمع صوت إطلاق نار، رأى رجالاً ونساء مسلحين، وبدأ الطوق المعادي يتراجع من حوله. ومن الأرض التي كان مطروحاً عليها، وبينما هو ذاهل من الضرب الذي تلقاه، سمع كاسيميرو أصوات منقذيه. كانوا يشرحون للحشد الذي انتزعوه من بين أيديهم بأنه يجب عدم الإيمان بالبيستاكو، وأنها مجرد خرافات، ومعتقدات ظلامية أدخلها الأعداء في وعي الشعب.

عندئذ تعرف على أسونتا بينهم. لم يراوده أدنى شك. فبالرغم من قلة الضوء ومن ذهول ذهنه، إلا أنه لم يرتب ولو لثانية واحدة. إنها هي. الشيء الوحيد الذي تبدل فيها وهو أنه لم تعد لها جدائل، وإنما شعر قصير كالرجال. وبدلاً من التنورة، كانت ترتدي بلوجينز وحذاء رياضياً. وكانت تحمل بندقية على كتفها. وقد تعرفت هي عليه أيضاً كما يبدو، لم ترد على تحيته حين أومأ لها بيده، ولا على ابتسامته التي وجهها إليها. فقد كانت تشرح الآن للرجال والنساء المسلحين الآخرين المحيطين به، بأن هذا الرجل الأمهق، كاسيميرو وهواركايا، كان قد اغتصبها قبل خمس سنوات، منتهزاً فرصة الاحتفالات في قرية أخرى، وأنه قد تركها حُبلى، وأنها حين ذهبت لتخبره بذلك، عاملها وكأنها مومس، أو أقل من ذلك بقليل. ثم تكرم أخيراً مثل من يلقي عظمة لكلب، بإعطائها نقوداً لعملية الإجهاض. لقد كانت أسونتا، ولكنها لم تكن أسونتا. فقد كان كاسيميرو على الأقل يجد صعوبة كبيرة في المطابقة بين تلك الفتاة الخجولة التي كانت تُقبّل يده، وهذه المرأة الباردة، الجدية، التعليمية، التي تروي هذه الأمور الحميمة بصوت عالٍ، وكأنها تتحدث عن امرأة أخرى.

حاول أن يقول لها أنه أمضى كل الوقت في البحث عنها. حاول

أن يسألها عما جرى لذلك الابن الذي كان ينتظره، وإذا ما كان قد ولد أمهق مثله. ولكن صوته لم يخرج. أما هم فقد تحدثوا طويلاً فيما بينهم، تبادلوا الآراء بالإسبانية والكيتشوا. ثم وجهوا إليه أسئلة لم يستطع الإجابة عنها. وعندما رأى أنهم قد اتخذوا القرار حول مصيره، راوده إحساس بعدم الواقعية. فها هي ذي أمامه إذن المرأة التي بحث عنها لسنوات. كانت تدنو منه وبندقيتها مصوبة إلى رأسه. وكان كاسيميرو واثقاً من أن يدها لن ترتعش وهي تطلق النار.

❖ ❖ ❖

كانت ميرثيدس تقول:

ـ حارس أهلي! حارس أهلي! آخر ما كان يخطر على بالي هو أن تكون شرطياً من هؤلاء الذين يوجهون حركة المرور.

ـ أعرف أن مستواك قد انخفض معي ـ ردّ الفتى ـ. ولكن لا تقلقي، فمع امرأة مثلك إلى جانبي سأصل بعيداً جداً.

ـ إذا رأيتك يوماً بزي الحرس الأهلي فسأموت خجلاً ـ قالت له.

ـ لماذا لديها هذا التصور السيء عنا؟ ـ زمجر ليتوما عندئذ.

ـ وماذا سيكون السبب ـ تنهد توماسيتو ـ. إنه الراتب البائس الذي نتقاضاه.

كانا قد غادرا هوانوكو قرابة الساعة السادسة، متأخرين ساعة عن الموعد المحدد، واحتلا المقعدين الأماميين، إلى جوار السائق، في سيارة الدودج العتيقة. وفي المقعد الخلفي كان هناك أربعة ركاب آخرين، بينهم سيدة تئن قائلة «يا يسوع» مع كل مطب في الطريق. كان السائق يضع قبعة غاطسة في رأسه حتى أذنيه ولفاعاً يغطي فمه، بحيث لم يكن تمييز وجهه ممكناً تقريباً. وكان يشعل المذياع بأعلى صوته، وهكذا فإن ما كان يقوله كل من كارينيو وميرثيدس في أذن الآخر، لم يكن يسمعه الآخرون.

وكلما صعدت السيارة الجماعية سلسلة الجبال أكثر كان صوت المذياع يزداد تشوشاً ويطغى على الموسيقى صفير وأزيز.

علق ليتوما:

- كنتما متلاصقين جداً، وقد انتهزتَ أنت الفرصة لتلمسها.

- إنك تكلمني لتجد ذريعة وتقبّل عنقي. - قالت له وهي تلصق فمها بأذنه أيضاً.

فهمس وهو يفرك شفتيه ببطء في محيط أذنها:

- وهل يزعجك ذلك؟

- إنك تدغدغني - قالت -. لا بد أن السائق يظنني مخبولة تضحك طوال الوقت.

وعاد كارينيو إلى تقبيلها:

- لأن الحب بالنسبة إليك ليس أمراً جدياً.

- عاهدني بألا ترتدي أبداً ومدى الحياة زي الشرطي - قالت ميرثيدس -. على الأقل حين نكون معاً.

- أعدك بكل ما تطلبين - قال الفتى مفرطاً في العذوبة.

- وها أنت ترى - تنهد ليتوما -، لقد عدتَ إلى ارتداء الزي، وأنت هنا لا تستطيع حتى أن تخلعه. فسوف تموت وأنت تنتعل جزمتك يا توماسيتو. أرأيت مثل هذا الفيلم؟

كان كارينيو يضع يده على كتفها ويحاول أن يخفف بجسده الاهتزازات التي تسببها سيارة الدودج لميرثيدس. كان الظلام يتقدم بسرعة، والجو يبدأ بالبرودة. وكانا يرتديان الكنزتين المصنوعتين من وبر الألبكة اللتين اشترياهما من هوانوكو، ولكن زجاج إحدى نوافذ السيارة كان مشروخاً، وكان ينفذ من الشرخ هواء جليدي. انتهى الأمر بالسائق إلى إقفال المذياع لأنه لم يعد بالإمكان سماع شيء. وقال للركاب بصوت قوي من وراء لفاعه:

ـ لا تظنوا من كلامي أن شيئاً سيحدث. ولكن واجبي يحتم عليّ أن أخبركم. هنالك عمليات سطو كثيرة تحدث على هذا الطريق في الآونة الأخيرة.

ولم يعلق أي من الركاب بشيء، ولكن الجو في السيارة ازداد كثافة، وكأنه حليب قد تخثر. وأحس كارينيو بأن ميرثيدس قد تجمدت.

ـ والاحتمال الأكبر هو أن يقتلونا معاً ونحن بالزي الشرطي يا توماسيتو. ألا تتعب أحياناً من انتظارهم؟ ألا تفكر أحياناً: «فليأتوا دفعة واحدة ولتنته حرب الأعصاب هذه؟».

ـ وما الذي يعنيه هذا؟ ـ سألت أخيراً من المقعد الخلفي المرأة ذات الأدعية، وأضافت: ـ هل تريد أن تقول إننا في خطر؟

ـ آمل أن لا ـ ردّ السائق ـ ولكن من واجبي تحذيركم.

ـ وما الذي علينا عمله في هذه الحالة؟ ـ سأله راكب آخر.

فقال السائق ناصحاً:

ـ أفضل ما يمكن عمله في هذه الحالة هو عدم التذمر كثيراً. هذه هي نصيحتي على الأقل. فمن يقومون بالسطو يكونون مسلحين وأيديهم على الزناد.

فقالت المرأة بسخط:

ـ أي أنه علينا أن نعطيهم كل ما نملكه مثل خراف وديعة. حتى لو بقينا بيد من أمام وأخرى من وراء، يا لهذه النصيحة اللعينة.

قال السائق:

ـ إذا أردت أن تُظهري لهم بطولتك، فهذا عائد لك يا سيدتي. أنا قلت لكم رأيي.

ـ إنك تخيف الركاب ـ تدخل كارينيو ـ فالنصيحة شيء وإخافة الناس شيء آخر.

أمال السائق رأسه قليلاً ليراه، وقال مؤكداً:

ـ ليست المسألة أنني أريد تخويف أحد. كل ما هنالك أنني تعرضت للسطو ثلاث مرات، وفي المرة الأخيرة هشموا ركبتي.

ساد صمت طويل كان يتخلله شخير المحرك وتشنجاته والأصوات المعدنية لهيكل السيارة وهي ترتج في مطبات الطريق وأحجاره.

علق راكب لم يكن قد تكلم حتى الآن:

ـ لست أدري ما الذي يدفعك إذن إلى القيام بهذا العمل الخطر.

ـ إنه السبب نفسه الذي يدفعكم لأن تسافروا إلى ليمابراً وأنتم تعلمون أن ذلك خطر... إنها الحاجة ـ قال السائق.

وهمست ميرثيدس في أذن الفتى:

ـ ملعونة الساعة التي جئت فيها إلى تنغو ماريا، ملعونة الساعة التي قبلت فيها دعوة ذلك الغبي. كانت أحوالي جيدة، لدي ما يكفي لشراء الملابس، وكنت ألهو وأنعم بالاستقلال وأنا أعمل في استعراض الباثيلون. أما الآن، فأنا مطاردة وبمرافقة حارس أهلي.

ـ إنه قدرك ـ وعاد الفتى إلى تقبيل أذنها، وأحس أنها ترتعش ـ. والآن سيبدأ أفضل جزء من حياتِكِ، حتى لو لم تصدّقي ذلك، أتعرفين السبب؟ لأننا معاً. وهل تريدين أن أخبرك شيئاً آخر؟

ـ وأنا ما زلت أنتظر حدوث أشياء قوية، مداعبات، مضاجعات تعزيني في هذا الصيام الاضطراري، بينما أنت تسترسل في الرومانسية، لا أمل في شفائك يا توماسيتو ـ قال ليتوما متذمراً.

ـ ما هو؟ ـ همست ميرثيدس.

ـ سنبقى معاً إلى أن يفرقنا الموت. ـ قال لها كارينيو ذلك وهو يعض حافة أذنها، فضحكت ميرثيدس بقوة.

ـ ألستما في رحلة زفاف؟ ـ قال لهما السائق وهو يلتفت إليهما.

ـ لقد تزوجنا للتو. كيف حزرت ذلك؟ ـ أكد كارينيو على الفور.

ـ إنها حاستي السادسة. ـ ضحك السائق ـ وبسبب القبلات الكثيرة التي تتبادلانها.

وضحك أحدهم في المقعد الخلفي ودمدم أحد الركاب «مبروك للعروسين» فجذب كارينيو ميرثيدس إليه وقبّلها وهو يهمس لها:

ـ لقد صرت امرأتي أمام الجميع. لم يعد بإمكانك الإفلات مني إلى الأبد.

فهمست هي:

ـ إذا واصلت دغدغتي فسوف أستبدل مقعدي. لقد بدأت أبول من الضحك.

وجأر ليتوما وهو يهز سريره العسكري:

ـ إنني مستعد لأن أدفع أي شيء مقابل أن أرى أنثى تبول. لم يخطر لي مثل هذا من قبل، يا للعنة. وها أنت تستثيرني الآن بذلك، وليس هناك نساء على مدى النظر.

ـ سيكون عليكِ أن تركبي في حقيبة السيارة ـ قال لها كارينيو ـ سأمنحك الآن استراحة. عشر دقائق دون قبلات. يمكنك أن تنامي على كتفي مثلما فعلت في الشاحنة. وسأوقظك إذا تعرضنا للسطو.

ـ لقد صارت القصة تحلو بهذا الذي قالته عن التبول، وها أنت تطلب منها أن تنام، آه، يا للكارثة ـ احتج ليتوما.

ـ كم أنت ظريف أيها الشرطي الصغير ـ قالت وهي تستند إلى كتفه.

ـ لن يستطيع أحد تعكير شهر عسلنا ـ قال الفتى.

كان الطريق مقفراً، وبين وقت وآخر كانت تعبر شاحنة ضخمة تجبر سيارة الدودج على الخروج عن الطريق. لم تكن هناك أمطار، ولكن السماء كانت ملبدة بالغيوم، وبدلاً من النجوم كان هناك

بريق خافت ينبعث من محيط بعض السحب الرصاصية ومن الأفق ذي القمم والذرى الثلجية. وراح كارينيو يغفو.

- أيقظني وميض جَرَّح عينيَّ وصوت يقول: «وثائقكم» - هكذا واصل الشرطي رواية قصته: - فتلمستُ خاصرتي وأنا أصارع البلبلة، فوجدت المسدس في مكانه.

- سنعود إلى رعاة البقر - علق ليتوما -. وكم شخصاً قتلت هذه المرة.

كانت ميرثيدس تفرك عينيها، وتحرك رأسها من جانب إلى آخر. وكان السائق يمد وثائق هويات الركاب إلى رجل يحمل مسدساً رشاشاً ونصف رأسه داخل السيارة. ورأى كارينيو كوخاً مضاء بمصباح، وشعاراً، ورجلاً متدثراً بعباءة بونتشو يحمل مسدساً رشاشاً معلقاً بكتفه وهو يفرك يديه. وكانت هناك سلسلة حديدية موضوعة فوق برميلين تسد الطريق. ولم تكن في محيط المكان أي أضواء أو بيوت، وإنما الجبال وحدها.

- انتظروا لحظة. - قال الرجل ذلك وهو يمضي نحو الكوخ حاملاً الوثائق في يده.

واعترف السائق ملتفتاً إلى الركاب:

- لست أدري أي ذبابة لدغتهم. فهؤلاء عادة لا يوقفون السيارات أبداً، وخاصة في مثل هذا الوقت.

وعلى الضوء الهزيل في الموقع، كان أحد الشرطيين يتفحص بطاقات الهوية واحدة واحدة. كان يقربها من عينيه وكأنه مصاب بقصر النظر. بينما واصل الآخر فرك يديه.

دمدمت السيدة التي في المقعد الخلفي:

- لا بد أن الطقس جليدي هناك في الخارج.

- انتظري حتى نصل إلى البونا لتعرفي ما هو البرد - حذرها السائق.

ظلوا صامتين لبعض الوقت، يستمعون إلى صفير الريح. وكان

الشرطيان يتبادلان الحديث الآن، ويعرض من حمل الوثائق ورقةً على زميله ويشير إلى سيارة الدودج.

ـ إذا حدث لي أي شيء، واصلي أنت الرحلة. ـ قال الفتى ذلك لميرثيدس، وقبّل أذنها وهو يرى الشرطيين يقتربان من السيارة، أحدهما وراء الآخر.

قال الرجل وهو يدس رأسه داخل السيارة من جديد:

ـ ميرثيدس تريلليس.

ـ أهذه هي كنية بيورانيتك؟ ـ سأله ليتوما ـ لا بد أن تكون قريبة أحد معارفي. البطوط تريلليس. كانت له دكان لتصليح الأحذية قرب السينما البلدية، وكان يأكل تشيفليس[1] دائماً.

ـ أنا هي.

ـ تعالي لحظة، من أجل التحقق من أمر.

أعاد إلى السائق بقية الوثائق ليوزعها على الركاب، وانتظر أن ينزل كارينيو من السيارة كي تتمكن المرأة من النزول. كان الشرطي الآخر قد أمسك الآن مسدسه الرشاش بيديه وبقي على بعد متر عن السيارة.

قال توماس للعريف:

ـ لم يكن يبدو على أي من الشرطيين أن المسألة على جانب من الأهمية. كانا يبدوان ضجرين، مجرد أمر روتيني. وربما كان استدعاؤها مجرد صدفة محضة. ولكنني لم أكن أستطيع المجازفة حين يكون الأمر متعلقاً بها.

ـ طبعاً، طبعاً ـ قال ليتوما ساخراً ـ فأنت من أولئك الذين يقتلون القتيل ثم يسألونه بعد ذلك عن اسمه.

ابتعدت ميرثيدس وهي تمشي ببطء نحو الكوخ، يتبعها ذاك

[1] تشيفليس (Chifles): شرائح من الموز الأخضر مقلية بالزبدة.

الذي كان قد تفحص وثائقهم. بقي كارينيو واقفاً إلى جانب باب الدودج المفتوح، وكان يبتسم بمبالغة للشرطي الذي ظل يحرس السيارة، بالرغم من أن هذا لم يكن بإمكانه رؤية ابتسامته.

ـ كيف لا تموتون من البرد هنا أيها الرئيس؟ ـ دمدم وهو يفرك ذراعيه بصورة لافتة للنظر ويقول «برررر»، ثم أضاف: ـ على أي ارتفاع نحن هنا؟

ـ ثلاثة آلاف ومئتان فقط.

أخرج الفتى علبة سجائره ووضع سيجارة في فمه. وكان سيعيد العلبة إلى جيبه، ولكن كما لو أنه يتذكر، مدها إلى الشرطي: «أترغب في التدخين؟». في الوقت نفسه، ودون أن ينتظر جواباً، تقدم خطوتين نحوه.

لم يشعر الشرطي بأي خطر على الإطلاق. تناول سيجارة ووضعها في فمه دون أن يشكره.

ـ هذا الرجل مغفل كشرطي. فحتى أنا، المغفل أيضاً، كنت سآخذ حذري ـ علق ليتوما.

ـ كانا يموتان من النعاس يا عريفي.

أشعل كارينيو عود ثقاب، فأطفأه الهواء، فأشعل عوداً آخر وهو يكور جسده ليحمي اللهب ـ كانت حواسه كلها متيقظة، مثل وحش يتأهب للانقضاض ـ، وبينما هو يسمع السيدة تتذمر وتطلب من السائق أن يغلق الباب، قرّب يده من فم الشرطي الذي تتدلى منه السيجارة، وبدلاً من عود الثقاب كان المسدس هو الذي اصطدم بأسنان الشرطي، فتجمد في مكانه.

أمره توماس عندئذ:

ـ ولا كلمة واحدة، ولا حركة واحدة. أقول لك هذا لمصلحتك.

كان يثبت عينيه على الرجل الذي فتح فمه الآن ـ تدحرجت

السيجارة على الأرض ـ، وكان ينتزع منه مسدسه الرشاش بيده الأخرى، ولكن مسامعه كانت منصتة لما يحدث في السيارة، منتظراً أن يصرخ السائق أو أحد الركاب منبهاً الشرطي الذي في الموقع.

ورتل ليتوما:

ـ ولكنك لم تسمع شيئاً، لأن الركاب النعسين لم يلاحظوا شيئاً مما كان يحدث. أرأيت، إنني أحزر كل شيء. أتعرف السبب؟ لأنني رأيت أفلاماً كثيرة في حياتي وأعرف كل خدعها.

ـ ارفع يديك! ـ صاح آمراً من العتبة. وكان يصوب مسدسه إلى الشرطي الجالس وراء المنضدة، ويصوب المسدس الرشاش إلى رأس الشرطي الآخر الذي أمامه. ويستخدم هذا الأخير كمتراس. سمع ميرثيدس تطلق شهقة مكتومة، ولكنه لم ينظر إليها، فقد كان نظره مسلطاً على الرجل الذي وراء المنضدة وحده. بعد لحظة الذهول، رفع الشرطي يديه. وظل ينظر إليه وهو يرمش ببلاهة.

وقال كارينيو متذكراً:

ـ قلت لميرثيدس «خذي المسدس الرشاش» ولكنها كانت تموت خوفاً ولم تتحرك. وكان علي أن أكرر الأمر صارخاً.

ـ ألم تبل على نفسها في تلك اللحظة أيضاً؟

عندئذ أمسكت بكلتا يديها السلاح الذي تركه الشرطي على المنضدة.

ـ أوقفتهما إلى الجدار وأيديهما على رأسيهما ـ واصل الفتى قصته ـ. وكنت ستتعجب من مدى إذعانهما وانقيادهما يا عريفي. سمحوا لي بتفتيشهما وانتزاع مسدسيهما، وقيّد كل منهما الآخر دون أن يتفوها بكلمة.

وعندما أراد توماس وميرثيدس الذهاب، تجرأ أحدهما على القول متلعثماً: ـ لن تستطيع الوصول بعيداً جداً يا صاح.

ـ ولم تصل بالطبع ـ قال ليتوما ـ. أنا أريد النوم يا توماسيتو، لقد نعست وقصتك مملة.

ـ إنني مسلح جيداً للدفاع عن نفسي ـ قاطعه كارينيو.

ـ ما الذي يحدث هنا؟ ـ جاءه صوت السائق من خلفه.

ـ لا شيء، لا شيء، هيا بنا.

وسمعه يصرخ:

ـ كيف تقول لا شيء؟ ولكن من تكون حضرتك، ولماذا...

فقال الفتى وهو يدفعه خارجاً:

ـ اهدأ، اهدأ، ليست لك أي علاقة، لن يصيبك شيء.

كان المسافرون قد نزلوا من الدودج وأحاطوا بميرثيدس يأكلونها بالأسئلة. فكانت تحرك يديها ورأسها بهستيرية: «لست أدري، لست أدري».

ألقى كارينيو على مقعد الدودج برشاشي ومسدسي شرطيي الموقع وأشار للسائق بالجلوس وراء المقود. ثم أمسك بذراع ميرثيدس وأجبرها على الصعود إلى السيارة.

ـ هل ستتركنا هنا ـ قالت سيدة التذمرات بسخط.

ـ لا تقلقي، ستجدون من ينقلكم. لا يمكنكم المجيء معي، سيظنونكم متواطئين.

ـ اتركني أنا أيضاً معهم إذاً ـ احتج السائق الذي صار وراء المقود.

ـ ومن أجل أية شياطين أخذت السائق معك؟ ـ تثاءب ليتوما ـ. ألا تكفيك رفقة ميرثيدس؟

ـ أنا وامرأتي لا نحسن القيادة ـ أوضح كارينيو ـ. هيا، انطلق فوراً واضغط دواسة السرعة إلى أقصاها.

القسم الثاني

VI

ـ حسن، أظن أنه يمكنني الانصراف الآن ـ قال ليتوما ذلك مقدراً أنه إذا غادر المنجم فسيصل إلى ناكوس قبل الغروب.

ـ ولا بأي حال يا صديقي ـ قاطعه المهندس الطويل الأشقر الذي أبدى لطفاً كبيراً في معاملته منذ وصوله إلى لاسبيرانثا، وهو يرفع يدين ودودتين: ـ قد يدركك الليل وأنت في الطريق، ولست أنصحك بذلك. ستبقى لتأكل وتنام هنا، وفي الصباح الباكر سيوصلك فرانثيسكو لوبيث بسيارة الجيب إلى ناكوس.

المهندس الأسمر الذي يدعى بيتشين أصرّ أيضاً على بقائه، ولم يجعلهما ليتوما يتوسلان إليه كثيراً من أجل البقاء ليلة أخرى في المنجم. لأنه من التهور حقاً التنقل ليلاً عبر هذه القفار، ولأنه ستتاح له الفرصة بذلك لرؤية الغرينغو الزائر في لاسبيرانثا وسماع المزيد من كلام هذا المستكشف أو شيء من هذا القبيل. فقد فتن به منذ رآه، لقد كانت له لحية وشعر مشعثان وطويلان جداً لم ير ليتوما مثلهما إلا في بعض لوحات الأنبياء والرسل التوراتيين، ومثل لحى وشعور بعض المجانين أو المتسولين أشباه العراة في شوارع ليما. ولكن هذا الشخص ليس مجنوناً بأي حال؛ وإنما هو عالم. وبالرغم من أنه بسيط وودود، إلا أنه له مزاج مواطن الغيوم التائه على الأرض، وبالرغم من استهتاره التام ـ أهو عدم وعي؟ ـ بالخطر الذي تعرض له في المنجم عند إغارة الإرهابيين. فإن المهندسين كانوا يدعونه البروفيسور أو الحمى القرمزية.

بينما كان يأخذ أقوال الشهود وينظم قائمة بالأشياء التي استولى عليها المهاجمون ويكتب التقارير الضرورية من أجل شركة التأمين، سمع ليتوما المهندسين، والأشقر منهما خصوصاً، يمزحان مع البروفيسور بمرح، بالتحدث عن الفظائع التي كان الإرهابيون سيمارسونها عليه لو أنهم اكتشفوا أنه هناك، أمام أنوفهم، يختبئ عميل (للسي ـ آي ـ إيه) في خزانات الماء. وكان الغريب يجاريهما في المزاح. ففي مادة الفظائع يمكنه أن يعطي دروساً لأولئك الإرهابيين الذين هم ليسوا إلا مبتدئين لا يعرفون إلا قتل الناس بالرصاص أو السكاكين أو بتهشيم رؤوسهم، وهذه ليست عادية بالمقارنة مع تقنيات قدماء البيرونيين الذين توصلوا في هذا المجال إلى أشكال عالية التفنُّن. أكثر تفنناً من أساليب قدماء المكسيكيين، على الرغم من تواطؤ المؤرخين الدولي للتستر على المساهمة البيروية في فنون القرابين البشرية. فالعالم بأسره يعرف أن كهنة الأزتيك المكسيكيين كانوا، وهم في أعلى الأهرامات، ينتزعون قلوب أسرى حرب «لاغييرا فلوريدا[1]». ولكن، هل هناك من سمع عن شغف التشانكيين والهوانكيين[2] الديني بالأحشاء البشرية، وعن العمليات الجراحية الدقيقة التي كانوا يجرونها لاستخراج أكباد وأدمغة وكلى ضحاياهم كي يأكلوها في احتفالاتهم مع خمرة تشيشا فاخرة يصنعونها من الذرة؟ وكان المهندسان يلاطفانه وهو يلاطفهما وليتوما يتصنع التركيز على صياغة التقارير، ولكنه لا يُضيّع كلمة

[1] لاغييرا فلوريدا (La gurra florida) حروب كان المكسيكيون القدماء يخوضونها ضد أعدائهم للحصول على أسرى يقدمونهم قرابين لآلهتهم.

[2] تشانكا وهوانكا (Chanca y huanca) شعبان من هنود البيرو القديمة، كانا في حالة حرب مع شعب الأنكا الذي انتصر عليهما وأخضعهما لسيطرته.

من حديثهم. وقد كان مستعداً لتقديم أي شيء مقابل البقاء معهم لبعض الوقت والاستماع إلى البروفيسور الثرثار وتفحص مظهره الغريب.

هل هو غرينغو؟ إنه يبدو كذلك بعينيه الزرقاوين وشعره الأشقر المختلط برأسه ولحيته ذات الشيب الغزير. وكذلك بسترته ذات المعينات الحمراء والبيضاء التي يرتديها فوق سرواله وقميصه الكاوبوي وحذائه الجبلي. ليس هناك بيروي واحد يلبس بهذه الطريقة. ولكن اللغة الإسبانية التي يتكلمها كانت أكثر من متقنة، فكثير من كلماته كان ليتوما يسمعها أول مرة، مع أنه كان واثقاً من أنها موجودة في الكتب، إنه دماغ حقيقي، يا للعاهرة. وسيستمتع هذه الليلة بحديثه.

أخبره المهندسان أنه كان هناك أكثر من مئة عامل يعملون في أنفاق منجم لاسبيرانثا في أزمنة ازدهاره، أما الآن فلا يكاد يعمل فيه إلا قرابة الثلاثين عاملاً. وربما سيضطرون إلى إغلاقه إذا استمرت الأمور على هذا النحو، فضلاً عن المشاكل وهبوط سعر المعادن، مثلما أُغلقت مناجم أخرى في ثيرو دي باسكو وفي خونين. وإنهم يواصلون العمل في المنجم لأنهم لا يريدون السماح لأحد بليّ أذرعهم وليس لأي سبب آخر، فالمنجم لم يعد صفقة رابحة. كان المعسكر يشبه معسكر شركة المقاولات في ناكوس: فهو ضيق، فيه عنابر من الخشب ومبنيان من الاسمنت، حيث الكتب ومسكن المهندسين عندما يأتيان. في أحد الأجنحة يعيش مراقب العمال (وهو غائب الآن، لأنه أخذ الجريح إلى هوانكايو). وقد قدموا لليتوما غرفة في ذلك المبنى، فيها سرير ومصباح كيروسين ومغسلة. ومن خلال النافذة رأى خزاني الماء في منتصف الطريق ما بين مدخل النفق والعنابر. إنهما وعاءان كبيران عاليان مثبتان على دعائم حجرية

وعليهما سلّمان من الحديد. كان أحدهما قد أُفرغ من الماء في اليوم السابق من أجل عملية التنظيف السنوية، فتسلق إليه المهندسان والدكتور للاختباء فيه عندما أحسوا بقدوم الإرهابيين. وكانوا أثناء وجودهم هناك يرتجفون من البرد والخوف ـ أم أنهم كانوا يتبادلون المزاح أيضاً بأصوات خافتة؟ ـ ظلوا هناك الساعات الثلاث التي استغرقها المهاجمون في تبادل إطلاق النار مع رجال الأمن الستة وإجبارهم على الهرب ـ أما القتيل والجريح فهما من الجماعة التي تعمل تحت إمرة فرانثيسكو لوبيث ـ، وفي الاستيلاء على المتفجرات والفتيل والأدوية والأحذية والملابس من المستودع والصيدلية، ثم في إلقاء الخطب الحماسية على عمال المنجم الذين أمروهم بالخروج من العنابر والاصطفاف في الفسحة الصغيرة المجاورة، على ضوء عدد من مصابيح الأسيتيلين.

ـ أتعرف ما هو الشيء الذي سأتذكره من هذه المغامرة أيها العريف؟ ـ سأله المهندس الأشقر، الذي كان بيتشين يدعوه باسم بالي: ـ لن أتذكر الخوف الذي أحسست به، ولا السرقة، بل ولا الشاب المسكين الذي تقوله. وإنما سأتذكر دائماً أن أياً من عمال المنجم لم يشِ بنا.

كانوا قد بدؤوا بتناول الطعام حول مائدة طويلة، حيث كانت تطفو في الجو رائحة شهية وسط دخان السجائر.

ـ كان يكفي أن يشير أحدهم بإصبعه أو برأسه إلى خزان الماء.

ـ قال بيتشين مؤيداً ـ وكانوا سيجرون لنا عندئذ محاكمة ثورية، ونكون الآن في الجنة، أليس كذلك يا بالي؟

ـ أنا وأنت كنا سنذهب إلى الجحيم يا بيتشين. أما البروفيسور فكان سيذهب إلى الجنة فعلاً. تصور يا حضرة العريف أن الحمى القرمزية هذا الذي تراه، لم يقترف بعد خطيئته الأولى.

ـ ما كنت لأقدم على مثل هذه النذالة وأتخلى عنكما. ـ قال الدكتور، وحاول ليتوما أن يكتشف في لهجته ولو حرفاً له رنة أجنبية: ـ كنت سأرافقكما إلى حيث اللهيب. أعني اللهيب الذي يحرق وليس الذي يبصق[1].

كان قد أعد الطعام بينما المهندسان وفرانثيسكو لوبيث وليتوما يتناولون كؤوساً من خمرة بيسكو معطرة ملأت عروق العريف بدفء لذيذ، وملأت رأسه بلا مبالاة متنبهة. الحقيقة أن الدكتور قد أعد مأدبة هائلة: حساء بطاطا مجففة وفول مع قطع من لحم الدجاج ولفائف عجين مع أرز أبيض. طعام تأكل أصابعك معه! وأرفقوا هذه اللذائذ بزجاجات بيرة مبردة انتهت إلى استثارة بهجة ليتوما. لم يكن قد تناول وجبة جيدة مثل هذه منذ شهور؛ مذ كان في بيورا على الأقل. لقد كان مشغولاً جداً منذ جلس مع هؤلاء إلى المائدة، حتى إنه لم يعد يتذكر قضية المختفين في ناكوس، ولا بكاء توماسيتو الليلي واعترافاته العاطفية، وهما الموضوعان الوحيدان اللذان ـ مثلما انتبه الآن ـ يشغلان حياته كلها في الفترة الأخيرة.

ـ هل تعرف لماذا سأتذكر إلى الأبد وفاء هؤلاء الثلاثين منجمياً أيها العريف؟ ـ ألح المهندس بالي ـ لأنهم قدموا درساً ولي وللمهندس بيتشين. لقد كنا نظنهم متواطئين مع الإرهابيين. وها أنت ترى، فنحن ما نزال هنا بفضل صمتهم.

ـ نحن هنا أحياء ونتحرك مثل «سان بوتا» ولدينا قصة مثيرة لنرويها للأصدقاء ـ أكد بيتشين.

---

[1] هناك تورية في كلمة اللهيب (llamas) التي استخدمها، فهي تعني اللهب وتعني كذلك حيوان اللاما المعروف. وقد أراد أن يقول إنه سيذهب إلى الجحيم حيث النار الحارقة وليس إلى حيوانات اللاما التي تعطس مطلقة البصاق بكثرة.

فرفع البروفيسور كأس بيرته:
- ما زال هناك خبز كثير لا بد من تقطيعه. فأنتم تظنون أنكم مدينون بحياتكم لهؤلاء العمال الذين لم يشوا بكم. وأنا أقول لكم إنكم ميدنون بها (لآبووات) هذه الجبال. فهم الذين ترفقوا بكم ببركتي. وباختصار: أنا الذي أنقذتكم.
- ولماذا يكون الفضل لك يا بروفيسور؟ ما الذي قدمته أنت للآبووات؟
- قدمت لهم ثلاثين سنة من الدراسة - تنهد الدكتور -. وخمسة كتب. ونحو مئة مقالة. آه، بل وكذلك خريطة لغوية - أركيولوجية لسلسلة الجبال الوسطى.
- ومن هم الآبووات يا دكتور؟ - تجرأ ليتوما على سؤاله.
— إنهم آلهة الموت، أرواح مرتفعات وجبال السلسلة — قال البروفيسور وهو يشعر بسعادة التحدث في أمر يبدو أنه يداعب طرف لسانه: - كل مرتفع في الأنديز، مهما كان صغيراً له إلهه الحامي. وعندما جاء الإسبان وحطموا الآلهة والهواكات[1] وعمّدوا الهنود ومنعوا العبادات الوثنية، ظنوا أنهم قضوا بذلك على تلك العبادات. والحقيقة أنها ظلت متداولة عبر اختلاطها بالشعائر المسيحية. والآبووات هم الذين يحسمون شؤون الحياة والموت على هذه الأراضي. ونحن مدينون لهم بوجودنا هنا أحياء يا أصدقائي. فلنشرب كأساً كاملة حتى آخر قطرة على شرف آبووات منجم لاسبيرانثا!
تشجع ليتوما بتأثير البيسكو والبيرة والجو الودي، وتدخل في الحديث مرة أخرى:
- هناك في ناكوس امرأة نصف ساحرة تعرف الكثير في هذه

[1] هواكا (huaca) أو غواكا: كلمة من لغة الكيتشوا. وهي أضرحة للهنود القدماء في البيرو وبوليفيا.

الأمور يا دكتور. تدعى السيدة أدريانا. وحسب ادعاءاتها فإن الجبال تغص بالأرواح، وهي تقول إنها تتواصل معها. وتؤكد أنها أرواح شريرة تحب اللحم البشري.

فكرر الدكتور عندئذ:

- أدريانا؟ أهي امرأة ديونيسيو بائع البيسكو؟ إنني أعرفها جيداً. وأعرف كذلك زوجها السكير. لقد كان يمضي من قرية إلى قرية مع جوقة موسيقا، وكان يتنكر على هيئة (ukuko)، وهذا يعني دب. إنهما من حفظة الأخبار الجيدين. ولكن، ألم يقتلهما جماعة الدرب حتى الآن بتهمة العداء للمجتمع؟

سيطر الذهول على ليتوما. فهذا الشخص مثل الرب، يعلم كل شيء ويعرف الجميع. كيف هذا وهو فوق ذلك كله أجنبي؟

- لا تدعوني بلقب الدكتور، ادعوني باسم بول، بول ستيرمسون، أو بول فقط، أو الحمى القرمزية، وهو الاسم الذي يطلقه علي طلابي في أودنس. - وفي أثناء ذلك كان قد أخرج غليوناً من أحد جيوب سترته ذات المعينات الحمراء، وراح يفتت بيديه سيجارتين فيهما تبغ أسود: - في بلادي يطلقون لقب الدكتور على الأطباء فقط، وليس على المتخصصين في العلوم الإنسانية.

وشجعه بيتشين:

- هيا أيها الحمى القرمزية، أروِ للعريف ليتوما كيف أصبحت متخصصاً في شؤون البيرو.

حين كان طفلاً صغيراً يرتدي سروالاً قصيراً، هناك في مسقط رأسه في الدانمارك، أهدى إليه أبوه كتاباً عن اكتشاف البيرو وغزوها على يد الإسبان، من تأليف سيد يدعى برسكوت. وقد حسمت قراءة ذلك الكتاب مصيره. فمنذ ذلك الحين وهو يعيش مفعماً بالفضول حول أناس وأشياء وقصص هذه البلاد. لقد أمضى حياته كلها وهو

يدرس ويدرِّس عادات وأساطير وتاريخ البيرو، في كوبنهاغن أولاً، ثم في أودنس بعد ذلك. ومنذ نحو ثلاثين سنة وهو يقضي كل إجازاته في جبال البيرو. لقد أصبحت جبال الأنديز مثل بيته.

فتلعثم ليتوما وهو مفعم بالتوقير:

ـ الآن فهمت لماذا تتكلم حضرتك الإسبانية بهذه الطلاقة.

فتدخل بيتشين:

ـ وأنت لم تسمعه بعد يتكلم الكيتشوا. إنه يتحدث مع عمال المنجم باسترسال، وكأنه هندي من سلالة صافية لا أقل ولا أكثر.

ـ تعني أنه يتكلم الكيتشوا أيضاً ـ هتف ليتوما مفتوناً.

فحدد البروفيسور دون أن يخفي سعادته لذهول الشرطي:

ـ أتكلم الكيتشوا بلهجتي كوسكو وأياكوتشو، مع قليل من لهجة ايمار أيضاً.

ثم أضاف قائلاً إن اللغة البيروية التي كان يجب أن يتعلمها مع ذلك هي لغة الهوانكا، تلك الحضارة القديمة التي كانت قائمة في الأنديز الأوسط، والتي تعرضت لغزو الإنكا فيما بعد.

وأردف مصححاً:

ـ ومن الأدق القول إنها تعرضت للمحو على يد الإنكا، لقد حقق هؤلاء الأخيرون سمعة طيبة، فمنذ القرن الثامن عشر يتحدث الجميع عنهم باعتبارهم غزاة متسامحين، تبنوا آلهة المهزومين. إنها أسطورة كبيرة. فالانكا، مثل جميع الامبراطوريات، كانوا همجيين في معاملتهم للشعوب التي لم تخضع لسلطتهم بإذعان، فقد أخرجوا عملياً من التاريخ شعبي الهوانكا والتشانكا. دمروا مدنهم وشتتوهم ووزعوهم في كل أرجاء تاهوانتيسويو[1]، بطريقة

---

[1] تاهوا نتيسويو (Tahuantisyo) امبراطورية الإنكاكما كانوا يسمونها بلغتهم.

نظام الميتيمايس[1] الذي اتبعوه، أي النفي الجماعي للأهالي. ولقد تدبروا الأمر بحيث لا يبقى أي أثر لمعتقداتهم وعاداتهم حتى ولا للغتهم. فلهجة الكيتشوا هذه التي استمرت في المنطقة لم تكن هي لغة شعب الهوانكا.

ثم أضاف أن المؤرخين المحدثين لا يميلون إلى التعاطف مع الهوانكا، لأنهم ساعدوا الإسبان ضد جيوش الإنكا، ألم يكن تصرفهم ذاك عادلاً؟ لقد تصرفوا وفق مبدأ مغرق في القدم يقول: أعداء عدوي هم أصدقاء لي. فساعدوا الفاتحين الإسبان معتقدين أن هؤلاء سيساعدونهم أيضاً على التحرر ممن استعبدوهم. وقد كانوا مخطئين بالطبع، فالإسبان أخضعوهم فيما بعد إلى نير أشد قسوة من عبودية الإنكا. الأمر المؤكد هو أن التاريخ كان جائراً جداً في تعامله مع شعب الهوانكا: فهم لا يكادون يظهرون في الكتب التي تتحدث عن البيرو القديمة، ولا يذكرهم أحد عادة إلا للقول بأنهم كانوا أناساً لهم عادات همجية ومتعاونين مع الغزاة الإسبان.

نهض المهندس الطويل الأشقر - أيكون بالي هو اسمه الأول أم كنيته؟ - وأحضر مرة أخرى زجاجة البيسكو المعطر الذي تذوقوه قبل تناول الطعام. وقال وهو يملأ الكؤوس:

- فلنتطعم ضد الصقيع. فإذا ما رجع جماعة الدرب، يجدوننا سكارى ولا يهمنا أي شيء.

كانت الريح تعوي في النوافذ والسطوح مزعزعة المسكن. أحس ليتوما بالسكر. معرفة الحمى القرمزية لديونيسيو ودونيا أدريانا أمر لا يصدق. بل إنه رأى الخمّار حين كان يجوب العالم

---

[1] الميتيمايس (mitimaes) مستوطنون هنود كان الإنكا يرسلونهم إلى المناطق التي يحتلونها حديثاً لاستيطانها، وأطلق الإسبان هذه التسمية فيما بعد على الهنود الذين يخدمون في صفوف الجيش الإسباني.

ويرقص في الاحتفالات مثل أوكوكو. ولا شك في أنه كان يضع آنذاك مراياه الصغيرة وسلاسله وأقنعته. كم سيكون ممتعاً الاستماع إلى ثلاثتهم وهو يتحدثون عن الآبووات والبيستاكوات. يا للعنة العاهرة، سيكون ذلك رائعاً. هل يؤمن الدكتور بالآبووات أم أنه يريد إظهار سعة علمه؟ فكر بناكوس. لا بد أن توماسيتو قد استلقى في فراشه الآن، وراح ينظر إلى السقف في العتمة، غارقاً في تلك الأفكار التي تأكل لياليه وتجعله يبكي وهو نائم. أتكون أنثى قاسية تلك البيورانية ميرثيدس؟ لقد خلّفت الفتى مضيعاً. لا بد أن مغارة ديونيسيو ودونيا أدريانا تغص الآن بالسكارى المكتئبين الذين يرفع الخمّار معنوياتهم بأغنياته ومساعيه، ويحثهم على الرقص فيما بينهم أو يلمسهم متظاهراً بأن ذلك يحدث عرضاً ودون قصد منه. فكر بالعمال ينامون في عنابرهم وهم يحملون على كاهلهم سر ما جرى لأولئك الثلاثة، السر الذي لن يتوصل هو إلى معرفته مطلقاً. وأحس العريف بضربة حنين أخرى إلى بيورا البعيدة، إلى مناخها الحار وأهلها المتدفقين الذين لا يعرفون كيف يخفون سراً، إلى قفارها وجبالها التي لا وجود فيها للآبووات والبيستاكوات، إنها مدينة تعيش في ذاكرته مثل فردوس مفقود منذ انتقاله إلى هذه الجبال الوعرة. هل سيرى تلك المدينة مرة أخرى؟ وبذل جهده ليواصل متابعة الحديث.

ـ الهوانكا كانوا همجيين أيها الحمى القرمزية. ـ تعلل بيتشين وهو يتفحص كأسه من خلال الزجاج الشفاف خشية أن تكون حشرة قد غطست فيها: ـ وكذلك الأمر بالنسبة إلى التشانكا. أنت نفسك حدثتنا عن همجيتهم من أجل إرضاء آبوواتهم. قضية تقديمهم الأطفال والرجال والنساء قرابين للنهر الذي ينحرف عن مساره، أو للطريق الذي سيشقونه أو للمعبد أو الحصن الذي يشيدونه، ليس بالعمل المتحضر على الإطلاق.

ـ هناك في أودنس، قرب الحي الذي أعيش فيه، اغتالت طائفة من عبدة الشيطان شيخاً مسناً بغرس دبابيس في جسده لتقدمه قرباناً لزعيم الشياطين بعلزبول. ـ قال البروفيسور ستيرمسون ذلك وهو يهز كتفيه، وأضاف: ـ لقد كانوا همجيين بالطبع، وهل هناك شعب من الشعوب القديمة لم يكن كذلك؟ من هو الشعب الذي لم يكن قاسياً ومتسامحاً في الوقت نفسه إذا حكمنا عليه من وجهة نظر هذه الأيام؟

كان فرانثيسكو لوبيث قد خرج ليرى إذا ما كان كل شيء على ما يرام، وحين رجع إلى الغرفة دخل معه تيار هواء جليدي.

قال وهو ينفض عباءته البونتشو:

ـ كل شيء هادئ. ولكن الحرارة انخفضت كثيراً وبدأ هطول بَرَد. فلنلمس الخشب، عسى ألا يهوي علينا الليلة هوايكو من قمة يابا.

أعاد المهندس ملء كأس لوبيث قائلاً له:

ـ دفئ نفسك بجرعة. هذا ما كان ينقصنا. بعد الخلاص من الإرهابيين يأتينا الهوايكو.

دمدم المهندس الأشقر وهو ساه تماماً، وكأنه يحدث نفسه:

ـ إنني أتساءل عما إذا كان ما يحدث في البيرو ليس إلا انبعاثاً لكل ذلك العنف المكبوت. وكأن هذا العنف كان مخبأً في مكان ما، ولسببٍ ما أيضاً، خرج هكذا إلى السطح فجأة.

حاول صديقه بيتشين إسكاته:

ـ إذا كنت ستحدثني ثانية عن تلك الايكولوجية فسأذهب للنوم.

ـ ثم توجه إلى ليتوما الذي كان ينظر إليه مستغرباً، وأوضح له وهو يشير إلى صديقه: ـ كان يعرف السيدة دِهاركور، تلك التي قتلوها الشهر الماضي في هوانكافيليكا. وما إن يشرب جرعة خمر حتى

يبدأ التفلسف عنها. هناك بون شاسع بين مهندس مناجم وفيلسوف يابالي.

ولكن المهندس الأشقر لم يرد عليه. كان مستغرقاً في تأملاته، عيناه تلمعان بفعل الخمر، وعلى جبهته تتدلى خصلة من شعره.

ـ الحقيقة أنه إذا كانت هناك مِيتة يصعب فهمها، فهي ميتة دِهاركور. ـ سيطر الوجوم على وجه البروفيسور وهو يقول ذلك، وتابع: ـ ولكننا نحن المخطئون بالطبع، لأننا نحاول أن نفهم هذه المجازر بعقولنا. بينما لا يوجد لها تفسير عقلاني.

قال بالي وهو يفتح عينيه كثيراً:

ـ هي كانت تعرف جيداً أنها تقامر بحياتها. وقد واصلت عمل ذلك، إنها مثلك أيها الحمى القرمزية. فأنت تعرف أيضاً أنك تغامر بحياتك. فلو أنهم أمسكوا بنا الليلة الماضية، ربما كنت سأتمكن أنا وبيتشين من التفاوض معهم بطريقة ما. أما أنت فكانوا سيسحقون جمجمتك بالحجارة، مثلما فعلوا بهورتينسيا. ومع ذلك، فإنك ما تزال حياً. إنني أرفع قبعتي احتراماً لك أيها العجوز.

فردّ له البروفيسور مجاملته:

ـ حسن، أنتما أيضاً ما زلتما على قيد الحياة.

وقال بيتشين:

ـ نحن نعيش من إيراد هذا المنجم. أعني، كنا نعيش.

ـ ماذا يوجد في البيرو حتى توقظ في بعض الأجانب هذه العاطفة؟ ـ قال بالي مذهولاً ـ إننا لا نستحق ذلك.

فضحك الحمى القرمزية:

ـ إنها بلاد لا يفهمها أحد. وليس هناك ما هو أكثر جاذبية مما لا يمكن فهمه بالنسبة لأناس من بلدان صافية وشفافة مثل بلادي.

وقال بالي مغيّراً موضوع الحديث:

- أظن أنني لن أرجع ثانية إلى منجم لاسبيرانثا. ليست لدي رغبة في لعب دور البطل، وخصوصاً إذا كان ذلك في سبيل منجم خاسر. الحقيقة أنني تبرزت في ثيابي ليلة أمس.

- لقد أحسست بذلك أنا والبروفيسور ونحن في الخزان ـ قال بيتشين ـ أو بكلمة أدق، لقد شممنا ذلك.

ضحك بالي، وضحك البروفيسور، وضحك لوبيث أيضاً. ولكن ليتوما ظل جديّاً، لا يكاد يسمعهم، مستغرقاً في قلق عميق. فيما بعد، عندما كانوا قد انتهوا من شرب زجاجة البيسكو كلها، وتمنوا لبعضهم بعضاً نوماً هنيئاً وذهبوا جميعهم إلى غرفهم، توقف العريف عند باب غرفة البروفيسور ستيرمسون، المجاورة لغرفته. ودمدم باحترام ولسانه معقود بعض الشيء من الخمر:

ـ هناك أمر ما زال يثير فضولي يا دكتور. هل كان شعبا التشانكا والهونكا يقدمان البشر قرباناً حين يشقون طريقاً؟

كان البروفسور منحنياً ليخلع حذاءه، وكان مصباح الاسيتلين يشوه تقاطيعه، ويضفي عليه مظهراً شبحياً. وخيل إلى ليتوما أن بخاراً ذهبياً سيظهر فجأة ليشكل هالة تحيط بشعره الأبيض.

- ما كانوا يفعلون ذلك بدافع القسوة، وإنما لأنهم شديدو الورع.

- قال له البروفيسور موضحاً: ـ لقد كانت تلك هي طريقتهم في إظهار الاحترام لأرواح الجبل والأرض تلك التي تضايقهم وتقلقهم. كانوا يفعلون ذلك حتى لا تعاقبهم الأرواح. لكي يضمنوا بقاءهم أحياء، ولكي لا تحدث انهيارات وهوايكو، ولكي لا تسقط الصواعق وتحرقهم أو تفيض البحيرات. يجب علينا تفهم سلوكهم. فلم يكن هناك كوارث طبيعية من وجهة نظرهم، وإنما كل شيء كان يحدث بإرادة عليا يتوجب عليهم كسب رضاها بالقرابين.

ـ هذا الذي تقوله سمعته في أحد الأيام من دونيا أدريانا يا دكتور.

فقال البروفيسور:

ـ انقل تحياتي إليها وإلى ديونيسيو. آخر مرة التقيتهما كانت في مهرجان هوانكايو. لقد كانت أدريانا شابة جميلة. ولكن جمالها أخذ يضمحل فيما بعد، مثلما يحدث لكل شيء. أرى أنك تهتم بالتاريخ أيها العريف.

ـ قليلاً ـ وافقه ليتوما ـ. طابت ليلتك يا دكتور.

❖ ❖ ❖

كانوا مذعورين منذ أن علموا بأمر غزو البيستاكوات وبأن الأهالي في أحياء أياكوتشو قد نظموا دوريات لمواجهتهم. فراحوا يقولون: «علينا أن نفعل مثلهم. ألا يكون الذباحون قد بدؤوا حصادهم في ناكوس أيضاً» أرادوا إشعال مواقد في الليل ما بين العنابر لكي يروهم فور ظهورهم. فهم يهبطون عادة حين تبدأ الأمور تسوء. وتتكرر الآن القصة التي جرت حين أخذت ناكوس بالانحدار. فهذه القرية كانت فيما مضى قرية مزدهرة جداً. ولهذا جئت أنا وتيموكو إلى هنا عندما هربنا من كينكا.

في ذلك الوقت كنت شابة، ولم يكن منجم ناكوس قد هُجر بعد؛ وكان يضم عمالاً منجميين قادمين من كل أنحاء المنطقة، بل ومن مناطق بعيدة مثل بامباس وأكوبامبا واتكوتشاكا وليركاي. وفي كل يوم كانوا يحفرون أنفاقاً جديدة لاستخراج الفضة والزنك. وكان على مستميلي العمال أن يذهبوا أبعد فأبعد للتعاقد مع أناس مستعدين للمجيء إلى المنجم الذي كان يدعى آنذاك منجم سانتا ريتا. ومن أجل إيواء القادمين أقاموا عنابر ونصبوا خياماً على كل سفوح الجبل، وكان منجميون كثيرون ينامون متدثرين

بعباءات البونتشو فـي الفجوات تحت الصخور الضخمة. وبقي الأمر كذلك إلى أن قال المهندسون يوماً إن المعدن عالي النوعية قد نضب، ولم يبق إلا حثالة لا يمكن بيعها.

عندما بدؤوا بتسريح الناس من العمل وبدأ منجم سانتا ريتا بالانحدار وأخذ الكثيرون يغادرون ناكوس، حدثت الأمور الغريبة التي لم يجد احد لها تفسيراً. وظهرت فـي القرية أجواء عدم الثقة الشبيهة بالأجواء السائدة الآن بين عمال الطريق. وكان هناك رجل بدين آتٍ من هواسيكانتشا، كان حارس المتجر، وقد بدأ ينحف ويقول إنه يشعر بالخفة، وكأنه قد أفرغ من الداخل وتحول جسده إلى جلد وعظم فقط، مثل بالون يمكن لوخزة دبوس أن تفجره، كما إن رأسه استُنزف من الأفكار والذكريات. وحين مات بعد أسبوعين من ذلك، كان قد تضاءل ونحل لدرجة صار يبدو معها مثل

طفل سقيم في العاشرة من عمره، لم يعد يتذكر من أين أتى، ولا اسمه، وكان يسأل من يأتون لرؤيته بارتباك وبصوت واهن عما إذا كان بشراً أم حيواناً، لأنه لم يعد واثقاً حتى من هذا الأمر. كل هذا لم يروهِ لي أحد، بل رأيناه أنا وتيموتيو بأم أعيننا.

كان اسم حارس المستودع خوان اباثا. وبعد دفنه في بطن الوهدة فقط، بدأ عمال منجم سانتا ريتا وذووه يرتابون بأن مرض أباثا لم يكن مرضاً، وإنما هناك بيستاكو قد اعترض طريقه. وكان كل أهالي ناكوس، مثلما يحدث الآن، يتقلبون بعصبية ويقولون: «هل هناك علاج لهذا الداء؟، وهل يمكننا عمل شيء ضد البيستاكو؟» وكانوا يأتون لاستشارتي بعد أن شاع أنني أعرف أي الجبال ذكر وأيها أنثى، وأي الصخور ينجب كل منها كذلك. طبعاً هناك علاج، ومن الممكن بالطبع عمل شيء. يجب الحذر واتخاذ الاحتياطات. فوضع جفنة ماء عند مدخل البيت لوقف مفعول المسحوق

السحري الذي يذروه البيستاكو على ضحاياه، يفيد. والتبول قطرة على القمصان والكنزات قبل لبسها، يساعد. وارتداء شيء من الصوف، ومشد للنساء، وحمل مقص أو قطعة صابون أو فص ثوم أو قليل من الملح، يفيد أيضاً، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، ولهذا حدث لهم ما حدث. لم يكونوا يتقبلون الحقيقة، أما الناس الحاليون فقد أخذوا يتقبلونها. لقد أصبحت لديهم أدلة كافية للتخلي عن الجحود. أليس هذا صحيحاً؟

وحين انتبه أهالي ناكوس إلى ما يحدث، كان البيستاكو الذي قتل خوان أباثا قد جفف آخرين غيره. وكان الشحم البشري يُستخدم آنذاك في صنع المراهم ويمزج مع معدن النواقيس لترخيم صوتها. أما الآن، ومنذ غزو البيستاكوات، فإن أناساً كثيرين في أياكوتشو مقتنعون بأنه يجري إرسال الشحم إلى الخارج وإلى ليما، حيث توجد مصانع تشتغل بدهن الرجال والنساء فقط.

لقد تعرفتُ جيداً على بيستاكو سانتا ريتا. فبعد أن جفف خوان أباثا، قام بتجفيف سيباستيان، أحد أصدقاء تيموتيو. وقد تابعتْ ناكوس بأسرها قصته خطوة بخطوة، لأنه راح يرويها لعمال المنجم منذ بدأ يشعر بتخلخله وخفة وزنه. أي منذ الليلة نفسها التي التقى فيها بأحد معارفه من مستميلي العمال في منجم سانتا ريتا، وكان عندئذ على مشارف القرية عائداً مع قطيع من اللاما عبر البامبا. وكان الرجل الذي التقاه ملتفاً ببونتشو ويضع قبعة غاطسة حتى أذنيه وهو يقف مستنداً إلى صخرة ويدخن. لقد عرفه سيباستيان على الفور. فقد كان قد رآه في قرى ودساكر المنطقة يغري الفلاحين بالذهاب للعمل في ناكوس ويعطيهم بعض السولات مقدماً ليقنعهم.

اقترب منه سيباستيان ليسلم عليه، وقدم له مستميل العمال سيجارة. كان غريباً عن المنطقة، ذا بشرة بيضاء ولحية صغيرة لها

لـون صرصـار وعينين زرقـاوين، وكـان النـاس فـي نـاكوس يدعونـه الأب الكبير لأنه كان زير نساء (لقد غازلني أنا نفسي عدة مرات، دون أن يعلم تيموتيو بذلك). وكانا يدخنان ويتحدثان عن سوء الطالع الذي حلّ بمنجم سانتا ريتا بعد نفاد المعدن، حين أحس سيباستيان فجأة بنفثة دخان أطلقها الأب الكبير في وجهه وجعلته يعطس. وعندئذ بالذات أحسّ بدوخة ونعاس. لم يكن دخان سيجارة هو ما أطلقه في وجهه بالطبع، بل ذلك المسحوق الذي يدوّخ به البيستاكوات ضحاياهم كي لا يشعروا بأنهم ينتزعون شحمهم. أي مسحوق؟ إنه مسحوق من عظام اللاما أو الألبكة المطحونة في أغلب الأحيان. ومن يشمه يفقد الإحساس ولا يعود قادراً على معرفة أي شيء. واستطاع البيستاكو سحب ما في جوف سيباستيان دون أن يشعر بذلك أو تراوده الشكوك. هذا ما فعله الأب الكبير، ومنذ تلك الليلة بدأ سيباستيان ينحف ويذوي وينسى كل ما يعرفه. مثلما حدث لخوان أباثا. إلى أن مات أيضاً. هذا ما حدث عندما كانت ناكوس تعيش على منجم سانتا، وهذا ما يحدث الآن، وهي تعيش على العمل بهذا الطريق. المصائب لا تأتي من الإرهابيين الذين يعدمون أناساً كثيرين أو يقتادونهم إلى ميليشياهم. ولا من البيستاكوات التي تجوب هذه الأنحاء. لأن هؤلاء لا يأتون في الواقع إلا في الأزمنة الصعبة، وهو ما يثبته غزوهم لاياكوتشو. لا بد أن هناك عدداً منهم في كهوف هذه الجبال، يكدسون احتياطيهم من الدهن البشري. ربما يكونون بحاجة إليها هناك في ليما، أو في الولايات المتحدة، من أجل تشحيم الآلات الجديدة، أو الصواريخ التي يرسلونها إلى القمر مثلاً. يقال إنه ليس هناك بنزين ولا زيت يمكنه تشغيل الاختراعات العلمية أفضل من شحم العوام. ولهذا السبب أرسلوا ذبّاحيهم مسلحين بمناجل المتشيتي ذات النصال المعقوفة التي يمكن

مطها مثل علكة حتى تصل إلى عنق الأضحية. هؤلاء أيضاً يحدثون أضراراً، ومن يمكنه إنكار ذلك.

ولكن أسوأ المصائب تأتي دائماً من الأرواح التي لا وجوه لها. فهذه الأرواح هي التي تطلب دائماً أكثر مما يستطيع الناس تقديمه. إنها هناك، متحولة إلى صخور، تنتظر أن تتفتح عقول العمال بقوة المصيبة. إنكم تغضبون حين أشرح لكم هذا كله. لماذا تسألون إذن، إذا كنتم ستصمون آذانكم ولا تريدون أن تفهموا؟ من الخير لكم أن تتبعوا نصيحة زوجي، فتشربوا وتشربوا إلى أن تسكروا، فمع السُّكر يصبح كل شيء أفضل مما هو عليه، ويختفي الإرهابيون والبيستاكوات وكل ما يخيف ويُغضب.

❖ ❖ ❖

ـ ولكن لماذا أوقفوني أنا؟ ـ عادت ميرثيدس إلى التساؤل فجأة.

وقاطعه ليتوما في الظلام:

ـ آسف يا توماسيتو. لقد عكر مزاجي هذا الذي قرأناه في الجريدة الآتية من ليما عن أولئك الذين يسرقون عيون الأطفال. ليست لدي رغبة هذه الليلة في سماع غرامياتك. من الأفضل أن نتحدث عن سارقي العيون، أو عن ديونيسيو والساحرة، فأنا لا أستطيع انتزاعهما أيضاً من قرعتي.

ـ ولا بأي شكل يا عريفي ـ ردّ توماس من سريره ـ. الليالي كلها مكرسة لميرثيدس ولا أحد سواها، اللهم إلا عندما أكون في الخدمة. فلدي ما يكفي من الساعات في النهار لأقنط من الأمور التي تحدث. ابق أنت مع البيستاكوات ودعني وشأني مع أنثاي.

وكررت ميرثيدس:

ـ لماذا لم يوقفوك أنت، أو كلينا معاً على الأقل؟

كان السؤال يتكرر على شفتيها مذ هربا من الشرطيين. وكان

كارينيو قد قدم لها كل الإجابات المحتملة: ربما كان اسمها مسجلاً لديهما بسبب ارتباطها بتشانشو، وهو شخص مدرج في قائمة المشبوهين لدى الشرطة منذ زمن؛ وربما وجدا في بطاقتها خطأ ما أو لطخة مريبة؛ أو ربما استدعياها مثلما كان بإمكانهما استدعاء أي راكب آخر، لمجرد ابتزاز بعض النقود. فلماذا التفكير مطولاً في الأمر وقد انقضى أسوأ ما فيه. أليست بمنجى منهما الآن؟ أو لم يجتازا نصف سلسلة الجبال دون مشاكل؟ وسيصلان إلى ليما سليمين معافيين خلال نحو ساعتين. وكما لو أن سائق القطار أراد المصادقة على كلام كارينيو، فأطلق صفارة قطاره ورددت الجبال الجرداء أصداء الصفير الطويل المدوي.

- الجريدة لم تتحدث عن بيستاكوات، وإنما عن مقتلعي عيون أو سارقي عيون - قال ليتوما -. ولكنك محق يا توماسيتو، فهؤلاء يشبهون بيستاكوات الجبليين. لكن ما لا أفهمه هو أن يبدأ الناس في ليما تصديق هذه الأمور. في عاصمة البيرو! أيكون ذلك ممكناً!

- أنت تظنني أصغي إليك، بينما أنا لست هنا - همس توماسيتو -. إنني أفكر بقطار سلسلة الجبال الذي ينزل وينزل نحو «ديسامبارادوس»، وأنا أحتضن محبوبتي.

- أقنعني، أقنعني أن استدعاءهما لي كان مجرد صدفة - تلعثمت وهي تلتصق به -. لست أريد الذهاب إلى السجن. هناك واحدة أعرفها كانت سجينة في تشوريّوس، وكنت أذهب لزيارتها. إنني أفضل قتل نفسي قبل الذهاب إلى السجن.

احتضنها الشاب بقوة وراح يلاطفها. كانا متلاصقين في مقعد مخصص لراكب واحد. فقد كانت العربة مزدحمة، فيها أناس واقفون محملون بالحزم، الأكياس، وحتى بالدجاج، وكان يصعد

مزيد من الركاب في كل محطة. عما قريب لن يكون التنفس ممكناً. لحسن الحظ أن محطة ماتوكانا أصبحت قريبة. وفرك توماس فمه بشعر ميرثيدس وقال لها معاهداً:

- أقسم لكِ إنه لن ينالك أي أذى على الإطلاق. سأنقذك دائماً، مثلما فعلت الليلة. قبّلها ورأى أنها تغمض عينيها. ومن خلال نافذة القطار، كانت تظهر على قمم وسفوح الجبال بين حين وآخر بعض القرى، وصارت تبدو على أحجار الطريق إعلانات دعائية ملونة. كان مساء رصاصياً، بغيوم منخفضة، يتوعد بأمطار لن تأتي أبداً. إنه مناخ ليما.

قاطعه ليتوما من جديد:

- هناك أمور خطيرة تجري في هذه البلاد يا توماسيتو. كيف يمكن لحي كامل في ليما أن تذهله هذه الأكذوبة؟ بعض الأمريكيين الغرينغو يحشرون في سيارات فاخرة أطفالاً في الخامسة من أعمارهم ليقتلعوا عيونهم بمباضع فائقة الديناميكية. هناك حمقى يقولون مثل هذا الكلام بالطبع. فليما لديها دونيا أدريانا خاصة بها أيضاً. ولكن ألا يبدو لك غريباً أن يصدق ذلك حي بكامله وأن يهرع الأهالي لإخراج أبنائهم من المدرسة ويبدؤون البحث عن غرباء لشنقهم؟

- بالنسبة للعيون، عينا ميرثيدس كبيرتان مثل النجوم ولهما لون التشانكاكا[1] - همس الحارس.

لم يعد يشعر بأي قدر من الخوف الآن. لقد أحس بذلك وهما في الأنديز، تحت رحمة مقود ذلك السائق الذي كان كارينيو يريه مسدسه من وقت لآخر حتى يبقى متيقظاً. ولكنه أقام معه علاقة طيبة خلال الرحلة. فقد صدّق، أو تظاهر بأنه صدّق، حكاية أن

---

[1] تشانكاكا (Chancaca) عجينة من دقيق الذرة مع العسل.

كارينيو وميرثيدس هاربان من زوج غيور بلّغ الشرطة عنهما. وقد نـزل السائق لشراء طعام وشراب مرتين واقترح عليهما أن يركبا القطار من ثيرودي باسكو. ومقابل خدماته تلك ترك له كارينيو الرشاشين:

ـ إذا أردت، يمكنك إعادتهما إلى الشرطة كأي مواطن صالح. أو يمكنك أن تبيعهما وتجني كومة من النقود من ألعاب الأطفال هذه.

وقال السائق متمنياً لهما شهر عسل طيب:

ـ سأقرر ما أفعله بهذه الأسلحة بقذف قطعة عملة. سأنتظر بضع ساعات قبل أن أذهب إلى الشرطة.

ـ الصحيفة تقول إن جنوناً مماثلاً حدث في تشيكلايو الشهر الماضي، وكذلك في فيرينيافي ـ واصل ليتوما ـ. يقال إن امرأة رأت أربعة أميركيين يلبسون أردية بيضاء ويقتادون معهم طفلاً؛ وإن جثة طفل آخر قد ظهرت في ساقية وقد اقتلعت منها العينان، وإن سارقي العيون قد وضعوا خمسين دولاراً في جيب الجثة. وقد شكل الأهالي دوريات، مثلما حدث في أياكوتشو عند غزو البيستاكوات. لا أكثر ولا أقل. إن ما يحدث أشبه بجائحة، ألا ترى ذلك؟

ـ كي أكون صريحاً معك يا عريفي، فإن هذا كله لا يهمني قلامة ظفر. فأنا سعيد جداً في هذه اللحظات.

وصل القطار إلى محطة ديسامباردوس قرابة الساعة السادسة. كان الظلام قد بدأ يخيم، ولكنهم لم يكونوا قد أشعلوا الأضواء، وهكذا اجتاز كارينيو وميرثيدس الفناء العلوي في العتمة. لم يكن هناك رجال شرطة في فناء المحطة ولا عند المخرج، باستثناء رجال الحراسة عند سور قصر الحكومة.

قالت ميرثيدس عندما أصبحا في الشارع:

ـ من الأفضل أن يمضي كل منا في حال سبيله الآن يا كارينيو.

ـ هل تفكرين في الذهاب إلى بيتك؟ سيكون مراقباً مثل بيتي. من الأفضل أن نختبئ بضعة أيام عند أمي.

ركبا سيارة أجرة، وبعد أن أعطى الفتى للسائق عنواناً في برينيا، انحنى على مرثيدس ليهمس في أذنها.

ـ أنت تريدين التخلص مني إذن؟

فقالت له بصوت خافت حتى لا يسمعها السائق:

ـ أريد أن أكون واضحة. لقد حدث ما حدث، لا بأس. ولكنني ناضلت كثيراً لأحقق استقلالي في الحياة. فلا تحلم بأفكار زائفة. لن أقبل بأن أكون ذيلاً لحارس أهلي.

ـ بل حارس أهلي سابق ـ قاطعها الفتى.

ـ سنبقى معاً إلى أن نخرج من هذه الورطة التي أوقعتني فيها فقط. أوكي يا كارينيتو؟

ـ لا يمكنني أن أتوقف عن الخلط بين هذا كله وديونيسيو والساحرة ـ قال ليتوما.

ما يحدث يجعل الأمر يبدو وكأن هذين المتوحشين على حق، والحضارة على خطأ. فلم يعد يفيد في شيء معرفة المرء القراءة والكتابة، واستخدامه البدلة وربطة العنق، وذهابه إلى المدرسة وعيشه في المدينة. فالسحرة وحدهم يدركون ما يجري. أتعرف ما الذي قاله ديونيسيو اليوم مساء في الحانة؟ قال إنه من أجل أن يكون المرء عالماً، يجب أن يكون ابن زنا. كلما فتح هذا المترهل فمه أشعر بقشعريرة. ألا تشعر أنت بذلك؟

ـ أنا مصاب بقشعريرة الآن أيضاً، ولكنها قشعريرة من نوع آخر يا عريفي. لأنني بدأت شهر عسلي.

حين وصلت سيارة الأجرة إلى برينيا، وبينما هي تنزل عبر جادة

أريكـا، أضيئت أنـوار الـشارع. دارت الـسيارة حـول مدرسـة لاسـال، واجتـازت الزقـاق المـؤدي إلى العنـوان الـذي أعطـاه الفتـى لـلسائق، وعندئذ أصدر له أمراً معاكساً:

ـ واصـل إلى الأمـام. لقـد غيّـرت رأيـي. مـن الأفـضل أن نـذهب إلى الأحياء العليا.

التفتت إليه ميرثيدس وقد فوجئت، فرأت كارينيو يحمل المسدس فـي يده.

ـ الجنون والشياطين يهيمنون على البيرو بينمـا أنـت غـارق مـع هـذه الأنثى ـ قال ليتوما ـ. صحيح أنه لا وجود لأناني أكبر مـن الغـارق فـي الحب يا توماسيتو.

فأوضح له الفتى:

ـ كـان هناك شخص يقف عند عمود النور، قبالـة بيـت أمـي، ولـم يعجبني ذلك، ربما تكـون مجرد تهيؤات، ولكـن لـم يكـن بإمكـاننـا المجـازفة.

عنـد وصـولهم إلى الأحيـاء العليـا طلـب مـن الـسائق التوقـف بجـوار ملجـأ المـسنين وانتظـر إلى أن ذهبـت الـسيارة، فـسحب ميرثيـدس مـن ذراعها ومشيا قرابة كوادرتين أخريين، حتى وصلا بيتاً تغطـي أبوابـه ونوافذه شباك حديدية، فـي الطابق السفلي مـن بنـاء مؤلـف مـن ثلاثـة طوابق. فُتح الباب فوراً. وظهرت امرأة تضع مئزراً وتنتعل خفاً، راحـت تفحـصها مـن أعلـى إلى أسـفل، دون سـعادة. ثـم قالـت لكـارينيو علـى سبيل التحية:

ـ أنت لا تظهر هنا إلا عندما تسوء أمورك. منذ ألف سنة لم تأتِ.

ـ أجـل أيتهـا الخالـة اليـسيا، إنـني فـي وضـع سـيء بعـض الـشيء حاليـاً ـ اعـترف توماسـيتو وهـو يقبّـل جبهـة المـرأة ـ. هـل الغرفـة الـتي تؤجرينها شاغرة؟

تفحصت المرأة ميرثيدس من قدميها حتى رأسها، ووافقت بزمجرة.

ـ هل يمكنكِ أن تؤجريني إياها لبضعة أيام أيتها الخالة اليسيا؟

فأفسحت لهما الطريق للدخول، وقالت:

ـ لقد شغرت بالأمس.

وحين مرت ميرثيدس بمحاذاتها تمتمت «مساء الخير»، فردت عليها المرأة بهمهمة.

سبقتهما في الممر الضيق الذي عُلقت صور فوتوغرافية على جدرانه، وفتحت باباً وأشعلت النور: إنها غرفة نوم بسرير واحد عليه لحاف وردي اللون، وهناك صندوق يشغل نصف مساحة الغرفة. وكانت هناك نافذة ضيقة دون ستارة، وفوق السرير صليب خشبي معلق.

ـ هذه الليلة لا يوجد طعام، فالوقت قد تأخر ولا يمكن شراء شيء نبهتهما المرأة ـ. يمكنني أن أعد لكما طعام الغداء غداً. وهناك أمر آخر، صحيح أن الحجرة بسرير واحد، إلا أنكما اثنان...

ـ سأدفع لك الضعف. فالحق حق ـ أكد الفتى.

أومأت برأسها موافقة وأغلقت الباب وهي تنصرف.

علقت ميرثيدس:

ـ تظاهرك بأنك قديس لم يكن إلا حكاية. ألم تُحضر نساءً إلى هنا من قبل؟ فهذه المرأة الكريهة لم تتأثر مطلقاً حين رأتني.

فصفر:

ـ يمكن لأي شخص أن يقول إنك بدأت تغارين.

ـ أغار؟

ـ أعرف أن الأمر ليس كذلك ـ قلب كارينيو ـ. ولكنني كنت أريد أن أرى إذا كان بإمكان المزاح أن يُبعد الفزع عن وجهك. لم

أُحضر أحداً إلى هنا على الإطلاق. بل إن اليسيا ليست خالتي. فالجميع ينادونها هكذا. وهذه المنطقة كانت حارتي في وقت سابق. هيا، فلنغتسل ونخرج لتناول الطعام.

وقال ليتوما الذي كان سادراً في ابتعاده عن الموضوع:

ـ يعني أن العلماء، حسب رأي هذا المترهل، هم نسل علاقة أخ بأخته، أو أب بابنته، وفظاعات مثل هذه. الأمور التي أسمع بها في ناكوس لم أسمع بمثلها قطّ في بيورا. يمكن لديونيسيو أن يكون ابن زنا بالطبع. لست أدري لماذا يستحوذ هو والساحرة على تفكيري. إنهما في الواقع صاحبا الأمر والنهي هنا، أما أنت وأنا فليس لنا أي كلمة. أحاول أن أدفع العمال ومراقبيهم والقرويين إلى قول شيء عنهما، ولكن ليس هناك من ينطق بكلمة واحدة. ثم إنني لا أعرف إذا ما كانا يسخران مني. أتعرف ما الذي قاله لي سائق المحدلة الهوانكي عن ديونيسيو؟ قال إن اسمه بالكيتشوا يعني...

فقاطعه مساعده:

ـ آكل اللحم النيء. اللعنة يا عريفي، وهل ستقول لي أيضاً إن صاعقة هي التي قتلت أم الخمّار؟

ـ إنها أمور مهمة يا توماسيتو ـ تلعثم ليتوما ـ من أجل فهم طباعه.

كانت ميرثيدس قد جلست على السرير، وراحت تنظر إلى كارينيو بطريقة بدا للفتى أن فيها شيئاً من التنازل. وقالت له مرة أخرى بمودة محاولة ألا تجرح مشاعره:

ـ لا أريد أن أخدعك. فأنا لا أشعر نحوك بمثل ما تشعره أنت نحوي. من الأفضل أن أخبرك مباشرة، أليس كذلك؟ لن أذهب للعيش معك، لن أكون زوجتك. ليكن هذا واضحاً في رأسك. سنبقى معاً إلى أن نخرج من هذه الورطة فقط.

فخرخر وهو يداعب شعرها:

ـ حتى ذلك الحين سيكون هناك متسع من الوقت لتحبيني. ثم إنك لا تستطيعين الآن تركي حتى وإن كنت راغبة في ذلك. فمن سيُخرجك من هذه الورطة غيري؟ أو بكلمة أدق، من سوى عَرّابي يمكنه أن يخرجنا من ورطتنا؟

استحما في حوض بانيو صغير جداً، حتى ليبدو كأنه لعبة أطفال، ثم خرجا إلى الشارع. أمسك كارينيو ميرثيدس من ذراعها وقادها بخطوات واثقة، عبر شوارع ظليلة، تغص بعصابات صبية يدخنون عند النواصي، حتى وصلا إلى مطعم تشيفا، وكانت الصالة مقسمة إلى حجرات مفصولة عن بعضها البعض ببرابانات متسخة. وكان المحل يعبق بالدخان وروائح المقالي، وفيه مذياع يبث بأعلى صوت موسيقى روك. جلسا في مكان قريب من المخرج، وطلب الفتى زجاجة بيرة مثلجة إضافة إلى عدة أطباق متماثلة لكليهما. وكان يصلهما مع الموسيقى أصوات كلام متفرق وإيقاع كاخون[1].

ـ لقد راهنوا عليّ بالقمار مرةً في لعبة النرد. يجب أن تعرف هذا الأمر يا توماسيتو ـ قالت ميرثيدس وهي تنظر إليه دون أن تبتسم، وكانت تحيط بعينيها زرقة واضحة، ولم تكن عيناها متألقتين مثلما كانتا في تنغو ماريا وفي هوانوكو. وتابعت: ـ إن سوء الطالع يلاحقني منذ ولادتي، وليس بإمكاني عمل أي شيء.

بدا الاهتمام على ليتوما لأول مرة هذه الليلة:

ـ راهنوا عليها في القمار؟ أخبريني كيف حدث ذلك يا توماسيتو.

قالت هي بكآبة:

ـ مثلما سمعت. بعض السكارى والبطالين من أسوأ صنف. راهنوا علي في لعبة النرد. وها أنا ذا أعود من حيث بدأت. لقد كونت

[1] كاخون: (Cajon) آلة موسيقية خشبية لها شكل الطبل.

نفسي بنفسي. لم يساعدني أحد. وكنت أتقدم، إلى أن قطعت أنت طريقي ودفعتني مرة أخرى إلى الهاوية يا كارينيتو.

ـ آه، أخيراً جعلتُك تنسى البيستاكوات ومقتلعي العيون ودونيا أدريانا وديونيسيو يا عريفي.

ـ المسألة أنني رأيت قبل سنوات شيئاً مماثلاً لفت انتباهي ـ ردّ عليه ليتوما ـ. هل قامروا عليها بالنرد هناك في موطنها، في بيورا؟

ـ لم تقل لي أين ولا كيف جرى ذلك. لقد أخبرتني بالأمر فقط، وقد تدلت خصيتاي عندئذ. أيقامرون عليها بالنرد وكأنها متاع؟ أيقامرون على حبي!

ـ ألم تخبرك إذاً ما كان ذلك قد جرى في بار صغير، فيه امرأة تدعى لاتشونغا، هناك على مقربة من استاد بيورا؟

ـ لم تشأ أن تخبرني بأي شيء آخر. ما قالته كان لكي تخبرني فقط كم صعدت في الحياة من النقطة التي بدأت منها. وكيف أنني أعدتها إلى الهاوية بقتلي التشانشو.

ـ ياله من أمر مثير للفضول ـ قال ليتوما ـ. ففي ذلك البار رأيت أحد أصدقائي، واحداً من أولئك «المنيعين» الذين حدثتك عنهم، يبيع أنثاه إلى لاتشونغا لكي يواصل لعب البوكر. فكيف إذا كانت بيورانية قصتك هي نفسها بيورانية قصتي؟ هل أنت متأكد من أن حب حياتك اسمها ميرثيدس وليس ميتشي؟

ـ حسن، كل من اسمها ميرثيدس ينادونها ميتشي أيضاً يا عريفي.

ـ ولهذا السبب لا أستطيع تقبل فكرة العيش متخفية ـ قالت له ـ. فكل هذا بالنسبة إليّ أصبح من الماضي. إنني أريد الذهاب إلى بيتي. أريد أن أستحم في حمامي الذي أحافظ عليه نظيفاً على الدوام. أريد أن أبدل ملابسي وأخلع هذه القذارة التي أرتديها منذ خمسة أيام.

كانت تريد أن تقول شيئاً آخر، ولكن النادل دخل عندئذ ومعه أطباق الطعام، فسكتت ميرثيدس. وحين سألهما إذا كانا يرغبان في تناول الطعام بالشوكة والسكين أم بالعيدان الصينية، قال له كارينيو إنه يفضل العيدان الصينية.

- سأعلمك أن تأكلي مثل الصينيين يا حبي. الأمر بسيط جداً. وحين تتعلمين يمكنك استخدام العيدان كما الشوكة والسكين.

وقالت بينما هما يأكلان:

- كان كل شيء قد بدأ يسير على خير ما يرام في حياتي. كنت أوفر كي أذهب إلى الولايات المتحدة. لي صديقة في ميامي كانت ستسعى للعثور لي على عمل هناك. وها أنا أعود الآن يد من وراء وأخرى من أمام.

- ميتشي، ميرثيدس، يا للصدفة، إنك محق يا عريفي - قال توماسيتو - ماذا لو كانتا الشخص نفسه، وما المانع. إن مثل هذه الصدفة تكفي لأن يؤمن أحدنا بالمعجزات، أو بالبيستاكوات. ولكن عليك فقط أن تخبرني الآن...

- اطمئن، فأنا لم أضاجع ميتشي على الإطلاق يا توماسيتو. وهذا من سوء حظي. لقد كانت أجمل أنثى في بيورا، أقسم لك.

- إذا كنت تريدين الذهاب إلى الولايات المتحدة، فسنذهب إليها معاً - عاهدها الفتى - أنا أعرف كيف يمكننا الدخول دون فيزا عبر المكسيك. هناك شخص أعرفه أصبح الآن مليونيراً في تجارة تهريب الناس هذه.

فقالت وهي تنظر إليه بشفقة:

- هل يمكنني أن أعرف ما هو راتب الحارس الأهلي؟ أظن أنه لا يزيد كثيراً عما أدفعه لخادمتي.

- ربما أقل من ذلك - ضحك - ولماذا تظنينني أضطر إذن للقيام

بـبعض «الزعرنـات»، مثـل حراسـة التشانـشوات بينمـا هـم يعيـشون حياتهم بكل أبعادها مع نسائهم فـي تينغو ماريا؟

أكـلا بـصمت لوقت طويـل، وشـربا معـاً زجاجـة الـبيرة. ثـم طلبـا مثلجات وأشعل الفتى سيجارة. دخن وهـو ينفث الـدخان فـي حلقـات يوجهها إلى السقف.

ـ السخرية فـي هذا كله أنك تبدو سعيداً ـ قالت له.

فقال وهو يرسل إليها قبلة طائرة:

ـ إنني سعيد حقاً. هل تريدين معرفة السبب؟

وابتسمت ميرثيدس رغم إرادتها:

ـ أعرف ما الـذي ستقوله. ـ وظلـت تنظـر إليـه تلك النظـرة الـتي لا يـستطيع كـارينيو أن يفهـم إذا مـا كانـت نظـرة حـزن أم ازدراء، وأضـافت: ـ بـالرغم مـن أنـك خرَّبـت حيـاتي، إلا أنـني لا أسـتطيع أن أغضب منك.

قال لها مبتهجاً:

ـ شيء أفضل من لا شيء. فهكذا تبدأ الأمور ثم ينتهي أحدنا إلى المضاجعة.

فضحكت برغبة أكثر مما فـي السابق:

ـ هل أحببت من قبل؟

ـ لم أحب يوماً مثلما أحبُّ الآن ـ أكد الفتى بحـزم ـ. ولم أحب أحداً مثلما أحببتك. حسن، فأنا لم أتعرف كذلك من قبل على امـرأة بمثل جمالك.

قال له ليتوما:

ـ قد تكون ميتشي نفسها، فالحيـاة تقـدم مثل هـذه المـصادفات. هل لديك صورة لها؟

فتحسر الفتى:

ـ لم يُتح لنا وقت حتى لالتقاط صورة معاً. أنت لا تعرف مدى حزني. فكم سيكون رائعاً لو كانت لدي صورتها، لأنني لن أتذكرها عندئذ فقط، بل سأراها أيضاً.

ـ لقد تعرفت عليه قبل أسابيع قليلة فقط. في نادٍ كريوللي في بارانكو. جاء يومها لرؤيتي في الاستعراض. ثم أخذني إلى بيته في تشاكاريا دل استانكي. يا له من بيت! قدم لي هدايا. عرض علي شقة. وكل ما أشاء شريطة أن أكون له وحده. وهكذا جاءت الرحلة المشؤومة إلى بوكالبا. تعالي لقضاء نهاية الأسبوع معي، ستتعرفين على الأدغال. وذهبت إليه. ومن سوء حظي أنني ذهبت للقاء به ثانية في تنغو ماريا.

اكتست ملامح الفتى بالجدية:

ـ ومنذ المرة الأولى التي ضاجعت فيها التشانشو كان يضربك؟

ثم ندم على الفور لما قاله.

ـ هل ستحاسبني؟ ـ قالت له غاضبة ـ هل صدقت أنك صرت الآن خطيبي أو زوجي؟

وقال الفتى محاولاً إصلاح الأمور:

ـ أرى أننا قد بدأنا شجارنا الأول. هذا يحدث بين جميع الأزواج. فلنتوقف عن الكلام في هذا الأمر. هل أنت راضية؟

بقيا صامتين قليلاً، وطلب كارينيو فنجاني شاي. وبينما هما يشربانهما، عادت ميرثيدس إلى الكلام، دون غضب، ولكن بحزم:

ـ بالرغم من أنني رأيتك تقتل رجلاً، إلا أنك تبدو لي شخصاً طيباً. فإنني أقول لك للمرة الأخيرة يا كارينيتو، إنني آسفة لأنك وقعت في غرامي. ولكنني لا أستطيع التجاوب معك. إنها طريقتي في الحياة. فمنذ وقت طويل قررت عدم السماح لنفسي بحب أحد. ولماذا تظنني لم أتزوج؟ هذا هو السبب. لقد أقمت صداقات، ولكن

دون أي التزام. مثل علاقتي مع تشانشو. هكذا كانت كل علاقاتي. وهكذا سأبقى..

فقاطعها:

- إلى أن نذهب إلى الولايات المتحدة.

- أنت لا تغضب أبداً؟ - ابتسمت ميرثيدس أخيراً.

ــ معك لن أغضب أبداً. يمكنك أن تواصلي قول أفظع ما يمكنك.

- الحقيقة أنك بدأتَ تنال إعجابي - اعترفت له.

دفع الفتى الحساب. وقبل خروجهما قالت ميرثيدس إنها تريد الاتصال هاتفياً بشقتها.

- لقد أعرتها لإحدى صديقاتي لتقيم فيها بينما أنا في الغابة.

ــ لا تخبريها من أين تتكلمين، ولا تعطيها موعداً مؤكداً لعودتك.

كان الهاتف قرب الصندوق، وقد اضطرت ميرثيدس للمرور من تحت مائدة الكونتوار. وبينما هي تتكلم، عرف كارينيو أنها تتلقى أخباراً سيئة بالرغم من أنه لم يكن يسمع ما تقوله. جاءت نحوه مذعورة، وكانت ذقنها ترتعش:

- لقد ذهب شخصان إلى البيت للسؤال عني، وألحا على صديقتي لتخبرهما بمكان وجودي. كانا من الشرطة، فقد عرضا عليها وثائقهما.

- وماذا قلتِ لها؟

- أخبرتها أنني أتصل من تنغو ماريا، وأنني سأشرح لها كل شيء فيما بعد - قالت ميرثيدس -. ماذا سأفعل الآن، يا ربي!

ـ وماذا جرى لميتشي تلك التي باعها صديقك للسحاقية كي يواصل لعب البوكر؟ سأل توماس.

فرد عليه ليتوما:

- تحولت إلى دخان، لم نعد نعرف عنها أي شيء. إنها سر شغل بيورا بأسرها.

- الآن ستنامين وتنسين كل شيء - قال لها الفتى -. لا يمكن لأحد أن يفكر في البحث عنا في بيت الخالة اليسيا. اطمئني يا حبي.

- ولم تشأ لاتشونغا أن تقول لنا كلمة واحدة عن المصير الذي انتهت إليه ميتشي.

- أرى أن المختفين يلاحقونك في كل مكان يا عريفي. لا تلقِ كثيراً من اللوم على ديونيسيو ودونيا أدريانا، ولا على الإرهابيين أو البيستاكوات. فأنا أرى أن المذنب في هذه الاختفاءات قد يكون أنت نفسك يا عريفي.

VII

كان الظلام ما يزال مخيماً حين جاء فرانثيسكو لوبيث وأخرج العريف ليتوما من نومه القلق. فقد كان عليهما أن يغادرا فوراً لأنه لا بد للوبيث من العودة إلى لاسبيرانثا قبل الغروب. كان قد أعدّ قهوة وحمّص خبزاً في الفرن الصغير. وكان المهندسان والبروفسور لا يزالون نائمين عندما انطلقا في رحلتهما إلى ناكوس.

كانت الرحلة قد استغرقت قرابة ثلاث ساعات عند مجيئهما، ولكن العودة تطلبت وقتاً مضاعفاً. فقد هطل المطر بغزارة على أعلى سلسة الجبال في الليلة السابقة، وكان الدرب مغموراً بالماء ومسدوداً بالانهيارات. فكان على العريف والسائق أن ينزلا ويدحرجا الصخور لكي يفتحا الطريق أمام السيارة التي كانت تغرّز في الوحل فيضطران إلى دفعها أو إلى إخراجها من الوحل بوضع قطع من الخشب أو الأحجار المسطحة تحت عجلاتها.

في أول الأمر باءت بالفشل كل محاولات فرانثيسكو لوبيث لفتح حديث مع ليتوما. فكلما وجّه إليه كلمة كان يتلقى منه زمجرات أو همهمات أو حركات من رأسه. ولكن بعد ساعة من بدء الرحلة، قطع العريف صمته فجأة ودمدم من وراء لفاعه الذي يغطي فمه:

- يجب أن يكون الأمر هكذا، فجبليو البراز قدموهم قرابين إلى الآبووات.

التفت إليه فرانثيسكو لوبيث مشوشاً:

- هل تعني المختفين الثلاثة في ناكوس؟

فأكد ليتوما:

- إنهم هكذا أبناء العاهرة الجبليون هؤلاء، حتى ولو بدا الأمر أشبه بكذبة. ديونيسيو والساحرة هما اللذان أدخلا الفكرة في رؤوسهم بالطبع.

وضحك فرانثيسكو لوبيث:

– ديونيسيو هذا قادر على اقتراف أقبح الفظاعات. يجب ألا يكون صحيحاً قولهم إن الخمر تقتل. وإلا كيف يبقى سكير مثله حياً؟

- هل تعرفه منذ زمن طويل؟

- كنت ألتقي به في كل أنحاء سلسلة الجبال منذ صباي. كان يأتي دائماً إلى المناجم، حيث كنت أعمل. لقد كنت أستميل الفلاحين للعمل في المناجم قبل أن أتولى مهمة الأمن فيها. ولم يكن لديونيسيو في ذلك الحين مكان إقامة ثابت، فقد كان خمّاراً متجولاً. كان يبيع البيسكو والخمر متنقلاً من منجم لآخر، ومن قرية لأخرى، ويقدم استعراضات مع زمرة من البهلوانات المشعوذين. وكان الرهبان يجبرونه على الهرب مستعينين بالشرطة. عفواً، نسيت أنك واحد منهم أيضاً[1].

كان ليتوما ما يزال يغطي رأسه باللفاع وبقبعته الغاطسة إلى منتصف جبهته، ولم يكن بإمكان السائق أن يميز إلا وجنتيه وأنفه الأفطس وعينيه القاتمتين المغمضتين اللتين تتفحصانه.

- وهل كان متزوجاً من دونيا أدريانا؟

- لا، لقد تعرف عليها فيما بعد في ناكوس. ألم يخبروك؟ إنها إحدى أكبر القصص المتداولة في الأنديز. يقال إنه من أجل

[1] سبب الاعتذار أنه لم يستخدم كلمة (Policia) للإشارة إلى الشرطة، وإنما كلمة (Cachaca) وهي تسمية محلية لرجال الشرطة تنطوي على بعض الازدراء.

الاستيلاء عليها، قتل عامل المنجم الذي كان زوجاً لها، ثم سطا عليها بعد ذلك.

ـ هناك أمر لا يخيب أبداً ـ هتف ليتوما ـ. فحيث يظهر هذا الشخص، يصبح كل شيء فساداً ودماء.

قال السائق:

ـ والآن لم يعد ينقصنا إلا شيء واحد: الطوفان الشامل.

كان المطر قد بدأ يهطل بغضب حقيقي. فقد تلبدت السماء بسرعة ودوت الرعود التي رددت أصداءها الجبال. كانت تسقط على زجاج السيارة الأمامي ستارة من قطرات كبيرة لا تستطيع معها ماسحتا الزجاج فتح مجال الرؤية لتجنب المطبات والمخاضات. فكانا يتقدمان ببطء شديد، وكانت السيارة تبدو مثل حصان حرون.

قال ليتوما دون أن يرفع عينيه عن السائق:

ـ وكيف كان ديونيسيو آنذاك. هل تعاملت معه بعض الشيء؟

فقال فرانثيسكو لوبيث:

ـ لقد كنت أسكر معه أحياناً، ولا شيء أكثر من ذلك. فدائماً كان يأتي إلى المهرجانات مع موسيقييه وبعض الهنديات نصف العاهرات اللواتي يرقصن مقنعات. وفي إحدى المرات رأيته في مهرجان خاوخا يجن في رقصة «خالاباتو»[1]. هل تعرف هذه الرقصة الخاوخية؟ إنهم يرقصون، ويرقصون، وفي أثناء دورانهم ينتزعون رأس بطة حية. وقد راح ديونيسيو يومذاك ينتزع رؤوس كل البطات دون أن يتيح للآخرين المشاركة في اللعبة. فانتهى بهم الأمر إلى طرده.

كانت سيارة الجيب تتقدم بخطوات سلحفاة وسط مشهد دون أشجار ولا حيوانات، بين صخور ووهاد وقمم وأنهار متلوية تزعزعها خراطيم ماء المطر. ولكن العاصفة لم تكن لتحوّل ليتوما عن الفكرة

---

[1] رقصة خالاباتو (Jalapato) تعني حرفياً: شدّ البطة.

المتسلطة على عقله. كانت هناك تجعيدة عميقة ما بين حاجبيه، وكان يتمسك بباب سيارة الجيب وسقفها لكي يقاوم الاهتزازات.

ـ هذا الشخص يسبب لي الكوابيس ـ قال معترفاً ـ. إنه المسؤول عن كل ما يحدث في ناكوس.

ـ الغريب أن الإرهابيين لم يقتلوه بعد. إنهم يعدمون المخنثين والسكيرين والمومسات وكل أنواع الفاسدين. وديونيسيو هو كل هذه الأشياء وأكثر. ـ وبينما كان فرانثيسكو لوبيث يقول ذلك ألقى نظرة سريعة على ليتوما، وأضاف: ـ يبدو لي أنك قد اقتنعت بتلك القصص التي رواها الحمى القرمزية أيها العريف. لا تهتم به كثيراً. إنه غرينغو كثير الأوهام. هل تعتقد حقاً أنه جرى تقديم أولئك الثلاثة قرابين؟ حسن، ولم لا. ألا يقتلون هنا أيّاً كان ولأي سبب؟ فكل يوم تُكتشف قبور، مثل ذلك القبر الذي عثر فيه على جثث عشرة انجيليكانيين في ضواحي هواتنا. فما الغرابة في أن تبدأ طقوس القرابين البشرية أيضاً.

ضحك السائق، ولكن ليتوما لم يبتهج للنكتة، وقال:

ـ ليس الأمر مزاحاً. ولكن سلسلة من الرعود قطعت ما كان سيضيفه.

وقال فرانثيسكو لوبيث صارخاً حين صار بإمكانه إسماع صوته:

ـ لست أدري كيف ستواصل سيراً على قدميك حتى ناكوس. إذا كان المطر هناك يهطل بهذه الغزارة فسيكون المنحدر مسيلاً متدفقاً من الوحل. أليس من الأفضل أن ترجع معي إلى المنجم؟

ـ ولا بأي شكل ـ دمدم ليتوما ـ. يجب أن أكشف النقاب عن هذه القضية مرة واحدة.

ـ لماذا أنت مهتم كثيراً بقضية المختفين أيها العريف؟ فماذا يهمك في نهاية المطاف أن ينقص العالم أو يزيد ثلاثة مقملين؟

ـ لقد كنت أعرفُ واحداً من الثلاثة. إنه أبكم كان ينظف لنا المخفر. لقد كان شخصاً طيباً جداً.

ـ أنت تريد أن تكون جون واين الأفلام أيها العريف. تريد أن تكون العادل المتوحد.

حين وصلا بعد نحو ساعتين من ذلك إلى المكان الذي يتوجب فيه على سيارة الجيب أن تعود، كان المطر قد توقف. ولكن السماء كانت ما تزال متلبدة، وكانت تُسمع في البعيد رعود العاصفة وكأنها قرع طبول غير موزون.

قال فرانثيسكو لوبيث:

ـ هناك شيء يقول لي ألا أتركك وحيداً. أتريد أن نبقى معاً بعض الوقت ريثما يجف الدرب؟

فقال العريف وهو ينزل من الجيب:

ـ لا، لا انتهز الفرصة الآن لترجع قبل أن يتجدد هطول المطر.

مد يده مصافحاً وسمع بصعوبة مسؤول الأمن في منجم لاسبيرانثا يشكره لذهابه إلى المنجم ورفعه التقارير. وحين بدأ الهبوط على الدرب الضيق، سمع صوت تشغيل المحرك وابتعاد سيارة الجيب.

عندئذ زمجر بكل قواه:

ـ يا أعظم اللعنات! يا جبليي البراز! أيها المشعوذون الوثنيون، يا هنود البراز، يا أبناء أعظم العاهرات!

سمع صوته يتكرر في الصدى، ويتردد ما بين جدران الجبال الشاهقة التي جعلها الضباب غير مرئية. أحسَّ بالراحة بعد تفريغ تلك الشحنة من الشتائم. جلس على صخرة وجعل من كفيه عشاً كيلا تنطفئ النار، وأشعل سيجارة. ذلك هو ما حدث، لقد اتضح كل شيء في ذهنه. فقد حلَّ له اللغز ذلك البروفسور المهووس بالبيرو. هذه

هـي فائـدة التـاريخ إذن. وتـذكّر الـدروس الـتي كـان يمليهـا علـيهم الأستاذ نيستور مارتوس فـي مدرسة سان ميغيل فـي بيورا. لقد كـان حينئـذ يتلـهى فـي دروس التـاريخ، لأن الأسـتاذ مـارتوس كـان يـأتي بمظهره القبيح، ملتحياً ومخموراً بالتشيتشا، وكان يشرح كل شـيء بألوان التكنيكلر. ولكن لم يخطر له مطلقاً أن دراسة عـادات قـدماء البيرويين يمكنها أن تفـيده فـي فهم ما يحدث الآن فـي ناكوس.

شكراً أيها الحمى القرمزية لأنك حللت لي اللغز. ولكنه بدأ يشعر بخمود همة وتشوش أكثر من السابق. فبالرغم من أن عقله كان يقـول لـه إنـه لـيس ثمـة مجـال للشك، وبـالرغم مـن أن كـل الأجـزاء كـانـت تكمّل بعضها البعض، إلا أنه كان يـرفض فـي أعماقـه تـصديق ذلـك. كيـف يمكـن لـرأس طبيعـي، حتـى ولـو كـانـت جبهتـه لا تزيـد علـى إصبعين فقط، أن يتقبل فكـرة إقدامهم على تقـديم بيـدريتو تينوكيـو والشخـصين الآخـرين قـرابين لأرواح الجبـال الـتي سـيمر منهـا الطريـق؟ وحـاكم القريـة المنحـوس ذاك؛ يـأتي ليختبـئ هنـا، باسـم مزيـف، هربـاً من الإرهـابيين، لينتهي به المطاف إلى أن يتهشم فـي حفرة منجم.

أطلق نفثة الدخان وتأمل كيف تحملها الريح وتجعلها تتلوى. عـاد إلى الـسير مـن جديـد. كـان الطريـق كلـه نـزولاً، ولكـن المطـر محـا الـدرب وكـانـت الأرض زلقـة كـالـصابون فاضـطر إلى المـشي بحـذر شـديد كـيلا ينزلـق ويـسقط علـى وجهـه. وبـدلاً مـن الـساعة ونـصف الساعة التي استغرقها فـي قطع هذا الطريق ماشياً هـو وفرانثيـسكو لوبيث قبل يـومين، فإنـه سيـستغرق الآن ثلاثـة أضعـاف المدة. ولكـن، من الأفضل له أن يمشي ببطء حتى لا يكسر سـاقه فـي هـذه القفـار التي لا وجود فـيها حتى لعصفور يقلل من إحساسه باليتم.

مـا الذي سيقوله توماسيتو؟ وتـصور وجـه مـساعده، وملامـح عـدم التصديق فـي عينيـه، والرغبـة فـي التقيـؤ الـتي سـتداهمه. أو ربمـا لا

يحدث ذلك، فتفكيره في بيورانيته يحصنه ضد القنوط. لقد أقنعتهم دونيا أدريانا؛ إذا أردتم تفادي نكبة كبرى في المشروع، تفادي هوايكو أو زلزال أو مجزرة، فليس هناك سوى حلّ واحد: تقديم دم بشري إلى الآبووات. ولا بد أن زوجها المترهل قد أسكرهم من أجل تليينهم وجعلهم يتقبلون النصيحة. لست أصدق يا عريفي. هذا ما جرى يا توماسيتو. وفيه تجد تفسيراً لما يقولونه جميعهم من أن دونيا أدريانا وزوجها هما مبتدعا الفكرة. ولكن هنالك أمر غير واضح. إذا كان الأمر قرباناً للآبووات، أفلم يكن يكفي شخص واحد؟ لماذا ثلاثة؟ من يدري يا توماسيتو. ربما كان لابد من تهدئة حشد الآبووات. فالطريق يجب أن يجتاز عدة جبال، أليس كذلك؟

زلت قدمه ووقع جالساً في الوحل. فنهض ثم وقع ثانية، على جنبه هذه المرة. ضحك من بلادته، ولكنه في الواقع كان يرغب في البكاء بصوت عال. يبكي حال بدلته المزرية، وخدوش يديه، ويبكي بصورة خاصة لأن العالم والحياة تحولا في نظره إلى شيء لا يطاق. مسح راحتيه بمؤخرته وواصل سيره مستنداً إلى الصخور في كل خطوة يخطوها. كيف أمكن لهؤلاء العمال، وهم في غالبيتهم متمدنون، أنهوا المدرسة الابتدائية على الأقل، وعرفوا المدن، ويستمعون إلى المذياع، ويذهبون إلى السينما، ويلبسون مثل المسيحيين، كيف أمكن لهم أن يقدموا على عمل من أعمال المتوحشين وأكلة لحوم البشر؟ يمكن فهم ذلك إذا أقدم عليه هنود البونا الذين لم يدخلوا مدرسة، ما زالوا يعيشون مثل أسلافهم القدماء. ولكن كيف يفعلها هؤلاء الأشخاص الذين يلعبون الورق والمعمَّدون.

كان قد استعاد بعض صفائه، وفي البعيد، إلى أسفل، لمح ليتوما أنوار المعسكر من خلال رمادية النهار. وعندئذ انتبه إلى أنه إضافة إلى الرعود البعيدة، هناك اهتزاز متواصل في الأرض، أي

لعنة هذه؟ إنها عاصفة أخرى ستداهمه من ورائه. فحتى عناصر الطبيعة غادرة في جبال الأنديز المقرفة هذه. أي عهر يجري؟ أهو زلزال؟ أهي هزة أرضية؟ لم يعد لديه الآن شك: إن الأرض تهتز تحت قدميه وتنبعث منها روائح زيت التربنتين. تحيط به ضجة صماء، عميقة، تخرج من قلب الجبل. وفيما حوله، بين قدميه، تتدحرج حصوات ورقائق حجرية مدفوعة بأيد غير مرئية، وانتبه في بحثه غير الواعي عن حماية إلى أنه قد قبع على أربعٍ تحت صخرة عالية ذات رأس مدبب، عليها لطخات من طحالب مائلة إلى الصفرة.

«ماذا هنالك يا ربي، ما الذي يحدث»، صرخ بذلك وهو يرسم إشارة الصليب، إنما لم يكن لصوته أي صدى لأن تلك الضجة الكثيفة، المتعددة، الجبارة، ذلك الشخير الغرانيتي، ذلك التدحرج نحو الأسفل كان يبتلع كل الأصوات الأخرى. يقولون إن صاعقة قتلت أم ديونيسيو. فهل ستقتله صاعقة أخرى الآن؟ كان يرتجف من قدميه إلى رأسه، وكان الخوف يضمخ يديه بالعرق. وصرخ: «لا أريد أن أموت يا ربي، من أجل أكثر الأشياء قداسة» وأحس بالتشقق والجفاف في حنجرته.

كانت السماء قد ازدادت ظلمة، وبالرغم من أن الوقت كان ما يزال في بداية ما بعد الظهر، فقد بدا له وكأن الليل قد حلّ. وكما في الأحلام، رأى أنثى فيسكاش كبيرة بحجم أرنب تظهر من بين الأحجار وتمرق بمحاذاته متجهة نحو أسفل، تركض مذعورة، وكانت أذناها متيبستين وهي تركض متعثرة دون أن تدري إلى أين؛ ثم اختفت أخيراً. حاول ليتوما أن يصلي ولكنه لم يكن قادراً حتى على الصلاة. أهو زلزال؟ هل سيموت سحقاً تحت إحدى هذه الصخور التي تمر متدحرجة، متقافزة، متصادمة، متشظية، متفتتة إلى يمينه ويساره في دوي يبعث على الجنون؟ الحيوانات لها حاسة سادسة، إنها تشم الكوارث. والفيسكاش الصغيرة خرجت من جحرها هاربة

لأنها أحست بقدوم نهاية العالم. وصرخ: «اغفر لي خطاياي. لا بد أن أنتهي هنا، اللعنة!» كان متكوراً على نفسه وقابعاً على أربع، ملتصقاً بالصخرة، يرى إلى يمينه ويساره وفوق رأسه مرور كتل من التراب، وصخور من كل الأشكال التي يمكن تصورها، شاعراً أن الصخرة تهتز مع اصطدام القذائف التي ترتطم بها وترتد عنها. كم ستتحمل هذه الصخرة؟ أحس بحجر هائل يتدحرج من أعلى الجبل، ويتجه مباشرة نحو الصخرة التي تحمي ظهره، ويسقط فوقها ليسحقها ويسحقه معها في ثانية واحدة. وبينما عيناه مغمضتان رأى جسده وقد تحول إلى عجينة، إلى ماثامورا عفنة ودامية من عظام ولحم ودم وشعر ونتف من الثياب والحذاء، كلها مختلطة ببعضها البعض ومدفونة في الطين ومنجرفة نحو الأسفل، نحو.. نحو..، عندئذ فقط خطر له أن هذا الانهيار، هذا الجبل الذي يتفتت ويتهدم يتجه بحمولته من النيازك نحو المعسكر. «إنه الهوايكو إذن»، وراح يفكر، وعيناه مغمضتان دائماً، وهو يرتجف مثل محموم: «سيسحقهم جميعاً هناك في الأسفل بعد أن يسحقني أنا».

حين فتح عينيه، ظن أنه كان يحلم. فإلى يمينه، ووسط غمامة كثيفة من الغبار، كانت تتدحرج صخرة ضخمة بحجم شاحنة تتطاير من حولها قطع من الثلج، حاملة أمامها كل ما تجده في طريقها، وشاقة جادة عريضة كأنها مجرى نهر كبير، تتبعها زوبعة من الصخور والأحجار والحصى والأخشاب وكتل الثلج والتراب، وبدا لليتوما أنه يرى وسط ذلك الخليط الصاخب حيوانات ومناقير وريشاً وعظاماً. كانت الضجة تصم الآذان وكان الغبار يتكاثف، وقد غطاه هو نفسه الآن. أخذ يسعل مختنقاً. وكان هناك دم على يديه اللتين يتشبث بهما بالأرض الموحلة. «إنه الهوايكو إذن يا ليتوما»، كرر ذلك وهو يشعر بضربات قلبه في صدره. «إنه يقتلك

بالتجزئة» عندئذ أحسَّ بضربة على رأسه ذكّرته في ومضة باللكمة التي حلم بها في تلك المرة التي تشاجر فيها مع الكامارون بانيثو، تحت جسر بيورا القديم، وجعلته يرى كذلك نجوماً وأقماراً وشموساً، مثلما يرى الآن، بينما هو يغرق وكل شيء ينتهي بالنسبة إليه.

عندما استعاد وعيه كان ما يزال يرتجف، ولكنه كان يرتجف الآن من البرد الذي جعل عظامه تصطك. كان الوقت ليلاً، وبسبب الآلام التي أحس بها حين حاول التحرك، خيّل إليه وكأن سيارة قد مرت فوقه وطحنت كل ما هو تحت جلده. ولكنه كان حياً، وكانت الروعة في أنه بدلاً من الدوي وكتل التراب والحجارة والصخور، كان يخيم على الدنيا الآن سكون جليدي هادئ. وكان ذلك السكون أشد وضوحاً في السماء. ونسي جسده لبضع ثوان، مفتوناً بالمشهد: آلاف، بل ملايين النجوم من كل الأحجام كانت تتلألأ حول تلك الدائرة الصفراء وكأنها تضيء له وحده. لم يرَ مطلقاً من قبل ليلاً مفعماً بالنجوم وهادئاً وعذباً مثل هذه الليلة. كم من الوقت ظل غائباً عن الوعي؟ ساعات؟ أيام؟ ولكنه كان حياً ولا بد له من أن يتحرك. لأنه إذا لم يفعل فسوف يتجمد يا صاحبي.

انقلب ببطء إلى جانب ثم إلى الجانب الآخر، وبصق، فقد أحس بفمه مختوماً بالتراب. هذا الصمت الذي لا يُصدق بعد ذلك الصخب المرعب. إنه صمت مرئي، يمكن سماعه ولمسه. في أي لحظة أضاع فردة جزمته اليسرى؟ لم يكن هناك أي عظم مكسور في جسده كما يبدو. لقد كان كل شيء يؤلمه، ولكن ليس هناك ألم محدد في جزء بعينه منه. لقد نجا، وهذا هو الشيء الرائع. ألم تكن معجزة؟ لقد مر عليه الهوايكو، ليس أقل من ذلك. أو مرّ بجانبه بكلمة أدق. وها هو ذا، مضعضع، ولكنه حي. وفكر: «نحن البيروانيون عظام قاسية لا يمكن سحقها». وامتلأ بالزهو المسبق وهو

يتخيل ذلك اليوم الذي سيعود فيه إلى بيورا، وسيروي لشلة المنيعين في بار لاتشونغا قصة هذه المغامرة العظمى.

كان قد نهض واقفاً، وعلى ضوء القمر الشاحب، رأى فيما حوله الأضرار التي أحدثها الانهيار. ذلك الدرب الذي شقته تلك الصخرة الهائلة. المكان كله مغطى بالأحجار والصخور والوحل. وكانت بقع من الثلج منثورة هنا وهناك فوق الطين. ولكن لم تكن ثمة رياح ولا أي علامة تشير إلى احتمال هطول المطر. استكشف العتمة في الأسفل، حيث يجب أن يكون المعسكر. فلم يلمح أي ضوء. أتكون العنابر، والرجال، والآلات وكل شيء قد دُفن تحت شلال التراب والوحل والأحجار؟

انحنى، وتلمس، وبحث، ووجد فردة جزمته. كانت ممتلئة بالتراب. نظفها كيفما استطاع وانتعلها. وقرر النزول فوراً وعدم انتظار النهار. فتحت ضوء هذا القمر، وبالمشي متمهلاً يمكنه الوصول. كان مطمئناً وسعيداً. وكأنه قد اجتاز امتحاناً. هكذا فكر، وكأن هذه الجبال البرازية، هذه السلسلة البرازية قد تقبلته أخيراً. وقبل أن يبدأ المسير، أطبق شفتيه على الصخرة التي حمته مثلما كان سيفعل أي جبلي، وهمس: «شكراً لأنك أنقذت حياتي يا ماماي[1]، يا آبوو، يا باتشاماما[2] أو أي فرج تكونين».

❖ ❖ ❖

«كيف جرت قصتك مع البيستاكو يا دونيا أدريانا؟» كانوا يسألونها فور تناولهم الكأس الأولى، لأنه ليس هناك ما يروقهم أكثر من موت الذبّاح. «أكان البيستاكو الذي ساعدتِ في قتله هو

---

[1] ماماي (mamay): لفظة احترام وتوقير بالكيتشوا وهي تأنيث لكلمة باباي التي مرت سابقاً.

[2] باتشاماما (Pachamama): الأرض بلغة الكيتشوا.

نفسه الذي جفف ابن عمك سيباستيان؟» لا، إنه بيستاكو آخر. لقد حدث ذلك قبل وقت طويل. وكانت أسناني آنذاك كاملة ولم تكن في جسدي أي تجعيدات. أعرف أن هناك روايات كثيرة، وقد سمعتها كلها، ربما إن وقتاً طويلاً قد انقضى، وقد امحت من ذاكرتي بعض التفاصيل. لقد كنت شابة آنذاك، ولم أكن قد خرجت من قريتي. لا بد أنني الآن هرمة جداً.

قريتي كينكا بعيدة، في الجهة الأخرى من مانتارو، بالقرب من باركاسبامبا. حين كان النهر يتعاظم كثيراً بفعل الأمطار ويطغى على الأراضي، تتحول القرية إلى جزيرة، محصورة في أعلى الجبل ومحاطة بمستنقعات عميقة. كانت كينكا تلك قرية جميلة، مزدهرة، حقولها منثورة، في السهل والجبال. تنمو فيها جيداً البطاطا والفول والشعير والذرة والفلفل، وتحمينا فيها أشجار الموللي والأوكاليبتوس والصفصاف من الرياح العاصفة. وحتى أفقر الناس فيها كانوا يملكون بعض الدجاج أو الخنازير أو الخراف أو قطيعاً صغيراً من اللاما يرعونه في الأعالي. وكنت أعيش مطمئنة. وكنت مدللة أكثر من كل أخواتي. وكان أبي، عمدة كينكا، يؤجر ثلاث قطع من أرضه ويزرع اثنتين بنفسه، وكان يملك المتجر والحانة والصيدلية ومشغل الأدوات، والمطحنة التي يأتي إليها الجميع لطحن حبوبهم. وكان أبي يترأس المهرجانات في أحيان كثيرة، فينسى البيت في كل مرة ويُحضر إلى القرية كاهناً ويتعاقد مع فرق موسيقيين وراقصين من هوانكايو. وبقيت الحال على هذا المنوال إلى أن أتى البيستاكو.

كيف عرفنا بمجيئه؟ بسبب التبدل الذي طرأ على مورِّد المؤن سالثيدو الذي كان منذ سنوات يورّد الأدوية والملابس والأدوات المنزلية لدكان أبي. كان ساحلياً. كان يتجول في سيارة عجيبة

تملؤها الرقع، ويعلن محركها وحدائدها عن مجيئها قبل أن يتمكن أهالي كينكا من رؤيتها بكثير. الجميع كانوا يعرفونه، ولكننا كدنا أن لا نتعرف عليه في تلك المرة. كان قد كبر وسمن حتى تحول إلى مارد هائل. وكانت له في تلك المرة لحية بلون صرصار وعينان محتقنتان وبارزتان. وكان ينظر إلينا نحن الذين احتشدنا لاستقباله وكأنه يريد أن يأكلنا بعينيه. الرجال منا والنساء على السواء، وإليّ أنا أيضاً. وكانت نظرة لا يمكنني أن أنساها أثارت شكوك الجميع.

كان يرتدي ثياباً سوداء مع جزمة تصل حتى ركبتيه، ويضع عباءة بونتشو كبيرة جداً يبدو سالثيدو معها، حين تحركها الريح، وكأنه سيطير. أفرغ ما في شاحنته وبات في الغرفة الخلفية لمتجرنا، كما في المرات الأخرى. لم يعد ذلك المحدث الذي يأتي بأخبار الخارج ويصادق الناس. كان صامتاً، مستغرقاً في ذاته، ونادراً ما يوجه كلمة إلى أحد. فقد كان يغرس في الجميع نظرات ثاقبة تثير ريبة الرجال وفزع الفتيات.

بعد أن أمضى يومين أو ثلاثة أيام في كينكا وتلقى قائمة طلبات أبي، غادر مع الفجر وفي اليوم التالي نزل إلى القرية أحد الصبية الذين يرعون القطعان في الأعالي ليعلن أن الشاحنة قد خرجت عن الطريق وتدهورت في أحد منعطفات الجبل، على طريق باركاسبامبا. وكانت تظهر من حافة الهاوية وهي مفتتة في قعر الهوة.

ذهبت مع أبي على رأس جماعة من الجيران، وبعد جهود مضنية تمكنوا من النزول إلى هناك. ووجدوا إطارات الشاحنة الأربعة، ونوابضها، وصفائحها المبعوجة، وهيكلها، وأجزاء من محركها مبعثرة في دائرة واسعة. ولكنهم لم يجدوا أثراً لجثة سالثيدو. أعادوا البحث في المنحدر مفكرين بأنه ربما يكون قد طار خارج الشاحنة

لدى تدهورها. فلم يظهر له أثر أيضاً. ولم تكن هناك أي دماء على أجزاء السيارة أو على الصخور المحيطة. ربما يكون قد قفز عندما أحس بالسيارة تنحرف عن الطريق؟ وقالوا: هذا ما حدث بالتأكيد. لا بد أنه قفز ثم ركب سيارة أخرى عابرة، وهو الآن في باركاسبامبا أو في هوانكايو، يعالج نفسه من الذعر الذي أصابه».

الحقيقة أنه بقي في كينكا في مغاور قديمة جداً في الجبل نفسه الذي تدهور فيه، وتلك المغاور تشبه خلية زنابير وعلى جدرانها رسوم من القدماء. ومنذئذ بدأ باقتراف شروره كبيستاكو. صار يظهر ليلاً في الدروب، على جسر، وراء شجرة، يعترض الراعي المتأخر، المسافرين، البغالين، المهاجرين، ومن يحملون محاصيلهم إلى السوق والعائدين من المهرجانات. كان يظهر مثل العدم، وفجأة وسط الظلال، تبدأ عيناه بإطلاق الشرر. وكان شبحه الضخم المتسربل بالبونتشو المتطاير يشل من يرونه من الخوف. وعندئذ كان يقتادهم بكل سهولة إلى مغارته ذات السراديب الجليدية المظلمة، حيث يملك أدواته الجراحية. فيشقهم من الشرج حتى الفم ويبدأ بشيهم وهم أحياء فوق جفنات يتجمع فيها شحمهم. وكان يسلخهم ليصنع من جلد وجوههم أقنعة ثم يقطعهم إلى قطع صغيرة ليصنع من عظامهم المطحونة مسحوقاً منوِّماً. وقد اختفى أشخاص عديدون بهذه الطريقة.

وفيما بعد، ظهر في أحد الأيام سانتياغو كالانتشا، وهو مربي مواشي كان عائداً إلى كينكا من حفلة زفاف في باركاسبامبا. وبدل أن يأخذه إلى المغارة، تحدث إليه قائلاً إنه إذا كان يرغب في إنقاذ حياته وحياة أسرته، عليه أن يأتيه بإحدى بناته لتكون طاهية لديه. وأخبره عند أي مدخل من مداخل المغارة عليه أن يترك الفتاة.

ولا حاجة للقول أن كالانتشا لم ينفذ تعليمات البيستاكو بالرغم من العهد الذي قطعه على نفسه بالطاعة. فقد تمترس في كوخه

ومعه متشيتي وكومة من الحجارة ليواجه سالثيدو إذا جاء ليسطو على ابنته. لم يحدث أي شيء في اليوم الأول، ولا في اليوم الثاني، ولا في الأسبوعين الأولين. وفي الأسبوع الثالث، وتحت وابل من المطر، نزلت صاعقة على سطح بيت كالانتشا وأحرقته. ومات هو وزوجته وبناته الثلاث متفحمين. أنا نفسي رأيت هياكلهم العظيمة. أجل، بهذه الطريقة أيضاً كما يبدو ماتت أم ديونيسيو. أنا لم أرها، وربما كانت مجرد أقاويل. وعندما خرج أهالي كينكا حزينين ومبللين لرؤية الحريق، سمعوا قهقهات صاخبة تختلط بصفير الريح ودوي الرعد، وكانت تأتي من المغاور التي يسكنها سالثيدو.

عندئذ، حين طلب البيستاكو في المرة التالية فتاة لتكون طاهيته، قرر الأهالي في اجتماع عام أن ينصاعوا لطلبه. وكانت أول من دخلت إلى مغارته هي أكبر أخواتي. رافقتها أسرتي وأسر أخرى كثيرة حتى مدخل المغارة الذي حدده البيستاكو. كانوا يغنون ويصلون لها، وكان هناك كثيرون يبكون في وداعها.

لم يجففها مثلما فعل بابن عمي سيباستيان، مع أن أبي كان يقول إنه ربما كان من الأفضل أن يفعل بها ذلك بدلاً من تقطيع شرائح من شحمها. أبقاها على قيد الحياة، ولكنه حولها إلى مساعدة بيستاكو. وكان قد اغتصبها في البداية، فامتطاها على أرض المغارة الرطبة وثقبها بلولبه. لقد سُمعتْ صرخات أختي ليلة زفافها في كل بيوت كينكا. بعد ذلك فقدتْ إرادتها تماماً وصارت تعيش من أجل خدمة سيدها ومولاها. فكانت تطبخ له بورع وإخلاص ثريد درنات التشونيو الذي يحبه، وكانت تجفف وتملح شرائح من لحم الضحايا لتحولها إلى تشاركي يأكلانه مع الذرة المسلوقة، وكانت تساعده في تعليق الأضاحي بالخطافات التي ثبتها سالثيدو في الصخر ليسيل منها الدهن إلى جفنات من النحاس.

لقد كانت أختي هي الأولى بين عديدات دخلن إلى المغارة ليطبخن له ويعملن كمساعدات له ومنذ ذلك الحين خضعت كينكا لسلطته، فكنا نحمل إليه جزية من الطعام. نتركها عند مدخل المغارة، ونحمل إليه من حين لآخر الفتاة التي يطلبها. ونتحمل بين فترة وأخرى اختفاء بعض الأهالي الذين يأخذهم البيستاكو سالثيدو ليجدد مؤونته من الدهن.

وهل استمرت الحال على هذا المنوال إلى أن جاء الأمير الشجاع؟ لم يكن أميراً شجاعاً وإنما مروض خيول أسمر مربوع. من يعرفون القصة يمكنهم أن يغلقوا آذانهم أو أن يذهبوا. هل يخيل إليكم أنكم تعيشون أحداث القصة من جديد؟ هل تبعث الحماس في نفوسكم؟ أتجعلكم ترون أنه هناك للمصائب الكبيرة دائماً تدابير علاج كبيرة أيضاً؟

عرف تيموتيو ذو الأنف الكبير بما يجري في كينكا، وجاء من أياكوتشو وهو ينوي الدخول إلى المغاور ومواجهة البيستاكو. لقد تعرفتُ جيداً على تيموتيو فاخاردو، وهذه هي كنيته. فقد كان زوجي الأول، بالرغم من أننا لم نتزوج مطلقاً. كانوا يقولون له: «هل يمكن لإنسان فانٍ أن يواجه من تبنته الشياطين؟». وقد حاول أبي أيضاً أن يثنيه عن عزمه ويبعث فيه القنوط عندما جاءه باحترام وعرض عليه مشروعه للدخول إلى مغارة البيستاكو لقطع رأسه وتحريرنا من طغيانه. ولكن تيموتيو أصر على موقفه. لم أعرف قطّ شخصاً بمثل تلك الجسارة. لقد كان رجلاً راسخ الرجولة تماماً، على الرغم من حجم أنفه الكبير. فقد كان قادراً على هز أنفه مثل فمين. وقد كان حسن حظه في كبر أنفه. كان يقول بكل ثقة: «يمكنني القضاء عليه. إنني أعرف الوصفة التي تتيح لي الوصول إليه دون أن يشعر بي: فص ثوم، وقليل من الملح، وقطعة خبز يابس،

وطابة من غائط حمار، وفوق ذلك كله، تأتي فتاة عذراء، قبل دخولي إلى المغارة، وتبول على مستوى قلبي».

لقد كنت أمتلك المواصفات التي أرادها. فقد كنت شابة، ولم يكن قد مسني أحد وبينما كنت أسمعه بدا لي شجاعاً وواثقاً من نفسه إلى حد أني عرضت عليه مساعدتي دون أن أستشير والدي. ولكن، كانت هناك عقبة واحدة. فكيف سيخرج من المغاور بعد أن يقتل سالشيدو؟ لقد كانت تلك المغاور كبيرة جداً ومتشابكة لم يستطع أحد من قبل ارتيادها بالكامل. فالسراديب تنعطف وتصعد وتنزل وتتلوى وتتشعب وتتشابك مثل جذور شجرة أو كاليبتوس. وفضلاً عن الخفافيش، كانت هناك دهاليز تعبق بأبخرة مسمومة لا يمكن لكائن بشري أن يستنشقها إلا ويتسمم.

ما الذي على تيموتيو فاخاردو أن يعمله ليتمكن من الخروج بعد قتل البيستاكو؟ وكان أنفه الضخم هو الذي أوحى إليَّ بالفكرة. أعددت له طبيخاً كثيفاً ولاذعاً جداً، من ذلك الفلفل الأخضر الحار الذي يشفي إمساك أشد المقبوضين. أكل محتويات القدر كلها، وبقي ينتظر إلى أن أوشكت معدته على الانفجار. وعندئذ فقط دخل إلى المغارة. كان ذلك قبيل الغروب، وكانت الشمس ما تزال في الأفق، ولكن الظلام الدامس لف تيموتيو بعد بضع خطوات. وكان يتوقف من حين لآخر، وينزل بنطاله، ويقرفص ليترك علامته. كان يتقدم في البدء متلمساً طريقه وهو يغطي عينيه بذراعه لأن الخفافيش كانت تنقض من السقف لتضرب وجهه بأجنحتها اللزجة. وكان يشعر بشِباك العناكب على بشرته. وبقي على هذه الحال وقتاً طويلاً، يتقدم، ويتوقف ليفلت قليلاً من محتويات بطنه، ثم يتقدم من جديد. إلى أن أبصر ضوءاً واهناً. فاهتدى بذلك البريق ووصل إلى مأوى البيستاكو.

كان المارد ينام مستلقياً بين النساء الثلاث اللواتي يطبخن له. وعلى ضوء مصابيح بالشحم البشري، وبينما هو يكاد يدوخ من الرائحة النتنة، رأى بقايا أجساد بشرية معلقة بخطافات دامية، تقطر دهنا في جفنات فوارة. فلم يضيّع الوقت، وقطع بضربة متشيتي واحدة رأس الذبّاح وهزَّ معاوناته الثلاث اللواتي ما إن استيقظن ورأين سيدهن مقطوع الرأس حتى رحن يولولن بجنون. هدأ تيموتيو من روعهن وطلب منهن التروي: فقد خلصهن من العبودية وصار بإمكانهن العودة إلى الحياة العادية. وعندئذ انطلق الأربعة معاً في طريق العودة، مستدلين بأثر الرائحة التي كان قد زرعها تيموتيو في طريقه، وكان يتبعها دون تردد بفضل قدرة أنفه على الشم التي تضاهي قدرة كلب صيد.

هذه هي قصة المارد سالثيدو. وهي قصة دماء وجثث وبراز، مثل كل قصص البيستاكوات.

❖ ❖ ❖

- هيا، استمتع وارو لي عن أفراحك وأتراحك يا توماسيتو - شجعه ليتوما -. إنك محظوظ، فأنا أعيش مؤرقاً في هذه الأيام بسبب عمليات الاختفاء اللعينة.

- الأسبوعان اللذان أمضيناهما في ليما كانا شهر عسلي - قال مساعده -. لقد كانا أسبوعين من الرعب والمفاجآت، ونزلت علينا خلالهما كل المصائب. حتى إننا ظننا أنهم يريدون قتلنا. ولكن القلق كان يضفي لذة على غرامنا، كنا نمارس الحب كل ليلة مرتين، وأحياناً ثلاث مرات متتالية. إنها روعة باهرة يا عريفي.

- هل بدأت ميرثيدس تحبك أخيراً؟

- في الليل، كنت متأكداً من أنها تحبني. فقد كانت بيورانيتي الجميلة مثل القطر الصافي في الفراش. ولكن ما إن

يظهر ضوء النهار حتى يتبدل مزاجها، ولا تعود تتوقف عن القول لي إنني دمرتُ حياتها وإنها لن تكون زوجتي أبداً.

بعد يومين من العيش في بيت الخالة اليسيا، في الأحياء العليا، ذهبت ميرثيدس لسحب مدخراتها من فرع المصرف الشعبي، في ساحة فكتوريا. دخلت وحدها. وظل كارينتو ينتظرها عند الناصية، متظاهراً بأنه يمسح حذاءه عند ماسح أحذية. وقد تأخرت في المصرف طويلاً. وعندما ظهرت عند الباب أخيراً، تحرك خلاسي زامبو[1] قصير القامة، في وجهه ندبة جرح، تاركاً الصحيفة التي كان يقرؤها وهو يستند إلى عمود النور، وتقدم بخطوات هادئة، ثم انقض عليها فجأة، شدّ كل منهما الآخر، وكان يحاول انتزاع حقيبتها التي تشبثت بها ميرثيدس بكلتا يديها وهي تركله وتصرخ. توقف بعض المارة وراحوا يراقبون ما يجري دون أن يتجرؤوا على التدخل. وعندما وصل إليهما كارينيو راكضاً وهو يشهر المسدس، أفلت اللص المرأة وانطلق هارباً مثل روح يحملها الشيطان. ثم ابتعدا هما أيضاً من المكان بسرعة، عبر جادة مانكو كاباكا، حيث أوقفا سيارة أجرة. كانت ميرثيدس غاضبة أكثر مما هي خائفة. فمع أن ذلك الشخص لم يستطع سرقة نقودها إلا أنه مزّق بطاقة هويتها.

- ولماذا تظن أن ذلك الشخص ليس إلا مجرد لص؟ أليست مدينة ليما موبوءة بالنشالين؟

- بسبب ما حدث فيما بعد - قال الفتى -. لقد كانت تلك الحادثة هي الدليل الأول. وقد تعرضنا بعدها لعملين آخرين أسوأ منها. وصرت أرى يد تشانشو تخرج من قبره لتنتقم منا. وكنت أقول لها: «ألا ترين أن الخطر يوحدنا أكثر يا حبي؟».

- كيف يمكنك التحدث عن الحب في هذه اللحظة أيها الصبي

---

[1] زامبو (Zambo) خلاسي مولد من زنجي وهندية.

الأحمق! ـ غضبت ميرثيدس ـ ألا ترى أنني أصبحت دون وثيقتي الشخصية الوحيدة؟ تحدث إلى عرابك مرة واحدة لكي يساعدنا.

ولكن محاولات كارينتو للوصول إلى عرابه كانت تذهب أدراج الرياح. فقد كان محظوراً عليه الاتصال به في مكتبه. وكان الهاتف في بيته يرن مشغولاً على الدوام. وقد أخبروه في الاستعلامات أن الرقم غير معطل، أي أنه ربما يكون قد رفع السماعة متعمداً. وكانت امرأة اسخريوطي ترد عليه بأن البدين لم يرجع من الأدغال بعد. وأم كارينيو التي كان قد طلب منها الذهاب إلى بيته في ريماك، نقلت إليه خبراً مشؤوماً.

ـ أخبرتني بأنها وجدت الباب مخلوعاً، وكل شيء مقلوب ومسلوب، وسريري محروق وعليه كتلة براز أي رعب أحست به أمي العجوز ـ قال توماس ـ يبدو أنهم قد أشعلوا النار في غرفتي ثم تخلوا عن ذلك لسبب ما وفضلوا أن يتبرزوا على سريري. هل هذا العمل هو صدفة أيضاً يا عريفي؟

ـ وجود البراز يؤكد أنهم مجرد لصوص ـ ردّ عليه ليتوما ـ إنه اعتقاد شائع جداً بين النشالين يا توماسيتو. فلكي لا يدخلوا السجن بعد سطوهم على بيت، يجب عليهم أن يتبرزوا فيه. هكذا يعتقدون. ألم تكن تعرف ذلك؟

ـ عندما أخبرت ميرثيدس بنهب بيتي، أخذت تبكي ـ زفر كارينيو ـ كنت أذوب يا عريفي وأنا أشعر بها ترتجف بين ذراعي. لا تقلقي يا حبي، لا تبكي، أرجوك.

وكانت ميرثيدس تئن والدموع تسيل على خديها:

ـ إنهم يطاردوننا، إنهم يبحثون عنا. لا يمكن أن يكون الأمر صدفة، أولاً في المصرف، والآن في بيتك. إنهم جماعة التشانشو. إنهم يبحثون عنا، وسيقتلوننا.

ولكن السارقين والحارقين لم يكتشفوا المخبأ المموه ببعض الطوب تحت المرحاض، حيث يخبئ كارينيو دولاراته.

ـ دولارات؟ ـ انتفض ليتوما ـ وهل كانت لديك مدخرات؟

ـ قرابة أربعة آلاف دولار، حتى لو لم تصدقني. ليس من راتبي في الحرس الأهلي بالطبع. بل من المهمات التي كان يكلفني بها عرابي: حراسة أحدهم ليومين، إيصال حزمة ما، مراقبة أحد البيوت، أعمال تافهة من هذا النوع. وكل «سول» كنت أحصل عليه كنت أحوله إلى دولارات وأضعه في المخبأ. لقد كنت أفكر في مستقبلي. ولكن ميرثيدس أصبحت مستقبلي.

ـ اللعنة، عرابك هذا مثل الرب يا توماسيتو. إذا خرجنا أحياء من ناكوس فأرجوك أن تعرفني عليه. أريد أن أرى وجه إنسان من الأقوياء قبل أن أموت. فأنا لم أرَ حتى مثل هؤلاء الأشخاص إلا في الأفلام أو الصحف.

قالت ميرثيدس مقدرة:

ـ بمثل هذا المبلغ لن نصل إلى الولايات المتحدة، فلا تحلم.

ـ سأحصل على كل المال اللازم يا حبي، يا سُكّرتي. سأخرجك سليمة من هذه الورطة ثم سآخذك إلى ميامي، سترين. وعندما نصبح هناك، أمام ناطحات السحاب والشواطئ الزرقاء والسيارات الحديثة من آخر موديل، هل ستقولين لي: «أحبك من كل روحي يا كارينيتو»؟

ـ ليس هذا وقت المزاح. لا تكن بليداً! ألا ترى أنهم يبحثون عنا، يريدون الانتقام منا؟

فقال لها الفتى باحتفالية:

ـ لقد جعلتك تضحكين على الأقل. تعجبينني عندما تضحكين، فغمازتا خديك وأنت تضحكين تُسرِّعا نبضي. عندما تُحضر لنا أمي النقود الآن، سنذهب لشراء فستان جديد لك، موافقة؟

- لا يمكن ممارسة الحب أول مرة في الثالثة والعشرين من العمر يا توماسيتو، فهذا متأخر جداً - تفلسف ليتوما -. اعذرني إذا قلت لك إن اكتشافك ما هي المرأة قد أتلف دماغك وقضى عليك.

فتنهد كارينيو:

- أنت لم تعرفها، لم تحتضن بين ذراعيك امرأة مثل ميرثيدسي. لقد كنت أنتظر مجيء كل ليلة لكي أدخل الفردوس مع حبي.

- عندما تقول لي هذه الأشياء يخيل إلي أنك لا تحسها، وإنما تلعب أو تمزح - قالت ميريثدس -. هل تشعر حقاً بما تقوله؟

- ماذا تريدينني أن أفعل حتى تصدقيني؟

- لا أدري يا كارينيو. إنك تبلبلني بقولك هذا الكلام في كل وقت. أن تصبح رقيقاً جداً وأنت متهيج، يمكن أن أفهمك. ولكنك تواصل ذلك وتواصله طوال اليوم كله.

- يا له من غرام أيها الفتى - علّق ليتوما.

تواعدا مع أم توماس في درب الحفاة، بعد الغروب. وقد أخذ توماس ميرثيدس معه. طلب من سائق التكسي أن يوصله إلى ساحة أتشو ثم واصل السير حتى درب الحفاة. قاما بعدة جولات قبل أن يقتربا من الكنيسة، حيث كانت تنتظرهما السيدة العجوز. كانت امرأة قصيرة القامة، منحنية الظهر، وترتدي مسوح «سيد المعجزات»[1]، عانقت ابنها وقبلته طويلاً دون أن تقول شيئاً، وحين عرّفها عليها مدّتْ نحو ميرثيدس يداً ضئيلة وباردة. جلسوا ليتحدثوا على مقعد مشقق في الممر، في العتمة تقريباً، لأن أقرب المصابيح كان مكسوراً. أخرجت المرأة من بين ثنايا تنورتها لفافة من ورق الجرائد بداخلها الدولارات الناجية وسلّمتها لكارينيو. لم توجه أي

---

[1] سيد المعجزات (El Senor de los Milagros): شفيع مدينة ليما، وهو يُصوَّر برداء بنفسجي وحزام أبيض.

سؤال إلى ميرثيدس ولم تنظر إليها ولو مرة واحدة. سحب الفتى حفنة من الدولارات ودسها في حقيبة أمه دون أن يقول شيئاً. ولم يكن وجه المرأة يعكس الخوف أو المفاجأة.

ـ هل استفسرت شيئاً عن عرّابي؟ ـ سألها توماس.

فأومأت بالإيجاب. وقربت رأسها قليلاً كي تنظر إلى عينيه. تكلمت وكأنها تهمس، بإسبانية طليقة ولكن بلكنة جبلية واضحة:

ـ ذهبت لأترك له خبراً، فجاء هو بنفسه إلى بيتي. كان قلقاً جداً. ظننت أنه سيبلغني بحدوث مكروه لك... بأنهم قتلوك. قال لي إنه عليك أن تتصل به بأسرع ما يمكن.

ـ إنني أتصل به عدة مرات كل يوم وهاتف بيته يرن مشغولاً على الدوام.

ـ لا يريدك أن تتصل به في بيته. اتصل بمكتبه أفضل، قبل الساعة العاشرة صباحاً، وباسم «الصيني».

قال الفتى:

ـ لقد طمأنني ذلك كثيراً، فقد ذهب للقاء أمي بنفسه، وإذا كان يريدني أن أتصل به فهذا يعني أنه ليس غاضباً مني. ولكنني أمضيت أكثر من عشرة أيام أخرى قبل أن أتمكن من العثور عليه. وقد أقلق ذلك ميرثيدس كثيراً، أما أنا فلم أقلق، لأن ذلك كان يتيح لي مواصلة التمتع بشهر عسلنا. فعلى الرغم من قلق تلك الأيام ومخاوفها، لن يقيض لي أن أعيش مثل تلك السعادة أبداً يا عريفي.

عندما ودّعا السيدة ورجعا إلى النزل في الأحياء العليا، حاصرت ميرثيدس كارينيو بالأسئلة:

ـ كيف يمكن لأمك أن تأخذ كل هذا الذي يحدث دون مبالاة؟ لم يبدُ عليها أنها تستغرب من تخفيك، ومن وجودي معك، ومن

السطو على بيتك. هل من الطبيعي حدوث مثل هذه الأمور لك في العادة؟

- إنها تعرف أن الحياة في البيرو تنطوي على بعض المخاطر يا حبيبتي فتلك التي رأيتها، والتي قد تبدو لك شيئاً ضئيلاً تافهاً، هي امرأة حديدية.

لقد مرت بألف محنة ومخاطرة لتوفر لي الطعام في سيكواني وفي كوسكو وفي ليما.

كان كارينيو سعيداً باسترداد دولاراته، وكان يسخر من ميرثيدس لأنها وضعت مدخراتها في المصرف.

- هذه البلاد خطرة جداً ولا يمكن الوثوق بالمصارف فيها. أفضل خزنة فيها وأكثرها متانة في الفراش. ها أنت قد رأيت كيف أن ذلك الخلاسي في ساحة فيكتوريا كاد أن يتركك دون قرش واحد. ولكنه كان رائعاً بتمزيق بطاقة هويتك، لأنك بهذا أصبحت مضطرة إلى الاعتماد علي. إنني أدعوك إلى الرقص احتفالاً بذلك. هل يمكنك أن تقومي أمامي ببعض تلك الحركات التي كنت تؤدينها في استعراض الباثيلون؟

فاحتجت ميرثيدس مذعورة:

- كيف يمكنك التفكير في اللهو رغم ما يحدث لنا؟ يا لك من فارغ الرأس وعديم المسؤولية.

- لأنني عاشق ولهان يا حبيبتي وأكاد أموت شوقاً إلى الرقص معك وأنا ألصق وجنتي بوجنتك.

وأخيراً تنازلت ميرثيدس وذهبا معاً إلى «الرينكون دي لوس ريكويردوس». هناك لا يمكن لأحد أن يرى وجهيهما. إنه مكان معتم ورومانسي في شارع لاريبوبليكا، يعزفون فيه أنغام تانغو قديمة لغارديل وموسيقى بوليرو لليو ماريني وأغوسطين لارا ولوس

بانتشوس. شربا عدة كؤوس من الكوباليبري فصعد مفعولها فوراً إلى رأس كارينيو، وبدأ يتحدث حتى بمرفقيه عن الحياة التي سيعيشانها في ميامي: سيقيم هناك شركة شحن، وسيجني ثروة طائلة، وسيتزوجان وينجبان أبناء. كان يحتضن ميرثيدس بقوة وهو يراقصها ويقبلها بشراهة من عنقها ووجهها.

ـ طالما أنتِ معي لن يلحق بكِ أي أذى، هذه كلمة شرف. انتظري إلى أن أتحدث مع عرابي، ويعود اسخريوطي البدين. عندها ستبدأ الحياة بالابتسام. مع أنها بدأت تبتسم لي منذ الآن بفضلك.

تنهد ليتوما:

ـ «الرينكون دي لوس ريكويردوس»[1] اسم جميل. إنك تثير مواجعي وحنيني بحديثك يا توماسيتو. مكان مظلم بعض الشيء، وكؤوس خمر جيدة، وموسيقى رومانسية، وأنثى حانية ترقص معك وتلصق جسدها بجسدك. أما زالت توجد في الدنيا مثل هذه الأشياء؟

قال له الفتى:

ـ لقد كانت ليلة جميلة ورائعة يا عريفي، فبينما كنا في حلبة الرقص، كانت هي أيضاً تقبّلني أحياناً، وبمبادرة منها، وكنت أنا أمني نفسي: «ها هي ذي بدأت تحبني».

ـ لقد استثرتني من كثرة التقبيل والتودد يا كارينيتو ـ همست له ميرثيدس وهي تعض أذنه ـ فلنذهب إلى الفراش مرة واحدة ونجهز على نوبة الجنون التي وصلنا إليها بسلوكنا هذا.

عند خروجهما من المحل، قرابة الساعة الثالثة فجراً، كانا كلاهما ثملين إلى حد ما. ولكن مفعول كؤوس الكوباليبري طار من رأسيهما دفعة واحدة عندما اكتشفا وجود سيارات إطفاء وشرطة وجمهرة من الناس بالقرب من بيت السيدة اليسيا، عند التقاطع

[1] اسم صالة الرقص، وهو يعني «ركن الذكريات».

بالذات. كان الجيران قد خرجوا راكضين إلى الشارع لدى سماعهم صوت انفجار.

وقال كارينيو موضحاً للعريف:

- كانوا قد نزلوا من شاحنة صغيرة ووضعوا العبوة بكل هدوء أمام كشك خشبي، على بعد عشرين متراً من نزل الخالة اليسيا. وكان ذلك هو الدليل الثالث. أهي صدفة أخرى يا عريفي؟

- الآن لم أعد أصدق كلمة واحدة مما تقوله يا توماسيتو. فمسألة القنبلة هذه لا أستطيع ابتلاعها. لو أن عصابة تجار المخدرات أرادوا قتلك لكانوا قتلوك، ولا تزعجني أكثر بكلامك.

حطم الانفجار زجاج بيوت كثيرة في المكان وأشعل النار في كومة زبالة متراكمة في أرضٍ خلاء. وقد كانت السيدة اليسيا بين الجيران في الشارع ملتفة ببطانية، ولكنها تظاهرت بأنها لا تعرف كارينيو وميرثيدس حين اختلطا بالمتفرجين. أمضيا الوقت عند بوابة أحد البيوت إلى أن بزغ الفجر.

ورجعا بعد انصراف رجال الشرطة والمطافئ. أدخلتهما الخالة اليسيا بسرعة. لم يكن قد لحق أي ضرر ببيتها ولم يكن يبدو عليها الفزع؛ إذ لم يخطر ببالها أنه قد يكون للقنبلة أي علاقة بكارينيو. فقد كانت تعتقد، مثل الجيران الآخرين، بأن العملية موجهة ضد موظف في المحافظة يقطن في الشارع نفسه. كانت الشاحنة قد توقفت أمام بيتها، وكانت الخالة اليسيا في أثناء ذلك تطلّ من النافذة لتشم الهواء، فرأت الشاحنة، بل إنها سمعت الهمس داخل السيارة التي واصلت تقدمها حتى التقاطع، ونزل منها الأشخاص الذين وضعوا القنبلة. وربما أنهم تعمدوا الخطأ، لأنهم لا يريدون قتل أحد، وإنما يريدون لفت نظر ذلك الموظف فقط.

- ميرثيدس لم تصدق أبداً قصة الموظف تلك - قال توماسيتو -.

لقد كانت تقسم أن الأمر له علاقة بنا. وقد كبحت نفسها كيفما استطاعت أمام الخالة اليسيا، وعندما صرنا وحدنا انهالت علي:

ـ لمن ستكون قد وضعت هذه القنبلة إذا لم تكن لك ولي؟ لا موظف في المحافظة ولا هم يحزنون. ألسنا نمضي متخفيين؟ ها قد انتهى كل شيء، لقد اكتشفوا مكاننا. وهذا إشعار بذلك. وبينما هم يريدون قتلنا، أمضي أنا وإياك للرقص في «الرينكون دي لوس ريكويردوس». هل أنت سعيد بكل هذا أيها المجنون؟

كان صوتها مكسوراً، وكانت تختلج وتفرك يديها بطريقة اضطرت الفتى إلى فصل إحدى يديها عن الأخرى حتى لا تسبب أذى لنفسها. لم يستطع تهدئتها. فقد كانت تبكي وتهذي قائلة إنها لا تريد أن يقتلوها، وتوبخه أو تتكور على نفسها فوق السرير منتحبة ومتلوية ومستسلمة لليأس.

ـ ظننتها ستموت، ستصاب بنوبة أو شيء من هذا القبيل لشدة خوفها ـ قال توماسيتو ـ. أنا لا يخيفني أي شيء، ولكن رؤيتها في تلك الحال جعلتني فتاتاً.

لم أعد أعرف ما أفعله، ولا أي وعود أقدمها إليها لتتوقف عن البكاء. فقد نفدت مني الوعود والعهود يا عريفي.

ـ وماذا فعلت؟ ـ سأله ليتوما.

ذهب إلى البلاطة التي كان قد نزعها ليخفي تحتها حزمة الدولارات، ثم جلس على حافة السرير وأجبر ميرثيدس على أخذ النقود بينما كان يقبلها ويمسد شعرها ويمسح جبهتها بشفتيه قائلاً لها:

ـ إنها لك يا حبي، سواء بقيت معي أو تركتني... إنها لك. أقدمها هدية لك. احتفظي بها، خبئيها حتى مني أنا. لكي تكوني أكثر اطمئناناً ريثما أتمكن من التحدث مع عرابي، وحتى لا تشعري بأن

الأرض قد مادت تحت قدميك. حتى لا تشعري بأنك مقيدة إليَّ وتعرفي أنك تستطيعين الذهاب عندما تشائين. كفى بكاء، أرجوك.

- أهذا ما فعلته يا توماسيتو؟ هل أعطيتها كل دولاراتك؟

- لكي تتوقف عن البكاء يا عريفي - قال الفتى.

قفز ليتوما في سريره:

- هذا الذي فعلته أسوأ من قتلك التشانشو لأنه كان يضربها يا شقفة المغفل!

VIII

ـ لقد مرّ هوايكو فوقك، وها أنت هنا مع ذلك، حي وتلعب بذيلك، تهانينا على سلامتك أيها العريف! ـ قال الخمّار ذلك وهو يربت على كتف ليتوما.

كان ديونيسيو هو الوحيد الذي يبدو عليه الانشراح في جو الحانة الكئيب. لقد كان المحل مزدحماً بالعمال، ولكن وجوههم مقطبة كمن حُكم عليهم باللعنة. وكانوا موزعين في جماعات والكؤوس في أيديهم، يدخنون دون توقف ويتهامسون مثل الزنابير. كان القلق يشوه وجوههم، وقد استطاع ليتوما أن يرى في عيونهم الخوف البهيمي الذي ينهشهم من الداخل. فبعد الأضرار التي أحدثها الانهيار، لم يعد هناك ما ينجيهم هذه المرة من البقاء دون عمل. ليس هناك من سبب غير هذا لبعث مثل هذه الكآبة في الجبليين... يا للعنة!

ـ لقد ولدتُ من جديد ـ اعترف العريف ـ. ولست أنصح أحداً بمثل هذه المحنة. ما زالت أذناي تطنان بدوي تلك الحجارة العاهرة التي كانت تتساقط من كل الجهات.

واقترح ديونيسيو وهو يرفع كأسه:

ـ هيا أيها الشباب، فلنشرب نخب العريف. شكراً لآبووات ناكوس الذين أنقذوا حياة السلطة!

«وها هو ذا المترهل يسخر مني أيضاً» هكذا فكر العريف. ولكنه رفع كأسه وشكر العمال الذين رفعوا نخبه بابتسامة مقتضبة وببعض الانحناءات من رأسه. وفي أثناء ذلك رجع الحارس توماس كارينيو، وكان قد خرج للتبول، وهو يفرك يديه.

ـ هذا الذي حدث لك لم يحدث لأحد من قبل قطّ. ـ هتف بالنبرة الصاخبة والذاهلة نفسها التي سمعها من رئيسه وهو يتحدث عن مغامرته، وأضاف: ـ يجب أن ينشروا ذلك في الصحف.

وقال عامل على وجهه آثار جدري قديمة:

ـ إنها الحقيقة المحضة. فمنذ كاسيميرو هواركايا لم يُرَ ولم يسمع شيء مماثل. يمر فوقك هوايكو ثم تخرج منه ماشياً على قدميك!

ـ أتعني كاسيميرو هواركايا الأمهق؟ ـ سأله ليتوما ـ الذي اختفى؟ الذي كان يدعي أنه بيستاكو؟

دخل الأمهق في وقت متأخر، حين كان كل من في الحانة ثملاً، مثلما يحدث ليلة كل سبت. وكان مخموراً هو أيضاً؛ فقد كانت عيناه حمراوين وبارزتين تحت تلك الرموش البيضاء التي تثير القلق في النفوس. وأعلن من الباب كعادته الاستفزازية وهو سكران: «ها قد حضر الذبّاح، الناكاك، البيستاكو. خذوا علماً! وإذ كنتم لا تصدقونني، فانظروا» وأخرج سكيناً صغيراً من جيبه الخلفي وعرضه عليهم وهو يرفع قدمه اليمنى، ثم أطلق أمامهم قهقهة مهدئة. وبدأ بعد ذلك القيام بحركاته التهريجية ومضى مترنحاً ليستند بمرفقيه إلى منضدة الكونتوار، حيث كانت دونيا أدريانا وزوجها يسعيان جاهدين لتلبية طلبات الزبائن. ضرب الألواح الخشبية بقبضته وطلب كأساً من خمر قوية. وفي تلك اللحظة عرف ليتوما ما الذي سيحدث.

ردّ ذو الوجه المجدور بالإيجاب:

ـ ومن سواه أعني. ألم تعلم بأن الإرهابيين كانوا قد أعدموه ثم انبعث حياً مثل يسوع المسيح؟

ـ لست أعرف شيئاً، فأنا هنا آخر من يعلم بالأمور ـ تنهد ليتوما ـ. أتقول إنهم أعدموه ثم انبعث حياً؟

فتقدم عامل أسمر شعره مثل أشواك نيص:

ـ حسن، إن بيتشينتشو يبالغ. أنا أظن أنهم قد أعدموه مزاحاً. وإلا كيف يمكن أن يصيبوه برصاصة ثم ينهض سليماً دون أي جرح؟

وقال الحارس الأهلي كارينيو:

ـ أرى أن الجميع يعرفون الآن حياة كاسيميرو هواركايا عن ظهر قلب. هل يمكنني أن أعرف لماذا قلتم لي وللعريف أنكم لا تعرفون شيئاً عن الأمهق حين اختفى؟

ـ وهذا شيء يهمني أن أعرفه أنا أيضاً ـ دمدم ليتوما.

خيم صمت مترو، فالوجوه ذات التقاطيع الصارمة، والأنوف الفُطس والشفاه الغليظة المنتفخة والعيون المرتابة التي تحيط بهما تمترست في ذلك الكتمان الفلكي الذي جعله يشعر أخيراً بأنه عسكري في ناكوس. وبقي الأمر على تلك الحال إلى أن تجرأ ذلك الجبلي ذو الوجه المجدور، وأظهر صفاً من الأسنان الكبيرة البيضاء التي كشفتها ابتسامة كبيرة:

ـ لأننا لم نكن نثق بالعريف حينذاك.

وانتشرت همسات مؤيدة وسارع الخمّار إلى خدمة الأمهق وهو ينظر إليه بتلك الابتسامة الزجاجية الساخرة التي لا تفارقه أبداً. كان وجهه منتفخاً أكثر من المعتاد، وسط دخان السجائر، وكانت وجنتاه المتلئتان تلمعان تحت حبيبات ذقنه ببريق وردي. لقد كان أكثر ضخامة وترهلاً مما هو عليه في أحيان أخرى. وكانت أطرافه وكتفاه وعظامه تبدو مفككة. ولكنه كان قوياً جداً. لقد رآه ليتوما ينقض بثقله على سكير ويلقي به إلى الشارع، ليس بسبب عربدته، وإنما لأنه انخرط في البكاء؛ فالسكارى الذين يستثيرهم الكحول فيبحثون عن المشاجرات، يستبقيهم ديونيسيو في الحانة، بل ويشجع الزبائن الآخرين على تبادل اللكمات معهم، وكأن تلك

المشاجرات الكحولية تسليّه حتى الموت. شرب الأمهق كأسه في رشفات صغيرة، وكان ليتوما يترقب بلهفة من يجلس على الجمر أن يعود الأمهق للكلام. وقد فعل ذلك متوجهاً إلى حشد ذوي اللفاعات والكنزات:

ـ ألا توجد رشفة خمر للذبّاح؟ يا لكم من بخلاء! يا لكم من تعساء!

لم يلتفت أحد إليه، لم يهتم به أحد، واحتقن وجهه كمن أصيب بمغص حاد في معدته أو بنوبة غضب. كان شعره وحاجباه ورموشه بيضاء جداً، ولكن أكثر ما كان يحير في ذلك الرجل هو بياض زغب بشرته ودبابيس لحيته البيضاء. كان يرتدي أفرهولاً وسترة من المشمع لها قبعة، وكانت مفتوحة تكشف عن حفنة من الشعر الشائب في وسط صدره.

ـ خذ يا كاسيميرو ـ قدم له الخمّار سيجارة ـ. الآن تبدأ الموسيقى من جديد وتستطيع الرقص.

ـ يا لحسن الحظ ـ قال ليتوما ـ. هذا يعني أنكم ستعاملونني أخيراً كجبلي وليس كنسر من البونا. هذا أمر يستحق شرب كأس. أنزل زجاجة خمر يا ديونيسيو، وقدم جولة شراب للأصدقاء على حسابي.

انتشرت زمجرات شكر، وبينما ديونيسيو يفتح الزجاجة ودونيا أدريانا توزع كؤوساً على من ليس لديهم كؤوس، اختلط العريف ومساعده بالزبائن. وكانوا جميعهم قد اقتربوا من منضدة الكونتوار متزاحمين ومشكلين قبضة مطبقة، مثلما يحدث عندما يتفرجون على نهاية جولة في لعبة بالنرد على حزمة كبيرة من الأوراق النقدية.

ـ لقد أطلق الإرهابيون إذن رصاصة على هواركايا ولم يُصب بأذى؟ ـ سأل ليتوما. أخبروني كيف حدث ذلك.

فقال ذو الرأس الذي مثل النيص:

ـ هذا ما كان يقوله هو عندما يزور حيوانه، أي عندما تصعد الخمرة إلى رأسه. لقد كان يجوب سلسلة الجبال بحثاً عن فتاة أنجب منها ابناً. ووصل في إحدى الليالي إلى قرية في محافظة لامار، حيث أوشك الناس على شنقه معتقدين أنه بيستاكو. وقد أنقذه الإرهابيون الذين حضروا في تلك اللحظة. ومن كان برأيكم زعيم أولئك الإرهابيين؟ إنها الفتاة نفسها التي كان يبحث عنها.

ـ كيف أنقذوه؟ ـ قاطعه كارينيو ـ أليسوا هم الذين أعدموه؟

ـ اصمت. لا تقاطعه ـ أمرة ليتوما.

وأكمل النيص قصته:

ـ أنقذوه من الأهالي الذين كانوا سيشنقونه لأنه بيستاكو، ولكن الإرهابيين عقدوا له هناك بالذات محكمتهم الشعبية وحكموا عليه بالموت. وقد تولت الفتاة نفسها مسؤولية تنفيذ الحكم. فوجهت إليه رصاصة دون تردد.

ـ يا لها من قصة ـ قال ليتوما ـ وكيف جاء إلى ناكوس بعد موته؟

لم يجب الأمهق وبقي لوقت طويل يحاول إشعال السيجارة؛ ولكنه كان ثملاً إلى حد لم تستطع معه يده التي تحمل عود الثقاب من وضع اللهب في المكان المناسب. وفي وجه ديونيسيو ما بين اللامع والمسخم، لمح ليتوما نظرة غير محددة، ساخرة، فرحة، كمن يعرف ما الذي سيحدث ويحلم ويستمتع به مسبقاً. وهو أيضاً كان يعرف ما الذي سيحدث ويحس بقشعريرة. أما بقية الزبائن بالمقابل فلم يكن يبدو عليهم أنهم يعرفون أي شيء، بعضهم كانوا يجلسون على الصناديق، ولكن أكثريتهم كانوا يقفون في جماعات من شخصين أو ثلاثة أشخاص وهم يحملون ويتداولون زجاجات البيرة والبيسكو وخمر الينسون. ومن المذياع الموضوع عالياً، وراء منضدة

الكونتوار، كانت تصدح بأعلى صوت ما بين التشوشات الكهربائية، أغنيات متناوبة من الكاريبي والأنديز تبثها إذاعة خونين في ليالي السبت دائماً. ولأن الأمهق أحس بالإهانة حين لم يرد عليه الآخرون، عاد إلى تحديهم، مولياً ظهره للخمّار ومظهراً للحاضرين عيني سمكة خارجة لتوها من الماء:

- هل سمعتم أنني الذبّاح؟ البيستاكو، أو الناكاك كما يقولون في أياكوتشو. هكذا أُقطّع شرائح ضحاياي.

وعاد يحرك سكينة في الهواء عدة مرات، وكرر حركاته التهريجية السابقة، وكأنه يتوسل إليهم أن يصغوا إليه، أن يحتفلوا به، أن يضحكوا منه أو يصفقوا له. ولكن أياً منهم لم يبد اهتماماً بوجوده هذه المرة أيضاً. ومع ذلك، كان ليتوما يعرف: فالجميع كانوا بحواسهم الخمس مع كاسيميرو هواركايا.

- هذا ما حدث له، مثلما رواه هو على الأقل، أليس كذلك؟ - سأل المجدور، وأومأ عدد من العمال مؤيدين، فأضاف: - وقال لنا إن الإرهابية قد أعدمته. أطلقت عليه النار من بندقيتها عن بعد متر واحد فقط. وقد مات هواركايا.

فصحح له النيص:

- أحس بأنه يموت يا بيتشينتشو. الحقيقة أنه أغمي عليه. من الرعب بالطبع. وعندما استيقظ لم يكن هناك أي أثر لجرح بالرصاص، وإنما كان مصاباً فقط برضوض من الركلات التي وجهها إليه من اعتبروه بيستاكو. لقد أرادت الإرهابية أن تخيفه فقط.

فقال ذو القروح الجدرية:

- لقد قال هواركايا إنه رأى الرصاصة تخرج من البندقية وتتجه مباشرة إلى رأسه، لقد قتلته ثم انبعث حياً.

- يا لها من قصة - كرر ليتوما وهو يرصد ردود فعل هذا وذاك

والآخر البعيد ـ. لقد نجا من حكم بالإعدام وجاء إلى ناكوس ليتعرض للاختفاء، فهل سينجو هذه المرة أيضاً؟

كانوا يواصلون شرب كؤوس البيسكو وخمر الينسون، ويتبادلون الزجاجة وكؤوس البيرة في أنخاب من رشفات صغيرة: «بصحتك يا أخي» ويدخنون، ويتحدثون، ويدندنون من بين أسنانهم بموسيقى المذياع. وكان أحدهم، وهو أكثر سكراً من الآخرين، يعانق أنثى غير مرئية ويغمض عينيه متحركاً في خطوات رقصٍ متعثرة قبالة ظله المطبوع على الجدار. وكان ديونيسيو يحثهم كعادته في حالة الهياج التي يصل إليها ليلاً: «ارقصوا، ارقصوا، أمرحوا، ما همَّ إن لم تكن هناك فساتين، فكل القطط تبدو رمادية في الليل» وكان المنافقون يتصرفون وكأن كاسيميرو هواركايا غير موجود. ولكن ليتوما يعرف جيداً أن جميع العمال، رغم مبالغتهم في التصنع، كانوا يرمقون بطرف عيونهم الأمهق وهو يصرخ بصوت كالرعد:

ـ هذا الذي يخرج من تحت الجسور، من وراء الصخور، الذي يعيش في المغاور، مثل ذاك الذي قتلتهُ دونيا أدريانا، إنه أنا! من يظهر في الطريق وينفخ مسحوقاً سحرياً. أنت تعرفين عمن أتكلم، أليس كذلك يا دونيا أدريانا؟ هيا، اقتليني أنا أيضاً مثلما قتلتِ سالثيدو أنتِ وذو الأنف الكبير. لقد قتلني الإرهابيون أنفسهم مرة وأخفقوا. يا للعنة، إنني خالد!

انطوى على نفسه ثانية وتشوه وجهه الأبيض، وبدا كأنه يشكو من ذلك المغص في بطنه، ولكنه ما لبث أن استعاد السيطرة على نفسه بعد لحظة، فانتصب ورفع بلهفة إلى شفتيه كأسه الذي كان فارغاً. وواصل الارتشاف منه دون أن ينتبه إلى أنه فارغ، ويلحس شفتيه بتلذذ إلى أن أفلت الكأس من بين أصابعه وتدحرج من منضدة

الكونتوار إلى الأرض. عندئذ هدأ كاسيميرو هواركايا مغتاظاً، ويداه على وجهه، ناظراً بعينيه الجاحظتين إلى التشققات والكتابات والبقع وحروق السجائر التي تغطي ألواح منضدة الكونتوار الخشبية. وهمس ليتوما ما يعلم أن الأمهق لن يستطيع سماعه: «إياك أن تفكر في الخروج من الحانة الآن. ابق إلى أن يذهب الجميع أو إلى أن يسكروا ولا يعودوا يتذكرونك». وبينما كان يعطيه هذه النصيحة، سمع ضحكة ديونيسيو الأفعوانية. بحث عنه، وفعلاً كان وجهه الضخم الممتلئ يضحك بفم مفتوح على اتساعه بالرغم من تظاهره بالنظر إلى جماعات الرجال الذين يملؤون المحل، ومواصلته حثهم على الرقص بحركاته. لم يراود ليتوما أي شك: إنه يسخر من جهوده لجعل الأمور لا تجري مثلما هو مقدر لها أن تجري.

قال بيتشينتشو وهو يمسح آثار الجدري وكأنها تحكه:

- ربما ينجو من هذه أيضاً. فمنذ ما جرى له مع الإرهابية صار هواركايا نصف مخبول. ألم يخبروك بأنه كان يظن نفسه بيستاكو؟ لقد تحول إلى قصة. كان يؤدي هذا الدور هنا كل ليلة. ربما لا يكون مختفياً، ربما خطر له الرحيل عن ناكوس دون أن يودع أحداً.

لقد قال ذلك برياء واضح مما جعل ليتوما يرغب في سؤاله إن كان يظنه، هو ومساعده، أحمقين أو مغفلين مثله إلى هذا الحد. ولكن توماسيتو هو الذي بادر إلى الرد عليه:

- أيرحل دون أن يتقاضى أجره؟ هذا أفضل دليل على أن الأمهق لم يغادر بمشيئته: فهو لم يتقاضى أجر عمله في الأيام السبعة الأخيرة. وليس هناك من يهدي أسبوع عمل إلى الشركة هكذا.

فأجابه بيتشينتشو دون قناعة، مستسلماً لمواصلة اللعبة:

- لا أحد يفعل ذلك إلا إذا كان نصف مخبول. لقد كان ينقص رأس هواركايا برغياً منذ ما جرى له مع الإرهابية.

وقال شخص آخر لم يكن قد تكلم حتى الآن، وهو أحدب له عينان مقعرتان وأسنان خضراء من مضغ الكوكا:

ـ وما أهمية اختفائه في نهاية المطاف، ألن نختفي جميعنا أيضاً؟ وصاح صوت حلقي لم يستطع ليتوما تحديد صاحبه: ـ وبعد هذا الهوايكو ابن العاهرة، سنختفي بأسرع مما تظنون.

في تلك اللحظة لمح الأمهق يتوجه مترنحاً نحو الباب. وكان الجميع يفسحون له الطريق ليمر، ولكن دون أن ينظروا إليه متظاهرين بأن كاسيميرو هواركايا لم يكن هناك وليس له وجود، وقبل أن يجتاز الباب ويختفي في البرد والظلام، تحداهم للمرة الأخيرة بحنجرة كسيرة من الغضب أو التعب:

ـ سأذهب لأذبح بعض الأشخاص. وسأشوي بشحمهم شرائح لحم لآكلها. هذه هي تحية الذبّاح الليلية. فلتموتوا أيها البرازيون!

ـ لا تتذمر، فالهوايكو لم يقتل أحداً في نهاية المطاف. لم يكن هناك ولا جريح واحد ـ قالت السيدة أدريانا من الجانب الآخر لمنضدة الكونتوار ـ وحتى العريف الذي حشر نفسه أمام الحجارة، نجا من الموت. فكن شاكراً! وارقص على ساق واحدة بدل التذمر أيها الجاحد!

خرج واتجه مباشرة نحو عنابر النوم المضاءة بنور ضعيف ترسله مصابيح الضوء الصفراء التي تبقيها الشركة مضاءة أيام السبت حتى الساعة الحادية عشرة، أي بزيادة ساعة عن بقية أيام الأسبوع. ولكن هواركايا تعثر بعد خطوات قليلة وسقط أرضاً مثل حزمة. بقي مطروحاً على الأرض لبعض الوقت وهو يشتم ويتذمر ويبذل جهوداً مضطربة لينهض. وراح يحقق ذلك على مراحل: إحدى قدميه أولاً، ثم ركبة الساق المقابلة، ثم القدمان معاً، ثم ضغط بقوة بكلتا يديه حتى تمكن من الوقوف. ولكي يتمكن من التقدم دون الوقوع مرة أخرى، راح يمشي منحنياً مثل قرد وهو يهز ذراعيه بقوة ليحافظ على توازنه.

أهو يتجه نحو العنبر؟ لقد كانت الأضواء الصفراء تتحرك مثل حباحب، ولكنه كان يعلم أنها ليست حباحب، وهل هناك مثل هذه الحشرات المضيئة في سلسلة الجبال؟ على مثل هذا الارتفاع؟ إنها أنوار العنبر. تعلو، تنخفض، تذهب إلى اليمين، إلى اليسار وتدنو ثم تبتعد. وأطلق كاسيميرو ضحكة خافتة وهو يحاول الإمساك بها. وضحك ليتوما أيضاً وهو يراه يقوم بتلك الحركات التهريجية، ولكنه كان يتعرق جليداً ويرتعش. هل سيصل يوماً إلى العنبر، حيث تنتظره سقالة خشب عليها فرشة من القش وبطانية؟ كان يدور، يتقدم، يتقهقر، يبرم محاولاً على الدوام الحفاظ على الاتجاه الذي تشير إليه هذه الأضواء المتهربة التي تزداد جنوناً من لحظة لأخرى. لقد كان منهوكاً إلى حد لا يملك معه ما يكفي من القوة حتى لشتم تلك الأضواء. ولكنه صار يقعي فجأة على أربع، وقد أصبح داخل العنبر، وكان يحاول الصعود إلى سريره. وقد تمكن من تحقيق ذلك، ضارباً وجهه بالعارضة وشاعراً بأنه قد خدش جبهته وذراعيه. وبينما هو متكور على بطنه وعيناه مغمضتان، جاءته نوبة مغص في معدته وحاول أن يتقيأ دون أن يتمكن من ذلك. وعندئذ رغب في أن يرسم إشارة الصليب ويصلي، ولكن التعب لم يتح له رفع ذراعه، كما أنه لم يعد يتذكر صلاة أبانا الذي في السماء ولا يا قديسة مريم.

بقي في هجعة حامضية، وبه رعشة وتجشؤات وألم متنقل يذرع بطنه وصدره قبل أن يعذبه تحت إبطيه وفي عنقه وفي فخذيه. أكان يعرف أنهم سيأتون بحثاً عنه عما قريب؟

ـ وما الفائدة من نجاتنا إذا كان الهوايكو قد تركنا دون عمل يا ماماي ـ ردّ الأحدب على دونيا أدريانا ـ. ألا ترين أنه قد حطم الجرافات والجرارات والمحادل؟

وسأل النيص:

ـ أهذا يستدعي منا أن نرقص على ساق واحدة يا دونيا أدريانا؟ فليشرح أحد لي الأمر لأني لم أستوعبه.

وتجاوب معه عامل آخر في وسط جماعة من الزبائن.

ـ ألم يتركنا دون سقف نأوي إليه؟ ألم يردم نحو مئة متر من الطريق كانت جاهزة لتغطيتها بالإسفلت؟ لقد أصبحت لديهم الآن الذريعة التي يحتاجونها لوقف العمل في المشروع. لا توجد نقود! لقد انتهى كل شيء! شدوا أحزمتكم وانفلقوا!

وردت دونيا أدريانا:

ـ كان يمكن لهذا الهوايكو أن يكون القيامة، فلا تبكوا إذن. كان يمكن لكم الآن أن تكونوا مبتوري الأرجل أو الأذرع، أو دون عيون، أو مهشمي العظام، محكومين بالعيش زاحفين مثل الديدان. ومع ذلك ما يزال هؤلاء المقمّلون الجاحدون يبكون!

وقاطعها ديونيسيو بصوت من حلقه:

ـ غَني ولا تبكي! أو بكلمة أخرى، فلنقتل الأحزان برقص الهواينيتو على طريقة سابايانغا أيها السادة.

كان في وسط الحانة، يدفع هذا الشخص أو ذاك، محاولاً تشكيل قطار راقصٍ يدور ويدور على الإيقاع الصادر عن المذياع. ولكن ليتوما لاحظ أن لا أحد، حتى ولا أكثرهم سكراً، يتحمس لمجاراته. فبدلاً من أن ينسيهم الكحول هذه المرة المستقبل المشؤوم، سوّده لهم أكثر فأكثر. حركات الخمّار ودندناته سببت لليتوما دواراً خفيفاً، فأمسكه توماسيتو من ذراعه:

ـ هل أنت مريض يا عريفي؟

ـ لقد صعدت الخمرة إلى رأسي ـ تلعثم ليتوما ـ. سينقضي ذلك.

كانوا قد أطفأوا مولد الكهرباء في المعسكر، ولم تبق إلا بضع ساعات لبزوغ الفجر. ولكنهم كانوا يحملون مصابيح يدوية

ويتحركون بيسر في عتمة تتخللها اسطوانات صفراء. كانوا كثيرين لا يكاد يتسع لهم الحيز الضيق، ولكنهم لا يتدافعون ولا يضايق أحدهم الآخر، ولا يستعجلون ولا يبدون خائفين أو غاضبين أو حتى عصبيين أو مترددين. كان يراهم مصممين وواثقين، والأغرب من ذلك كله - يفكر ليتوما - أنه لم تكن هناك أي رائحة كحول تحملها الأنفاس الباردة الآتية من الخارج. لقد كانوا يتحركون بتصميم هادئ، مدركين ما يفعلونه وما سوف يفعلون.

- هل تريدني أن أساعدك على التقيؤ؟ - سأله توماسيتو.

- ليس بعد - ردّ العريف -. ولكن إذا وجدتني راغباً في الرقص مثل هؤلاء، فامسكني ولا تسمح لي بذلك.

الشخص الذي هز الأمهق فعل ذلك وهو يمسكه من كتفه دون ضغينة وبشيء من الكياسة:

- هيا يا هواركايا. انهض دفعة واحدة.

- مازال الظلام مخيماً. - احتج الأمهق بصوت خافت، ثم أضاف باضطرابٍ كلمات بدت حماقة لليتوما: - اليوم هو الأحد ولا أحد يعمل إلا الحراس.

لم يضحك منه أحد. ظلوا ساكنين وصامتين، وفي ذلك الصمت العميق بدا للعريف أنهم جميعهم يسمعون ضربات قلبه المدوية.

- هيا يا هواركايا. لا تكن ضعيفاً وانهض. - أمره أحدهم. أهو النيص؟ أم المجدور؟ أم الأحدب؟

وامتدت إلى الفراش في الظلام عدة أيدٍ وساعدت الأمهق على الجلوس ثم الوقوف. كان يحافظ على انتصابه بمشقة؛ ولولا كثرة الأيدي التي تسنده لتهاوى مثل رجل من خرق.

- لا أستطيع الوقوف. - قال متذمراً، ثم حاول أن يشتمهم، دون أي حقد أو رغبة، وإنما كمسألة مبدأ: - يا لكم من براز!

ـ إنه الدوار يا هواركايا ـ وواساه أحدهم بطيبة.

ـ أنت تشعر بهذا لأنك لم تعد أنت نفسك.

ـ لا يمكنني حتى أن أمشي، اللعنة ـ كان الأمهق يحتج بأسى.

بدا صوته مختلفاً عما كان عليه في السابق، حين كان يتبجح في الحانة قائلاً إنه الذبّاح. لقد صار صوته الآن صوت من هو مستسلم لقدره، وفكر ليتوما في أنه صوت إنسان يعرف مصيره ويتقبله.

ـ إنه الدوار، لا تقلق يا هواركايا، سنساعدك ـ كرر آخر مشجعاً.

ـ وأنا أيضاً أكاد أسقط أرضاً يا عريفي ـ أكد توماسيتو دون أن يفلت ذراع العريف ـ. كل ما في الأمر أن ذلك لا يبدو عليّ، لأن سكري كله يمضي نحو الداخل، لا تستغرب، فقد شربنا قرابة خمس كؤوس من البيسكو، أليس كذلك؟

ـ أرأيت كيف أني كنت على حق؟ ـ قال ليتوما ذلك والتفت لينظر إليه، فرأى مساعده بعيداً جداً، بالرغم من أنه كان يشعر بيده تشد على ذراعه: ـ هؤلاء الجبليون يعرفون ألف شيء عن الأمهق وقد استغفلونا. أراهن على أنهم يعرفون كذلك أين هو.

ـ إنني دائخ جداً هذه الليلة ولا أستطيع التفكير فيكِ يا حبي ـ قال توماس ـ. لست أعني بهذا أنني أحتفل بشيء، ولكن عريفي تعرض لهوايكو مرّ من فوقه ولم يسحقه. تصوري يا ميرثيدس! تصوري لو أنني بقيت وحيداً في مخفر ناكوس، دون شخص آخر أحدثه عنك. هذا هو السبب الذي جعلني أسكر الليلة يا حبي.

كانوا يمسكون بذراعيه ويقودونه جميعهم نحو باب العنبر، دون إساءة معاملته، ودون إجباره على الإسراع، وكانت حركة تلك الأشباح في الحيز الضيق تهز وتحرك صفي الأسرة الخشبية. وفي مخاريط الضوء الذي ترسله المصابيح اليدوية كانت تظهر لهنيهة وجوه القادمين حديثاً، متخفية، شبه مخبأة وراء اللفاعات وخوذ

العمل أو طاقيات الصوف التي تغطي الأذنين. وكان ليتوما يتعرف عليهم وينساهم. وتذمر الأمهق بوهن، محاولاً إبداء الغضب دون أن يتوصل إلى ذلك:

- أي خمرة سامة قدمها إلي ابن العاهرة ديونيسيو. أي مرهم كانت تضيفه إلى الخمر دونيا أدريانا الساحرة. لقد حوّلاني إلى حطام.

جميعهم ظلوا صامتين. ولكن هذا الصمت الفظيع كان مهذاراً بالنسبة لليتوما. لقد كان العريف يلهث ولسانه خارج فمه. هذا هو ما حدث. فادعاءات الأمهق وتبجحاته بالقتل وجنونه لم تكن تنبع منه، وإنما كان سببها تلك القذارات التي كانوا يجعلونه يشربها في الحانة بطريقة لا يمكن معرفتها. ولهذا كان ينطق بتلك الفظاعات، ولهذا كان متهيجاً جداً، ولهذا لم يهتم به أحد عندما كان يتحداهم. معهم حق: كيف سيغضبون إذا كانوا هم أنفسهم قد أوصلوه إلى تلك الحال. كانوا قد حوّلوا كاسيميرو هواركايا إلى نصف ميت.

- لا بد أن هناك برداً قذراً في الخارج - قال توماسيتو متحسراً.

- ليس البرد شديداً جداً - ردّ أحدهم من منضدة الكونتوار -. لقد خرجت الآن للتبول ولم يكن البرد شديداً.

- المسألة أنك لم تشعر به بسبب دفء الشراب يا صاحبي.

- لن تشعر وأنت ثمل بالبرد ولا بأي شيء آخر يا هواركايا.

كانوا يقتادونه، يوجهونه، يسندونه، يتناقلونه من يد إلى يد، غاب عن نظر ليتوما، مؤقتاً، وسط بقعة الأشباح المتحركة الكبيرة التي تنتظره خارج العنبر. كانوا يتحركون ويتهامسون، ولكن ما إن أصبح الأمهق بينهم ورأوه أو سمعوه أو أحسوا بوجوده، حتى سكتوا جميعهم — وفكر ليتوما — إن ذلك مثل الذي يحدث عند بوابة الكنيسة مع ظهور تماثيل المسيح والعذراء والقديس الشفيع محمولة على أكتاف أفراد الأخوية قبل بدء الموكب. في العتمة الجليدية لليل

المتقدم، وتحت ملايين النجوم الخاشعة، وبين كتل الجبال الضخمة والعنابر، كان يخيم الآن الوقار الكثيف والورع الآمل لصلوات الجمعة الحزينة تلك التي يتذكرها ليتوما في طفولته. لقد أصبحوا بعيدين مثل وجه توماسيتو المحتقن. وأرهف سمعه وتمكن من سماع كاسيميرو هواركايا الذي غيبه الجمع الكثيف لبعض الوقت:

ـ لست عدواً لأحد ولا أريد أن أكون عدواً لأحد. إنه السم الذي أعطاني إياه ديونيسيو! المرهم الذي ركبته لي زوجته! هما اللذان جعلاني أتفوه بحماقات.

فكانوا يطمئنونه، ويمسحون عليه براحات أكفهم:

ـ نعرف ذلك يا هواركايا. لا تغضب، لا أحد يعاديك يا صاحبي.

ـ جميعنا ممتنون لك يا أخي ـ قال صوت ناعم، يمكن أن يكون صوت امرأة.

«أجل، أجل» كرر ذلك كثيرون، وتصور ليتوما عشرات الرؤوس تومئ موافقة، مؤكدة بصمت للأمهق اعترافها وتأثرها بفضله. ودون حاجة إلى صوت آمر، لأن كل واحد منهم كان يعرف دوره، بدأ الحشد تحركه، ومع أن أحداً لم يكن يتكلم، أو حتى يهمس، فقد كان الجميع يتقدم متماسكاً، متوافقاً، متأثراً حتى العظام، ومرتعشاً، باتجاه الجبال. وفكر ليتوما: «إلى المنجم المهجور، المنجم الذي كان يدعى سانتا ريتا. إنهم ذاهبون إلى هناك» كان يسمع وقع أقدامٍ كثيرة على الصخور، وخوضها في البرك، وانزلاق الأجساد الرشيق، وحفيف الاحتكاك، وحين قدّر أنه قد مضى وقت طويل دون أن يسمع تذمر الأمهق، سأل جاره بصوت خافت:

ـ أيكون كاسيميرو هواركايا قد مات؟

ـ الأفضل ألا تتكلم.

لكن الذي إلى يساره أشفق على جهله ونوّره بصوت يكاد لا يُسمع:

- يجب أن يصل حياً إلى هناك في الأسفل، كي يتم تقبله.

سيلقون به من فتحة المنجم المهجور وهو ما يزال في وعيه. سيصعدون إلى هناك في الأعلى، في موكب صامت، منكمشين، مكروبين، يثبتونه من ذراعيه، ويرفعونه كلما تعثر، ويهدئونه، يشجعونه، مؤكدين له أنهم لا يكرهونه، وأنهم يكنون له التقدير، وأنهم يشكرونه لما سيفعله من أجلهم، وعندما يصلون إلى تلك الفتحة التي ستضيئها المصابيح، حيث الريح تصفر، سيودعونه ويدفعونه ويسمعونه يبتعد في صرخة طويلة، ثم يرتطم ارتطامة نائية جافة ويدركون أنه تمزق على أحجار قاع تلك الحفرة لدى وصوله إلى موعده المحدد.

- لم يعد يشعر ولا يحس بأي شيء. - قال ذلك أحدهم من وراء ظهره كأنه يقرأ أفكاره، وأضاف: - العريف ليتوما خرج «نوك آوت».

❖ ❖ ❖

لم يكن تيموتيو فاخاردو هو زوجي الأول بالكامل، فزوجي الكامل الوحيد هو ديونيسيو. فأنا وتيموتيو لم نتزوج قطّ، وإنما كنا نتعاشر فقط. لقد أساءت أسرتي معاملته، وكان أهالي كينكا أسوأ في معاملته. وعلى الرغم من أنه خلصهم من البيستاكو سالثيدو، فإن أحداً لم يساعده في إقناع والدي ليوافق على زواجه مني. بل إنهم راحوا يحيكون الدسائس ضد تيموتيو قائلين: «كيف سيسمح لهذا الفظ كبير الأنف أن يأخذ ابنته، ألا يشتهر مثل هؤلاء الأشخاص بكونهم لصوص مواشٍ؟» ولهذا هربت أنا وتيموتيو وجئنا إلى ناكوس. لدى مغادرتنا، ومن الشق الصخري الذي تظهر من خلاله القرية، ألقينا لعنة على أولئك الجاحدين. ولم أعد ولن أعود أبداً إلى كينكا.

لست أنكر ولا أؤكد، وإذا كنت أنظر ساهمة إلى الجبال وأنا

أزم شفتي، فليس ذلك لأن الأسئلة تحرجني، وإنما لأن وقتاً طويلاً قد انقضى. فأنا لست واثقة إذا ما كنا سعيدين أم تعيسين. من الأفضل القول إننا كنا سعيدين في الأزمنة الأولى، حين كنت أعتقد أن الملل والروتين هما السعادة. فقد حصل تيموتيو على عمل في منجم سانتا ريتا وكنت أنا أطبخ له وأغسل ملابسه، وكان الجميع يعتبروننا زوجاً وزوجة. وعلى خلاف ما هي الحال الآن، فقد كان في ناكوس آنذاك نساء كثيرات. وحين كان يمر ديونيسيو من القرية مع راقصيه ومجنوناته، كانت النساء هنا يصبحن نصف مجنونات أيضاً، فكان الأزواج والآباء يلهبون ظهورهن بالضرب كيلا يتصرفن بضلال، ولكنهن كن يركضن وراءه رغم ذلك كله.

ما الذي كان يسحرهن هكذا بسكير بدين؟ الشهرة، الأسطورة، الغموض، السعادة، موهبة التنبؤ، زجاجات البيسكو المعطرة من أيكا، والذكر المتفوق. أتريدون أكثر من هذا؟ لقد كان معروفاً جيداً في كل أنحاء سلسلة الجبال، فلم يكن هناك مهرجان أو احتفال أو مأتم في قرى خونين وهياكوتشو وهوانكافيليكا وأبو ريماك من دونه، أو بالأحرى من دونهم، فقد كان ديونيسيو يتجول آنذاك مع جوقة من الموسيقيين والراقصين الهوانكانيين والخونينيين الذين لا يتخلى عنهم مقابل أي شيء. ومعهم تلك الحفنة من المجنونات اللواتي يطبخن في النهار ويُصبن بمس من الجنون في الليل ويمارسن فظاعات مريعة.

ولم تكن الاحتفالات تبدأ إلا بعد وصول عصبة ديونيسيو إلى مدخل القرية قارعة طبولها، ومصفرة بناياتها، ومداعبة أوتار التشارانغو، وراجّة الأرض بوقع أحذيتها. وحتى لو كانت الألعاب النارية قد أطلقت، وكان الكاهن قد قدّم مباركته، فلن تكون هناك حفلة دون وجود ديونيسيو.

كانوا يتعاقدون معهم في كل مكان، وكانوا يتنقلون دائماً من مكان إلى آخر بالرغم من سوء السمعة الذي أحاط بهم. أي سوء سمعة؟ بأنهم يمارسون أموراً قذرة، وأنهم من نسل الشيطان. وكان يشاع عنهم أنهم يحرقون الكنائس ويقطعون رؤوس تماثيل القديسين والعذراء ويسرقون الأطفال حديثي الولادة. لقد كانت ألسنة سوء الكهنة خاصة هي التي تشيع ذلك عنهم. فقد كان هؤلاء يشعرون بالغيرة من ديونيسيو وينتقمون من شعبيته بنشر الافتراءات عنه.

حين رأيته أول مرة أحسست بأفاعٍ تذرع جسدي من رأسي حتى قدمي. كان يقف هناك، يبيع البيسكو من دنان محملة على بغال، في المكان الذي كان يشكل ساحة ناكوس آنذاك، حيث يوجد الآن مكتب شركة المقاولات. وكان قد وضع بضعة ألواح خشبية على حمالتين وعلق لافتة تقول: «هذه هي الحانة» وكان يعظ عمال المنجم: «لا تشربوا البيرة ولا خمرة القصب أيها الشباب. تعلموا السكر!»، «تذوقوا البيسكو الصافي المقطر من عنب إيكا، إنه يُنسيكم الأحزان ويُخرج الرجل السعيد من أعماقكم»، «زُرْ حيوانك!» كان ذلك في يوم العيد الوطني، وكانت هناك جوقات موسيقية، ومسابقات تنكرية، وسحرة وراقصو تيخيراس. ولكنني لم أستطع الاستمتاع بأي نوع من اللهو؛ فرغم إرادتي كان قدماي ورأسي يوجهونني نحوه. لقد كان أكثر شباباً، ولكنه لم يكن يختلف كثيراً عما هو عليه الآن.

نصف بدين، نصف مترهل، عينان سوداوان، شعر أجعد، وهذه الطريقة في المشي نصف المتقافز ونصف المتعثر التي ما زال يمشيها حتى الآن. وكان يلبي طلبات زبائنه، ويخرج إلى الرقص ناقلاً عدوى سعادته إلى الجميع.

«الآن رقصة موليثا» فيتبعونه، «رقصة الباسييّو» فيطيعونه،

«جاء دور رقصة الهواينيتو» فيبدؤون بضرب أقدامهم، «رقصة القطار» فيشكلون صفاً طويلاً جداً وراءه. كان يغني، يشب، يقفز، يعزف التشارانغو، ينفخ الناي، يرفع الأنخاب، يصرخ، يطقطق بالصنوج ويضرب الطبل. ويبقى ساعات وساعات دون أن يتعب أبداً. ساعات وهو يضع وينزع أقنعة كرنفال خونين، إلى أن تتحول ناكوس بأسرها إلى دوامة من الناس السكارى والسعداء: فلا يعود أحد يعرف أحداً، ولا أين يبدأ هذا وأين ينتهي ذاك، ومن هو الرجل، ومن الحيوان ومن الإنسان، ومن المرأة. وعندما جاء دوري في إحدى اللحظات للرقص معه، شدني إليه، وداعبني بيديه، وأشعرني بشيئه المتصلب على مستوى بطني، وكان يبتلع لسانه ويفرقعه مثل فرقعة المقالي في المقلاة. في تلك الليلة أدماني تيموتيو فاخاردو من الركل وهو يقول لي: «لو أنه طلب منك لكنت ذهبت معه. أليس كذلك أيتها العاهرة؟».

لم يطلب مني ذلك، ولكنني ربما كنت سأذهب معه لو أنه طلب مني، وربما كنت سأرضى بأن أكون واحدة أخرى من جوقة ديونيسيو، مجنونة أخرى تتبعه في قرى وأقاليم سلسلة الجبال، تسافر في كل دروب الأنديز، تصعد إلى البونا الباردة، وتنزل إلى الوديان الحارة، تمشي تحت المطر، تمشي تحت الشمس، تطبخ له، وتغسل ملابسه، وتنصاع لنزواته، وتُبهج المحتفلين في مهرجانات السبوت، بل وتتعهر لتنال رضاه. كان يقال إنهم ينزلون إلى الساحل لتجديد مؤونتهم من البيسكو، وعلى تلك الرمال المحاذية للبحر، كانت المجنونات والراقصون يرقصون عراة في الليالي التي يكون فيها القمر بدراً، وكان ديونيسيو يستحضر الشيطان متنكراً بزي امرأة.

كانوا يقولون عنه كل الأشياء التي حدثت والتي قد تحدث

بخوف وتقدير. ولكن أحداً لم يكن يعرف في الحقيقة شيئاً كثيراً عن حياته، وإنما مجرد إشاعات فقط. أن أمه تفحمت بصاعقة أثناء عاصفة مثلاً. وأنه تربى وترعرع على يد جماعة من نساء قرية ايكيتشانيات ما يزلن وثنيات، في مرتفعات هوانتا. وأنه كان مجنوناً في شبابه ببعثة تبشيرية للآباء الدومينيكيين، وأن الشيطان هو الذي أعاد إليه رشده، وعقد حلفاً معه. وأنه عاش في الأدغال مع قبيلة تشونتشيين من أكلة لحم البشر. وأنه اكتشف البيسكو أثناء ترحاله في فيافي الساحل، وأنه منذ ذلك الحين يجوب سلسلة الجبال ليبيع هذا النوع من الخمر. وأن له نساء وأبناء في كل مكان، وأنه قد مات وانبعث، وأنه بيستاكو، وموكي، ونازع أحزان، وساحر، ومنُجِّم، وعراف. ولم يكن هناك سر غامض ولا أمر فظيع إلا ويُنسب إليه. وكان هو نفسه يعتز بسوء سمعته.

لقد كان أكثر من مجرد بائع بيسكو بالطبع، والجميع كانوا يدركون ذلك؛ وكان أكثر من مدير جوقةِ موسيقيين وراقصين فولكلوريين، وأكثر من مُهيِّج وأكثر كذلك من صاحب ماخور جوّال. أجل، أجل، واضح جداً. ولكن، ماذا كان فوق ذلك؟ شيطان؟ ملاك؟ إله؟ وكان تيموتيو فاخاردو يقرأ في عيني أنني أتفق مع ديونيسيو، فكان يغضب وينهال علي بالضرب. لقد كان الرجال يشعرون بالغيرة منه، ولكنهم جميعهم يعترفون «من دونه لا يمكن إقامة حفلة» فما إن يصل ويقيم بسطته حتى يهرعوا إليه ويطلبوا منه كؤوس البيسكو ويتبادلوا الأنخاب معه. وكان ديونيسيو يقول: «أنا أدبتهم. فقد كانوا يسممون أنفسهم من قبل بالتشيتشا والبيرة وخمرة القصب، وهم يشربون الآن البيسكو، مشروب العروش والملائكة».

لقد عرفتُ أشياء أخرى عنه من امرأة أياكوتشية من

هوانكاسانكوس. وقد كانت واحدة من مجنوناته ثم تركته، وجاءت إلى هنا كزوجة لأحد رؤساء فرق العمل في منجم سانتا ريتا، في الوقت الذي جفف فيه البيستاكو خوان أباثا تقريباً. وقد أصبحتُ وإياها صديقين، فكنا نذهب معاً لغسل الملابس عند المسيل، وقد سألتها يوماً عن سبب كثرة القروح في جسدها. عندئذ أخبرتني. لقد كانت تجوب العالم لوقت طويل مع جوقة ديونيسيو، وتنام معهم في العراء حيث يداهمهم الليل، بعضهم فوق بعض لحماية أنفسهم من البرد، وكانوا يتنقلون من مهرجان إلى مهرجان ومن سوق إلى سوق، يعتاشون على صدقات المحتفلين. وحين يبتهجون ويمرحون فيما بينهم، بعيداً عن أنظار الآخرين، يصيب الجنون أفراد الجوقة. أو أنهم، حسب قول ديونيسيو، يزورون حيوانهم. فينتقلون من الحب إلى تبادل الضرب الجنوني. من الحنان إلى خمش بعضهم البعض، من القبلات إلى العض ومن المعانقات إلى التدافع دون التوقف عن الرقص. «أو لم يكن يؤلمك يا ماماي؟». «كان الألم يأتي فيما بعد يا ماماي؛ أما مع الموسيقى والرقص والغيبوبة. فكان ذلك لذيذاً. يتلاشى عندئذ القلق ويخفق القلب بقوة وتشعرين بأنك صقر، موللي[1]، وهدة، كوندور، نهر. لقد كنا نصل حتى النجوم ونحن نرقص ونتبادل الحب أو الضرب»، «ولماذا تركتهم إذا كانت حياتهم تروقك إلى هذا الحد؟» لأن قدميها كانتا تتورمان ولا تستطيع اللحاق بهم في مشيهم. فقد كانوا كثيرين، ولم يكونوا يجدون في كل مرة شاحنة تحملهم. فكانوا يقومون برحلاتهم مشياً على الأقدام، يقضون أياماً في الذهاب وأسابيع في الإياب. وكان ذلك ممكناً في تلك الأيام، حين لم يكن هناك إرهابيون ولا سينتشيون في

[1] موللي (molle) في لغة الكيتشوا، نوع من الشجر له أوراق عطرة ويصنع من ثماره نوع من التشيتشا.

الأنديز. ولهذا السبب اختارت تلك المرأة أخيراً الزواج من رئيس فريق العمل والركون برأسها هنا في ناكوس. ولكنها كانت تعيش حالمة بمغامراتها القديمة، وهي تتذكر وتتنهد: «لقد كنت سعيدة حينذاك» وكانت تلمس قروحها بحنين.

وهكذا لسعني الفضول بعد أن كان يسكنني القلق منذ أن رقصت معه ولمسني بيديه في يوم العيد الوطني ذاك، وعندما جاء ديونيسيو إلى ناكوس في المرة التالية وسألني إذا كنت أود الزواج منه، قلت له طيب. وكان المنجم آنذاك قد بدأ بالانحدار. فقد نضب المعدن في سانتا ريتا، وكان بيستاكو الأب الكبير يثير الفزع في نفوس الناس بعد أن جفف سيباستيان صديق تيموتيو. لم يطلب مني ديونيسيو أن أنضم إلى المجنونات، أو أن أكون واحدة أخرى في جوقته. بل طلب مني أن أتزوجه. فقد وقع في حبي منذ عرف كيف ساعدت تيموتيو في صيد البيستاكو سالثيدو، في مغاور كينكا. وقد أكد لي: «إنك مرصودة لي منذ الأزل». وقد أكدت لي النجوم وأوراق اللعب ذلك فيما بعد.

تزوجنا في قرية موكيياويو، حيث كانوا يبجلونه منذ أن أشفى كل شبان القرية من وباء هراوى أصابهم، أجل في أعضائهم التناسلية. لقد داهمهم الداء في صيف ماطر. إنه أمر يبعث على الضحك، ولكنه كان يبكيهم بيأس آنذاك. فمنذ أن يفتحوا عيونهم مع صياح الديك يجدون أعضاءهم منتفخة ومحمرة ولاذعة مثل الفلفل. لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون. فكانوا يغتسلون بالماء البارد ولكن دون جدوى، يستمنون ولكنها لا تلبث أن تنتصب مثل دمى بنوابض. وبينما هم يحلبون الماشية أو يشذبون النباتات أو ينجزون ما عليهم إنجازه من أعمال، كانت أعضاؤهم تبقى على تضخمها وثقلها ما بين سيقانهم وكأنها مدقات أو مطارق أجراس. أحضروا

راهباً من دير سان انطونيو دي أوكوبا. فأقام لهم قداساً ورقاهم بالبخور. ولكن ذلك لم ينفعهم أيضاً؛ فقد واصلت الأعضاء الاندفاع والنمو إلى أن شقت سراويلهم وخرجت لرؤية الشمس. عندئذ جاء ديونيسيو. أخبروه بما هم فيه، فنظم موكب مرح برفقة الموسيقى والرقص. وبدلاً من أن يحملوا قديساً، رفعوا على المحفة عضواً من الصلصال صممه أفضل صانع فخار في موكيياويو. وكانت الجوقة الموسيقية تعزف موسيقى عسكرية بينما الفتيات يزينّه بأكاليل من الزهر. ثم أغرقوه بعد ذلك في نهر مانتارو، حسب تعليمات ديونيسيو. وألقى الشباب المصابون بالداء أنفسهم في النهر أيضاً. وعندما خرجوا ليجففوا أبدانهم كانوا قد أصبحوا طبيعيين، فقد عادت أعضاؤهم مجعدة وخامدة من جديد.

رفض كاهن موكييا أن يزوجنا في أول الأمر. وكان يقول وهو يحرك يده طارداً ديونيسيو: «هذا الرجل غير كاثوليكي، إنه متشرد ومتوحش». ولكنه ما لبث أن لانَ بعد أن تناول كؤوسه من الخمر ووافق على تزويجنا. استمرت الاحتفالات ثلاثة أيام، وكان الجميع خلالها يرقصون ويأكلون، يرقصون ويشربون، يرقصون ويرقصون حتى الغيبوبة. وعند مغيب شمس اليوم الثاني أمسكني ديونيسيو من يدي واقتادني لصعود مرتفع وأشار إلى السماء قائلاً: «أترين تلك المجموعة من النجوم، هناك، تلك التي تشكّل تاجاً؟» وكانت متميزة بوضوح عن النجوم الأخرى. «أجل، إني أراها» فقال: «هذه هديتي لك في زفافنا».

ولكن لم يكن بإمكانه أن يأخذني حينذاك. فقد كان عليه أن ينجز عهداً قطعه على نفسه قبل ذلك. فبعيداً عن موكيياويو، على الضفة الأخرى لنهر مانتارو، وصعوداً إلى سلسلة خاوخا، توجد دسكرة ياناكوتو، حيث عاش ديونيسيو طفولته. وحين ماتت أمه،

محروقة بالصاعقة، لم يقتنع بتلك الميتة. وراح يبحث عنها واثقاً من أنه سيجدها في مكان ما. وتحول إلى مشّاءٍ، وعاش كروح تائهة، يروح ويجيء إلى كل الأنحاء إلى أن اكتشف البيسكو في مزارع إيكا وصار بائعه والمحرض على تناوله. وفي أحد الأيام رأى أمه في الحلم، وأعطته موعداً للقاء بها: يوم أحد الكرنفال عند منتصف الليل، في مقبرة ياناكوتو. وقد ذهب إلى هناك في الموعد مدفوعاً بعواطفه. ولكن حارس المقبرة، وهو أعرج أكلت القروح أنفه ويدعى يارانغا، لم يشأ السماح له بالدخول إذا لم يُنزل له سرواله أولاً. تجادلا وتوصلا إلى اتفاق: أن يسمح له يارانغا بالدخول إلى موعده مع أمه بشرط أن يرجع ويقدم له مؤخرته قبل أن يدخل على عروسه يوم زفافه. وهكذا دخل ديونيسيو إلى المقبرة، وتحدث إلى أمه، ثم ودّعها وانصرف. وعندما جاء موعد زفافه، بعد خمس عشرة سنة من ذلك، كان علي أن أرافقه لينفذ وعده.

لقد استغرقنا يومين في الصعود إلى ياناكوتو، اليوم الأول في شاحنة والثاني على بغلة. وكانت هناك ثلوج في البونا، وكان الناس يمضون بشفاه مزرقة ووجوه مشققة من البرد. ولكن المقبرة كانت من دون السور الذي يتذكره ديونيسيو، ولم يكن هناك أي حارس أيضاً. وحين سألنا، أخبرونا بأن يارانغا قد مات مجنوناً منذ سنوات. ولم يتوقف ديونيسيو عن الاستفسار إلى أن أروه قبره. وفي تلك الليلة، بينما كانت الأسرة التي قدمت لنا المأوى قد نامت، أخذني من يدي وقادني إلى القبر الذي دفن فيه يارنغا. كنت قد رأيته طوال اليوم مشغولاً بتشذيب غصن صفصاف بسكينة. لقد كان ذلك الغصن وتداً مثل ذكر معتدل. طلاه بدهن الشمع، وغرسه في قبر يارانغا، ثم خلع سرواله وجلس عليه وهو يطلق الولولات.

بعد ذلك، وبالرغم من الجليد، مزق سروالي وبطحني أرضاً، ثم

أخذني عدة مرات من قدام ومن وراء. وبالرغم من أنني لم أكن بكراً آنذاك، إلا أنني أطلقت صرخات أقوى من ولولاته على ما أظن، إلى أن فقدتُ الوعي. هكذا كانت ليلة زفافنا.

ومنذ ذلك اليوم بدأ يعلمني الحكمة، وقد كانت لدي قابلية جيدة لتمييز الرياح، وسماع أصوات باطن الأرض، والتواصل مع قلوب الناس بلمس وجوههم. وكنت أظن أني أتقن الرقص، ولكنه علمني كيف أَدخلُ إلى أعماق الموسيقى وكيف أدخلها إلى أعماقي وأجعلها ترقص على إيقاعي بدل أن أرقص على إيقاعها. وكنت أظن أني أتقن الغناء، ولكنه علمني كيف أسلّم قيادي للغناء لأكون خادمة الأغاني التي يغنيها. وشيئاً فشيئاً رحت أتعلم قراءة خطوط الكف، وحلّ رموز أوراق الكوكا حين تستقر على الأرض بعد أن تذروها الريح، وتحديد المرض بتمرير أرنب كويي حي على أجساد المرضى. واصلنا الترحال والنزول إلى الساحل لتجديد حمولتنا من البيسكو، وإحياء حفلات كثيرة، إلى أن بدأت الدروب تصبح خطرة بعد توالي المجازر، وبدأت القرى تقفر من ساكنيها أو تنغلق بريبة قاسية أمام الغرباء. فمضت المجنونات في سبيلهن، وغادرنا الموسيقيون، واختفى الراقصون. وفي أحد الأيام قال لي ديونيسيو: «لقد حان الوقت لنضرب، أنا وأنت، لنا جذوراً في الأرض أيضاً ونستقر» وكنا قد أصبحنا مسنين على ما أظن.

لست أدري ما حلّ بتيموتيو فاخاردو، ولم أعرف أخباره قطّ. أما التقولات التي تشاع، فقد سمعت بها كلها. لقد لاحقتني مثل ظلي إلى كل مكان سنة بعد سنة. هل دسستِ له السم في طبق التشونيو وقتلته لتهربي مع السكير البدين؟ أم قتَلَهُ هو نفسه متظاهراً بأنه موكي؟ هل قدمته هدية إلى الإبيستاكو؟ هل أخذتموه إلى اجتماع سحرتكم في أعالي الجبل، وهناك قامت المجنونات المخمورات

بتمزيق ذي الأنف الأكبر؟ وهل أكلتموه بعد ذلك أيتها الساحرة الخبيثة؟ ومنذ ذلك الحين بدؤوا يدعونني الساحرة ودونيا.

❖ ❖ ❖

ـ لقد تعمّدت أن أتركك تتعذب دون أن أرد على مكالماتك ودون أن أعطيك الموعد الذي كنت تطلبه ـ بادر القومندان إلى قول ذلك لكارينيو على سبيل التحية، ثم أردف: ـ حتى أبقيك متوتراً. ولأنني أردت أن أخطط بكل خبث لمعاقبتك يا ابن أكبر العاهرات.

فهتف ليتوما:

ـ هيا أخيراً ظهر العرّاب الشهير. لقد كنت أنتظره بفارغ الصبر، فهو أكثر شخص يهمني في قصتك. فلنر إذا كنتُ سأتخلص بذلك من رعب الهوايكو اللعين. تابع، تابع يا توماسيتو.

فهز كارينيو رأسه بتذلل:

ـ حاضر يا عَرّابي. مثلما تشاء.

ولكي يتفادى أسخريوطي البدين النظر في عيني كارينيو، فقد كان يدفن وجهه في شطائر البيض المقلي والبطاطا المقلية والرز الأبيض. وكان يمضغ بغضب، ويشرب جرعة من البيرة بين كل لقمة وأخرى. أما القومندان فكان يرتدي الملابس المدنية ويضع على كتفيه لفاعاً حريرياً، وعلى عينيه نظارة سوداء، وكان رأسه الأصلع يلمع في العتمة الخفيفة التي تقطعها أنابيب النيون المتباعدة. وكانت هناك سيجارة مشتعلة معلقة بشفتيه وكأس ويسكي يهتز في يده اليمنى.

ـ إقدامك على قتل تشانشو هو إهانة لي، فقد أرسلتك إلى تنغو ماريا لحمايته. ـ قال له القومندان ـ ولكن ليس هذا الأمر ما هو أشد ما يزعجني في بلاهتك. أتعرف ما الذي يضايقني أكثر؟ أنك فعلت ذلك للسبب الذي فعلته من أجله. قل لي، لماذا فعلت ذلك أيها الخصي؟

ـ أنت تعرف السبب جيداً يا عَرّابي. ألم يخبرك أسخريوطي بذلك؟ ـ دمدم الفتى وهو يخفض عينيه بتذلل.

ـ هل كنتم في ماخور؟ ـ سأله ليتوما ـ أكانت هناك موسيقى وعاهرات حول الطاولة؟ أكان عرابك هناك مثل ملك؟

ـ مكان نصف مرقص ونصف بار ونصف ماخور ـ أوضح توماسيتو ـ لا توجد فيه حجرات منفردة، ويتوجب على الزبائن أخذ الفتيات إلى الفندق المقابل. وأظن أن عَرّابي شريك فيه. لم أكن قادراً على ملاحظة أي شيء، فقد كانت خصيتاي مكان لوزتي حينذاك يا عريفي.

أمره القومندان بنبرة إمبراطور:

ـ أريد أن أسمع السبب من فمك أنت بالذات يا ابن أكبر العاهرات.

فهمس الفتى بصوت كالخيط وهو يطأطئ رأسه:

ـ قتلت التشانشو لأنه كان يضربها من أجل لذته. أنت تعرف ذلك، فقد أخبرت أسخريوطي به.

لم يضحك القومندان. بقي هادئاً، ينظر إليه من وراء نظارته القاتمة، ويهز رأسه ببطء. وكان يتابع إيقاع الموسيقى بقرع كأس الويسكي على الطاولة. وظل على تلك الحال إلى أن أمسك أخيراً، ودون أن يلتفت، بذراع امرأة ترتدي بلوزة برّاقة كانت تمر بجانبه. أجبرها على الاقتراب وعلى الانحناء وسألها وشوشة:

ـ هل يروقك أن يضربك زبائنك، نعم أم لا؟

فضحكت المرأة وهي تقرص شاربه:

ـ كل ما تفعله بي يروقني يا باباثيتو. هل تريد أن نرقص معاً؟

أعادها القومندان إلى حلبة الرقص بدفعها برفق. وقرّب رأسه من كارينيو الذي كان متيبساً في كرسيه:

ـ النساء يحببن تلقي قليلاً من العقوبات فـي الفراش أيها المغفل، وأنت لا تعرف ذلك.

ـ ثم أومأ بحركة قرف وأضاف: ـ ما يقلقني هو أنني وضعت ثقتي في غر لا خبرة لديه ولا معرفة. إنك تستحق الموت، ليس لأنك قتلت تشانشو، وإنما لأنك مغفل. هل أنت نادم على ما فعلته على الأقل؟

ـ إنني نادم لأني لم أكن عند حسن ظنك، بالرغم من كل الجميل الذين ندين به إليك أنا وأمي. ـ تلعثم الفتى بذلك، ثم استجمع قواه ليضيف: ـ ولكن، اعذرني يا عَرّابي إذا قلت لك إنني غير نادم على قتل تشانشو. بل إنني مستعد لقتله مرة أخرى إذا انبعث حياً.

ـ ماذا؟ ـ صرخ القومندان متفاجئاً: ـ هل تسمع يا اسخريوطي ما الذي يقوله؟ هل تظن أنه أصبح أكثر غباء مما كان عليه حين دخل هنا؟ هل تسمع حقده على المسكين تشانشو لمجرد أنه وجه صفعتين إلى عاهرته؟

فقاطعه كارينيو متوسلاً:

ـ لم تكن عاهرته، وإنما صديقته يا عَرّابي. أرجوك ألا تتحدث عنها بهذه الطريقة، فهي الآن امرأتي. أعني أنها ستصبح امرأتي عما قريب. فأنا وميرثيدس سنتزوج قريباً.

بقي القومندان يتأمله للحظة، ثم انفجر ضاحكاً.

وقال توماسيتو:

ـ لقد أعاد بذلك الروح إلى جسدي يا عريفي. فتلك الضحكة تعني أنه بدأ يسامحني بالرغم من الشتائم التي كان يوجهها لأمي.

ـ هل هو أكثر من كونه مجرد عَرّابك يا توماسيتو؟ ـ سأله ليتوما ـ. ألا يكون أباك؟

ـ لقد سألت نفسي هذا السؤال مرات كثيرة أيضاً يا عريفي. إنه

شك أعيشه منذ صباي. ولكن يبدو لي أنه ليس أبي. لقد كانت أمي خادمة في بيته طوال أكثر من عشرين سنة في سيكواني، وفي كوسكو، وفي ليما. وقد كانت تُلبس وتحمم وتطعم أم عَرّابي المشلولة. ولست أدري، ربما يكون أبي. فأمي لم تشأ أن تخبرني قطّ عمن حبّلها.

ـ إنه أبوك بكل تأكيد ـ قال ليتوما ـ. فأنت لا تستحق العفو بعد الذي فعلته بالتشانشو. كان يمكن لذلك أن يورط عَرّابك ويخوزقه مع تجار المخدرات. وإذا كان قد عفا عنك فلأنه أبوك بالتأكيد. فمثل هذه الأمور لا يغفرها إلا الآباء.

ـ حسن، لقد أسأتُ التصرف ـ قال توماسيتو ـ، ولكنني قدمت إليه بذلك خدمة في الوقت نفسه. فقد تحسن بفضلي سجل خدمته في سلك الشرطة، حتى إنهم رصعوا صدره بوسام. وقد أصبح مشهوراً لأنه قضى على تاجر المخدرات ذاك.

قال القومندان وهو ما يزال يبتسم قليلاً:

ـ لا بد أن لميرثيدس هذه مؤخرة بحجم بيتٍ حتى أحببتها هكذا. هل جربتها أنت يا اسخريوطي؟

ـ لا أيها الرئيس، لم أجربها. ولكن لا تعتقد أنها مثيرة إلى الحد الذي يدعيه كارنيتو. إنه غارق في هواها ويرسم لها صورة مثالية. أما هي، فإنها مجرد سمراء لها ساقان جيدتان فقط.

ـ أنت تعرف كثيراً في الطعام، ولكنك لا تعرف في النساء أيها البدين، فواصل أكل شطائرك وأطبق فمك. ـ قال كارينيو ذلك، ثم توجه إلى القومندان: ـ لا تهتم به يا عَرّابي. ميرثيدس هي أجمل النساء في البيرو. يجب أن تفهمني، فلا بد أنك أحببت يوماً.

ـ أنا لا أحب، وإنما أضاجع فقط، ولهذا فإنني سعيد ـ أكد القومندان ـ. أما أن تقتل من أجل الحب في هذه الأزمنة! اللعنة، هذا

أمر تستحق عليه أن يعرضوك في أحد أقفاص السيرك. وهل ستتركني أجرب هذه المرأة لأرى إن كانت تستحق اقتراف الحماقة التي أقدمتَ عليها؟

- أنا لا أعير امرأتي إلى أحد يا عَرّابي. حتى ولا إليك أنت، بالرغم من كل الاحترام الذي أكنه لك.

قال القومندان:

– لا تظنني قد غفرت لك إذا كنت قد مزحت معك قليلاً. فظرافتك مع التشانشو يمكن لها أن تكلفني الخصيتين اللتين منحني إياهما الرب.

ابتهج كارينيو قليلاً:

- ولكنهم منحوك وساماً بموت تاجر المخدرات هذا. وقد أصبحت الآن بطلاً وطنياً يناضل ضد تجار المخدرات. فلا تقل لي إنني قد أسأت إليك. اعترف بأنني قد قدمت لك جميلاً يا عَرّابي.

فرد القومندان:

– كان لا بد لي من تحويل النكبة إلى نعمة يا شقفة الغبي. ولكنك ورطتني على أي حال وقد أتعرض للمشاكل. فإذا أراد جماعة التشانشو الانتقام، من تظنهم سيهاجمون؟ من سيخوزقون؟ هل سينتقمون من حشرة مثلك أم مني أنا؟ وهل ستندم على فعلتك عندما سيرسلونني إلى المقبرة؟

- لن أسامح نفسي مطلقاً إذا حدث ذلك يا عّرابي. ولكنني أقسم لك أنني سأذهب إلى نهاية العالم لأصفي الحساب مع من يمس شعرة واحدة منك.

– يا للعاهرة، سأبدأ البكاء تأثراً من كل هذه المحبة التي تكنها لي. – قال القومندان ذلك وهو يشرب رشفة من الويسكي ويفرقع لسانه، ودون فترة انتقالية، وبطريقة لا تقبل أي اعتراض،

أمره قائلاً: ـ وقبل أن نواصل الحديث، ولكي أرى أي عفو أمنحك، أسرع وأحضر ميرثيدس هذه. الآن حالاً. أريد أن أرى بأم عيني إذا كانت هذه المؤخرة تستحق كل هذا السلوك الغبي.

ـ اللعنة ـ هتف ليتوما ـ إنني أرى أن هذا النذل يتمادى.

ـ لقد خفت يا عريفي ـ اعترف توماسيتو ـ فما الذي أستطيع عمله، ماذا يمكنني أن أفعل إذا استولى عَرّابي على ميرثيدس.

ـ تسحب مسدسك وتقتله هو أيضاً ـ قال العريف.

فرد مساعده وهو يهتز مغموماً في سريره:

ـ ما الذي أستطيع عمله. لقد كنا نعتمد عليه في كل شيء. من أجل تجديد بطاقة هوية ميرثيدس، ومن أجل تسوية وضعي. فقد كنت حينئذ، بالمصطلح الفني، هارباً من الخدمة في الحرس الأهلي. لقد مررت بلحظة عصيبة ومريرة، إنني أعترف لك.

ـ وهل تظنني سأخاف منه؟ ـ ضحكت ميرثيدس.

ـ إنها تضحية يجب علينا القيام بها لكي نستطيع الخروج من هذا الوضع يا حبي. ستكون جرعة مرارة لنصف ساعة وحسب. لقد بدأ يهدأ، لقد بدأ يمزح معي. ثم لدغه الفضول وأراد أن يتعرف عليك. لن أسمح له بأن يهينك، أقسم لك.

فقالت ميرثيدس وهي ترتب شعرها وتنورتها:

ـ أستطيع الدفاع عن نفسي بمفردي يا كارينيتو. فأنا لا يمكن لأي قومندان أو أي جنرال أن يهينني. ما رأيك؟ هل سأجتاز الامتحان أيها المحترم؟

ـ بامتياز. ـ تنحنح القومندان، وأردف: ـ كرسي، كرسي. أرى أنك ممن يتقن اللعب يا صغيرتي. هذا أفضل. فأنا أحب النساء اللواتي يتواقحن في إجاباتهن.

فقالت ميرثيدس:

- هل تعني أننا سنرفع الكلفة فيما بيننا؟ كنت أظن أنه علي أن أدعوك بعَرّابي أيضاً. طيب، فلنرفع الكلفة، يا قطي.

قال لها القومندان:

- وجهك جيد، جسمك جيد، ساقاك جيدتان، موافق. ولكن هذا كله لا يكفي لتحويل فتى غر إلى قاتل. لا بد أن لديك ما هو أكثر من هذا حتى جعلت الصبي يرفع قوائمه. هل يمكنني أن أعرف ما الذي فعلته به؟

- أسوأ ما في الأمر أنني لم أفعل به شيئاً - قالت ميرثيدس -. لقد كنت أول من فوجئ بنوبة الجنون التي أصابته. ألم أخبرك؟ قتله أولاً ثم قال لي بعدها إنه فعل ذلك من أجلي، وإنه كان مدلهاً بحبي. لم أستطع أن أصدق، وما زلت غير قادرة على تصديقه. ألم يكن هذا هو ما حدث يا كارينيتو؟

- أجل يا عرّابي، هذا ما حدث - قال الفتى -. ميرثيدس لا تتحمل أي مسؤولية. أنا الذي ورطتها في المشكلة. هل ستساعدنا؟ هل ستصدر بطاقة هوية جديدة لميرثيدس؟ نريد الذهاب إلى الولايات المتحدة وبدء حياة جديدة.

قرّب القومندان وجهه من ميرثيدس وأمسكها من ذقنها، وقال لها:

- لا بد أنك عملت شيئاً خاصاً جداً لهذا الفتى حتى أوصلتِه إلى هذا الحد من الهيام. هل أعطيته ولعة يا صغيرتي؟

- أرجوك ألا تسيء احترام ميرثيدس - قال الفتى -. أحلفك بأعز شيء لديك يا عَرّابي. لأني لن أسمح بذلك حتى لحضرتك.

وسأله ليتوما:

- وهل كان عَرّابك يعرف أن ميرثيدس هي أول امرأة تضاجعها؟

فرد مساعده:

- لا ، لا هو ولا أحد سواه. كنت أفضل الموت على قول ذلك له. فهذا الأمر لا يعرفه أحد سوى ميرثيدس وأنت يا عريفي.

- شكراً لثقتك بي يا توماسيتو.

- ولكن ذلك لم يكن أسوأ لحظة في تلك الليلة. فالأسوأ أتى عندما طلب منها عَرّابي الرقص معه. لقد أحسست عندئذ بالغضب يتصاعد من جسدي وبأنني سأنفجر في أي لحظة.

- اهدأ ، اهدأ ولا تكن مغفلاً يا كارينيتو. - قال له اسخريوطي البدين وهو يربت على ذراعه: - ما همّ إن راقصها وشدها إليه؟ إنه يتقاضى منك الكفارة باستثارة غيرتك. لقد غفر لك كل شيء في أعماقه ، وسيحل مشاكلك ، كل شيء يجري مثلما تنبأت لك في هوانوكو. فكر بحل مشاكلك فقط.

وتذبذب صوت توماسيتو الغاضب في العتمة:

- ولكنني كنت أفكر في أنه يلتصق بجسدها ويداعبها. وكنت سأوقف ذلك المستغل عند حده حتى ولو دمرت نفسي.

لكن القومندان جاء في تلك اللحظة ممسكاً بيد ميرثيدس وهو يكاد يموت من الضحك.

- هذه امرأة سليطة ، ويجب علي أن أهنئك يا فتى. - قال ذلك وهو يداعب رأس توماس بلطف: - قدمتُ لها عرضاً مغرياً لكي تركّب لك قروناً معي ، فلم توافق.

فقالت ميرثيدس:

- كنت أعرف أنك تمتحنني ولهذا رددتك خائباً ياقطي. ثم إنك ستكون آخر شخص يخطر لي أن أخون كارينيتو معه. هل ستساعدنا إذن؟

- من الأفضل جعل امرأة مثلك صديقة وليس عدوة - قال القومندان - يا للأنثى التي أوقعت نفسك معها يا فتى.

- وقد ساعدنا - تنهد توماس -. ففي اليوم التالي حصلت ميرثيدس على بطاقة هوية جديدة. وفي تلك الليلة نفسها تركتني ومضت.

- هل تعني أنها تركتك فور حصولها على أوراقها يا توماسيتو؟

فدمدم مساعده ببطء شديد:

- آخذة معها الأربعة آلاف دولار التي أهديتها إليها. إنها ملكها. فقد أعطيتها إياها. وقد تركت لي رسالة تقول فيها ما كانت قد قالته لي مرات ومرات: إنها ليست المرأة التي تناسبني، وإنني سأنساها، وتلك الأسطوانة المعهودة.

قال ليتوما:

- هذا ما حدث إذن. اللعنة يا توماسيتو.

وقال مساعده:

- أجل يا عريفي. هذا ما حدث.

IX

- الشخص الذي أعنيه يدعى بول، وله كنية غريبة، ستيرمسون - قال لهما ليتوما - ولكنكما تعرفانه بلقبه: الحمى القرمزية. لقد كان أحد الذين نجوا بأعجوبة عندما داهم الإرهابيون منجم لاسبيرانثا. وقد أخبرني أنه يعرفكما جيداً. هل تتذكرأن هذا الغرينغو؟

أومأت دونيا أدريانا بالإيجاب وهي تكشر تكشيرة مقت:

- شخص كثير الأسئلة يريد أن يعرف كل شيء عن كل شيء. يحمل معه دفتراً على الدوام، ولا يتوقف عن الكتابة. منذ زمن طويل لم يأت إلى هنا. هل كان إذن أحد الذين اختبؤوا في خزان الماء؟

أطلق ديونيسيو بصقة وقال:

- لقد كان «حشرياً» يدرسنا وكأننا نباتات أو حيوانات. كان يلاحقني في كل أنحاء الأنديز. لم يكن يهتم بنا لذواتنا، وإنما ليحشرنا في كتبه. هل ما زال حياً هذا الحمى القرمزية الغرينغو؟

أوضح ليتوما:

- هو أيضاً استغرب عندما علم أنكما لا تزالان حيين - أوضح ليتوما -. كان يظن أن الإرهابيين قد أعدموكما كعدوين للمجتمع.

كانوا يتبادلون الحديث عند بوابة الحانة، تحت شمس عمودية وشديدة البياض تتلألأ على توتياء العنابر الناجية من الدمار. وكانت جماعات من العمال تحمل قطعاً من ألواح خشبية ومثاقب وحبالاً ورفوشاً ومعاول وتقلب بعض الأحجار التي حملها الهوايكو، في محاولة لفتح طريق تخرج عبره من المعسكر الآلات التي لم يسحقها أو يعطلها الانهيار. وعلى الرغم من الحركة النشطة التي يمكن لمحها في الكشك الذي أصبح مكتباً مؤقتاً بدلاً من المكتب الذي

خربته الصخور، كانت ناكوس تبدو مقفرة. لم يكن قد بقي في القرية إلا أقل من ثلث العمال. وكانوا يواصلون المغادرة؛ فهناك مثلاً، على الدرب الصاعد باتجاه طريق هوانكايو، لمح ليتوما ثلاثة أشباح تبتعد في رتل أحادي محملة بحزم على ظهورها. كانوا يمشون مسرعين وبخطوات إيقاعية وكأنهم لا يشعرون بثقل أحمالهم.

قال وهو يشير إليهم:

- هذه المرة أذعنوا للمغادرة فقط، دون إضرابات أو احتجاجات.

ورد ديونيسيو دون أي تأثر:

- يعرفون أنه لا جدوى. لقد جاء الهوايكو في مصلحة الشركة. إنها تريد وقف العمل منذ زمن. وها قد جاءتها الذريعة الآن.

- ليست ذريعة، ألا ترى كيف صار المكان؟ - قال العريف - أي طريق سيشقون بعد أن انهار الجبل على ناكوس؟ لست أدري كيف لم يمت أحد في مثل هذا الانهيار.

فزمجرت دونيا أدريانا وهي تشير بحركة ازدراء نحو العمال الذين كانوا يقلبون الصخور:

- هذا ما أحاول أن أدخله في رؤوس هؤلاء الهنود العنيدين. كان يمكن لنا أن نموت جميعنا سحقاً مثل الصراصير. وبدلاً من أن يعربوا عن الشكر لنجاتهم، ما زالوا يتذمرون.

فدمدم ديونيسيو وهو يضحك بفتور:

- لقد نجوا من الهوايكو، ولكنهم يعلمون أنهم سيموتون الآن من القلة، بسبب انعدام العمل والجوع. أو سيموتون لأسباب أسوأ من ذلك. دعيهم يرفسون على الأقل.

وسأل العريف وهو يبحث عن عيني دونيا أدريانا:

– هل تعتقدين أن الانهيار لم يسحقنا لأن آبووات هذه الجبال قرروا ذلك؟ وهل عليّ أن أشكرهم أنا أيضاً لنجاتي؟

كان ينتظر أن ترد عليه زوجة ديونيسيو بغضب، لأنه صار يبدو لها مهووساً لكثرة ما تحدث في الأمر نفسه. ولكن الساحرة ظلت صامتة هذه المرة، دون أن تنظر إليه. فقد كانت تقطب جبينها وتتطلع بنظرة شاردة نحو القمم الوعرة التي تحيط بالقرية.

ـ لقد تحدثت مع الحمى القرمزية عن الآبووات، هناك في لاسبيرانثا ـ واصل العريف بعد لحظة ـ. هو أيضاً يعتقد أن للجبال أرواحها، مثلك يا دونيا أدريانا. الآبووات أرواح دموية كما يبدو. وإذا كان من يقول ذلك هو عالم يعرف الكثير مثل الغرينغو، فلا بد أن يكون الأمر صحيحاً. شكراً لأنكم أبقيتم على حياتي أيها السادة آبووات خونين.

ـ لا يمكن القول أيها السادة الآبووات ـ أنبه ديوينسيو ـ. لأن كلمة «آبوو» تعني السيد بلغة الكيتشوا. وكل تكرار هو إهانة كما يقول الفالس أيها السيد العريف.

ـ ولا يمكن القول كذلك أيها السيد العريف ـ ردّ ليتوما ـ. فإما عريف أو سيد، لأن جمعهما معاً يعني السخرية. حتى ولو كنتُ معتاداً على السخرية من الناس دائماً.

ـ إنني أحاول الحفاظ على معنوياتي وحماستي. بالرغم من أنه يصعب على المرء تجنب العيش في مرارة، مثلما هو حال الجميع في ظل هذه الأحداث ـ اعترف ديونيسيو.

ثم بدأ يصفر على الفور أحد تلك الألحان التي اعتاد قرع إيقاعها بحذائه أيضاً في الليل، حين يعم السكر الحانة. استمع ليتوما إلى اللحن الكئيب بقلب مقبوض. بدا له وكأنه آتٍ من أعماق الزمان، يحمل معه نداوة رطوبة أخرى، من عالم مدفون في هذه الجبال الثقيلة. أغمض عينيه ورأى شيئاً يترنح أمامه في بياض النهار الساطع، وكان له شكل بيدريتو تينوكو الضئيل والوديع والوثاب.

همهم وهو يخلع قبعته ويمسح العرق عن جبهته:

- أشعر بالوهن وعدم القدرة على الصعود إلى الموقع الآن تحت هذه الشمس. هل يمكنني الجلوس قليلاً معكما؟

لم يرد الخمّار ولا زوجته. وجلس ليتوما على أحد طرفي المقعد الطويل الذي تجلس عليه دونيا أدريانا. وبقي ديونيسيو واقفاً يدخن وظهره مستند إلى الألواح الخشبية المغطاة بالخدوش التي تشكل باب الحانة. وكانت أصوات وصرخات العمال الذين يحركون الأحجار تصل إليهم متفرقة، قريبة أو بعيدة، حسب تبدل اتجاه الريح.

علق ليتوما:

- وأخيراً عاد جهاز لا سلكي الشركة يعمل هذا الصباح، وأخيراً استطعت أن أرسل التقرير إلى القيادة في هوانكايو. عسى أن يردوا سريعاً. لست أدري ما الذي بقي لنفعله هنا أنا ومساعدي، اللهم إلا انتظار أن يقتلونا أو يخفونا، مثلما جرى للأبكم، وأنتما، ما الذي ستفعلانه الآن؟ هل ستغادران ناكوس أيضاً؟

فقال ديونيسيو:

- لا يوجد حل آخر. فحتى هنود القرية ما عادوا يريدون العيش في ناكوس. معظم الشباب هاجروا إلى الساحل أو إلى هوانكايو. لم يبق إلا بعض المسنين الذين يموتون تباعاً فأصدر ليتوما حكمه:

- لن يبقى هنا إذن إلا الآبووات والبيستاكوات والموكيات. وسيقيمون عندئذ ولائم الدم فيما بينهم. أليس كذلك يا دونيا أدريانا؟ لا تعبسي هكذا، إنني أمزح فقط. أعرف أنك غير مستعدة للمزاح، وأنا كذلك. إنني أقول هذا لأني لا أستطيع أن أنزع من رأسي ما تعرفينه أنت. فأولئك الثلاثة يقبعون هنا في رأسي ويسممون حياتي.

أطلق ديونيسيو سحابة دخان وقال:

- ولماذا أنت مهتم إلى هذا الحد بأولئك التعساء؟ لماذا لا تهتم إلا

بهم من بين كل الناس الذي يختفون أو يموتون يومياً؟ لماذا لا تفكر بذاك الذي قتلوه من لاسبيرانثا مثلاً؟ أنت تحب الأسرار الغامضة، وقد قلت لك ذلك من قبل.

ـ اختفاء هؤلاء الثلاثة لم يعد سراً غامضاً لي. ـ أكد العريف وهو يلتفت مرة أخرى إلى دونيا أدريانا، ولكنها لم تُدر وجهها نحوه هذه المرة أيضاً، فتابع: ـ لقد انكشف لي الأمر في الليلة قبل الماضية بفضل الحمى القرمزية. وأقسم لك أنني كنت أفضل عدم معرفة ذلك. لأن ما جرى لهم هو الأكثر حماقة وخبثاً بين كل الأمور الحمقاء والخبيثة التي تحدث هنا. لم يعد بإمكان أحد أن ينزع من رأسي أنكما المذنبان الرئيسيان في القضية. وخاصة أنتِ يا دونيا أدريانا.

ولكن زوجة ديونيسيو لم تبد أي رد فعل حتى في هذه المرة. فقد واصلت تقطيبها وهي تنظر إلى الجبال، وكأنها لم تسمع ما قاله أو كأن فكرة مهمة تشغلها عن الصغائر التي يقولها ليتوما.

وقال له:

ـ دخن سيجارة ـ قال ديونيسيو وهو يقدم له علبة سجائر ـ، وفكر في أنك ستذهب عما قريب، ربما إلى مسقط رأسك، وأنك ستعيش في حياة أكثر اطمئناناً من حياتك في ناكوس.

سحب ليتوما سيجارة ووضعها في فمه. فأشعلها الخمّار بولاعة قديمة ذات فتيل طويل حمّى لهبها فم العريف وأنفه. أخذ نفساً عميقاً وأطلقه بقوة وهو يرى ارتفاع دوائر الدخان في هواء الظهيرة القائظة النظيف والذهبي.

ـ إذا خرجتُ حياً من هنا، فسأحمل هؤلاء الثلاثة معي أينما ذهبت. لاسيما الأبكم الذي اختفى حين جاء إليكما ليشتري بيرة في تلك الليلة. هل تفهمني؟

ضحك مساعده:

- لقد فهمكَ بالطبع عريفي. بيرة كوسكية، باردة جداً وترجع بسرعة الطير. أليس صحيحاً أنك فهمت تماماً أيها الأبكم؟

هز بيدريتو تينوكو رأسه عدة مرات بتلك الانحناءات السريعة والمميزة التي تجعل ليتوما يتصور أنه يرى دجاجة تنقر حبات من الذرة، وأخذ الأوراق النقدية التي أعطاه إياها العريف، ثم انحنى انحناءة أخيرة وخرج من الموقع واختفى في تلك الليلة غير المقمرة.

قال ليتوما وهو يطلق الدخان من فمه وأنفه:

- كان علينا ألا نرسله في ذلك الظلام، في مثل ذلك الوقت. وحين تأخر كثيراً، كان علينا أن ننزل لنرى ما الذي يحدث، ولماذا لم يعد. ولكننا تكاسلنا حين بدأ المطر يهطل. وانشغلنا أنا وتوماسيتو بالحديث وراح الوقت يمضي.

بالرغم من المطر كان الأبكم ينزل مسرعاً على الدرب الضيق. كأن له عيني ثعلب أو كأنه يعرف عن ظهر قلب أين يضع قدمه وأين يقفز. كان يحمل الأوراق النقدية في يده، يشد عليها جيداً كي لا تفلت منه. وصل إلى باب الحانة مبللاً. طرق بأصابعه مرتين، ثم دفع الباب ودخل. استقبلته كتلة أشباح شبه متحللة في غمامات الدخان. وشم أنفه رائحة عرق، وكحول، وتبغ، وبول، ومني، ورائحة قيء نتنة تبعث على الدوار. ولكن، ليست تلك الأرواح ولا صمت القبور الذي خيم لدى دخوله هو ما جعله يتخذ وضع الدفاع، التأهب، التوجس من خطر وشيك، بل الخوف الذي أحست به غريزته في كل ركن، خوف كثيف، متوتر بعث الرعشة في حدقات عيون العمال وبدا عابقاً في الهواء، يرشح من أخشاب الجدران، ومن منضدة الكونتوار، وخاصة من الوجوه المتشنجة، المشوهة في تكشيرات وإيماءات لا يمكن لها أن تكون نتيجة السكر وحده. لم يتحرك أحد. والتفت الجميع لمراقبته. فانحنى بيدريتو المذعور انحناءات احترام.

وانطلق من وراء منضدة الكونتوار متنحنحاً، صوت دونيا أدريانا القادم من العالم الآخر:

- ها هو ذا، إنه أمامكم. ومن أفضل منه. لقد أرسلوه، لقد بعثوه إلينا. يجب أن يكون هو المطلوب. إنه هو. الأبكم، ومن أفضل منه.

- لقد تجادلتم بالطبع - أضاف ليتوما - وكان هناك طبعاً من قالوا «اتفقنا، فليكن هو»، وقال آخرون «لا، مسكين، الأحمق لا»، وأعتقد أنه كان هناك واحد أو أكثر أقل سكراً أشفقوا عليه. وفي أثناء ذلك، وبدلاً من أن أنزل أنا وتوماسيتو لنرى سبب عدم رجوعه. استلقينا لننام. أو لنتحدث عن المرأة التي تركته بالتأكيد. لقد كنا متواطئين أيضاً. لم نكن أصحاب الفكرة ولا المحرضين مثلكما. ولكننا تواطأنا بالإهمال، أجل كنا متواطئين بطريقة ما. الجميع كانوا سكارى وبعضهم يترنحون، يستندون إلى الجدران أو يعانقون بعضهم بعضاً كيلا يسقطوا أرضاً. وكانت عيونهم الزجاجية البراقة تخترق سحب الدخان وتتفحص بيدريتو تينوكو، الذي أربكه إحساسه بأنه محط هذا الاهتمام الجماعي، وشنجه التهديد الغامض، غير المحدد الذي يشعر به، فلم يعد يتجرأ على التقدم نحو منضدة الكونتوار. إلى أن تقدم نحوه ديونيسيو، أمسكه من ذراعه، وقبله على خده، فارتبك الأبكم أول الأمر ثم أطلق قهقهة عصبية، ووضع ديونيسيو كأس البيسكو في يده وشجعه على شرب نخب معه:

- في صحتك، في صحتك. انسجم مع الحضور أيها الأبكم.

ورتلت، صلت، أنشدت دونيا أدريانا:

- إنه بريء، إنه غريب، إنه موسوم منذ الذي جرى له في بامبا غاليراس. الإرهابيون سيعدمونه عاجلاً أو آجلاً. فإذا كان سيموت في كل الأحوال، فمن الأفضل أن يموت من أجل أمر يستحق التضحية. ألا تستحقون أنتم أن يضحي من أجلكم؟ ألا تستحقون بعد

كل ذلك الإغماء نوماً هناك في العنابر، وكل هذا الموت تعباً وكسر الظهور في العمل في شق الطريق؟ اجمعوا واطرحوا وقرروا.

وبينما كان الحر المتوقد ينزل عبر صدره ويداعب معدته، بدأ بيدريتو تينوكو ينتبه إلى أن الأرض أخذت تلين وتتحرك تحت صندله الموحل وقدميه الممتلئتين بالقروح. وصارت تدور مثل خذروف. لقد تعلم هو يوماً في مكان ما كيف يدوِّر الخذروف بلف خيط عليه وقذفه بحركة ماهرة من الذراع: وكان يدور في الهواء إلى أن تختلط ألوانه، وإلى أن يبدو مثل عصفور يخفق بأجنحته وهو ثابت في الهواء، مثل كرة صغيرة تصعد نحو الشمس، ثم ما تلبث أن تسقط. وكان رأسه ذو المسمار يحط على حجر الساقية، ويقفز على حدّ الضفة، ويهدأ على مصطبة البيت أو حيثما ثبت هو قبلاً عينه وأعطت يده أمراً للحبل. ويبقى يدور هناك لوقت طويل، ويتقافز ويئز كأي خذروف سعيد. كانت دونيا أدريانا تتكلم، وكانت هناك رؤوس تومئ مؤيدة. وكان البعض يشقون طريقهم بالمناكب ويقتربون من الأبكم ويلمسونه. ولم يكن الخوف قد فارقهم، بل على العكس. ولم يكن بيدريتو تينوكو كذلك يشعر بذلك القدر من الارتباك الذي شعر به لدى وصوله. كان يشد على الأوراق النقدية في يده ويقفز قفزات متتالية يقول فيها: «يجب أن أرجع». ولكنه لم يكن يعرف كيف يذهب. فما إن يشرب رشفة من البيسكو حتى يصفق له الخمّار ويربت على ظهره، أو يقبل خده في احتدام الحماسة بين حين وآخر.

ـ إنها قبلات يهوذا تلك التي كنت تقبله إياها ـ قال ليتوما ـ. وفي أثناء ذلك كنت أنا أشخر أو أستمع إلى توماسيتو وهو يروي تعقيدات علاقته مع فتاته. لقد حالفكما الحظ يا ديونيسيو ويا دونيا أدريانا. فلست أعرف ما الذي كنت سأفعله بكما لو أنني جئت إلى الحانة وأمسكتكما متلبسين... أقسم لكما.

قال ذلك دون غضب، وبقدرية واستسلام. وكانت دونيا أدريانا لا تزال مستغرقة في أفكارها، غير آبهة به، تتأمل العمال الذين يقلبون الأنقاض. أما ديونيسيو فقد انفجر ضاحكاً بفم مفتوح. وكان قد جلس القرفصاء واللفاع الصوفي يحيط بعنقه بفظاظة. نظر إلى ليتوما باستمتاع وهو يفتح ويغمض عينيه البارزتين اللتين كانتا أقل احمراراً من المعتاد، ثم أكد واثقاً تماماً مما يقوله:

ـ كان يمكن لك أن تكون راوية قصص ممتازاً. لقد كان هناك بعض الرواة في فرقتي وأنا شاب. حين كنا نتنقل من قرية إلى قرية ومن مهرجان إلى مهرجان. راقصون، موسيقيون، بهلوانات، سحرة، مشوهون، كان لدينا كل شيء. وكان لدينا كذلك رواة قصص. وكانوا يحققون نجاحات كبيرة، كان الصغار والكبار يستمعون إليهم بأفواه مفتوحة ويتأثرهم في نهاية الحكاية مطالبين «تابع، تابع، نرجوك» «قصة أخرى، واحدة أخرى» كان يمكن لك أن تكون واحداً من نجومي بمخيلتك هذه. إنك راوٍ جيد، مثل أدريانا تقريباً تقريباً أيها السيد العريف.

ـ لم يعد قادراً على شرب المزيد ـ ترنم أحدهم ـ. لقد امتلأ. لم يعد بإمكانه استيعاب قطرة واحدة أخرى.

ـ شرّبوه بالقوة، وإذا تقيأ فليتقيأ ـ تضرع صوت خائف جداً ـ. المهم ألا يشعر بأي شيء، أن لا يعرف من يكون وأين هو.

ـ و بمناسبة الحديث عن الأبكم ـ قال ديونيسيو ـ، هناك علاج يمارسونه في قرى محافظة لامار، في أياكوتشو، فيقدمون لسان ببغاء للعاجزين عن النطق. وهكذا يشفونهم من البُكم. أظن أنك لم تكن تعرف ذلك أيها السيد العريف.

وهمس، بالكيتشوا، رجل مبحوح ومحزون لا يكاد صوته يكون مسموعاً:

- أنت ستسامحنا يا أبانا الصغير، أليس كذلك؟ ستكون قديسنا، وسيجري ذكرك في الأعياد باعتبارك مخلّص ناكوس.

- أعطه مزيداً من الخمر وكفى تخنثاً - أمر أحد القتلة -. إذا كنتم قد نويتم أمراً فيجب إكماله على أحسن وجه.

وبدلاً من الكينا أو الناي الذين كان يعزف عليهما في مرات أخرى، راح ديونيسيو يعزف على الرودين. فكان الصوت المعدني الحاد يوتر أعصاب الأبكم الذي تمسك أيد كثيرة بذراعيه وظهره لتحول دون وقوعه أرضاً. كانت ساقاه قد أصبحتا خرقاً، وكتفاه قشاً، ومعدته بحيرة فيها بط، ورأسه طاحونة ألوان فوسفورية. كانت النجوم تلمع، وظهرت أقواس قزح مفاجئة تلون الليل، ولو كانت لديه قوة لمدّ يده، لكان بإمكانه لمس أحد كواكب السماء. ولا بد أنه سيكون ليناً، دافئاً، ودوداً مثل رقبة فيكونا. وبين حين وآخر كان يشعر بتشنجات في معدته، ولكن لم يعد هناك ما يتقيؤه. وكان يعلم أنه إذا ما أجهد عينيه ومسح الدموع التي تغيّمهما فإنه سيرى قطيع الفيكونات المرحة تطفو في اتساعات السماء، فوق الجبال المكللة بالثلوج، راكضة نحو القمر.

- كانت أزمنة أخرى، أفضل من هذه الأزمنة لأسباب كثيرة - أردف ديونيسيو بمزاج كدر -. خاصة أن الناس آنذاك كانوا يرغبون في اللهو. كانوا يعرفون كيف يلهون. كانوا فقراء جداً مثلما هم الآن، وكانت هناك أيضاً نكبات في كل مكان. ولكن الناس هنا، في الأنديز، كانوا يملكون ما افتقدوه الآن: الحماسة للهو. الرغبة في العيش. أما الآن، فعلى الرغم من أنهم يتحركون ويسكرون، إلا أنهم يبدون أشبه بالأموات. ألم تلاحظ ذلك أيها السيد العريف؟

ما دام هناك نجوم، فلا بد أنه لم يعد في حانة ديونيسيو. لقد أخرجوه إلى الهواء الطلق وبالرغم من وجود جمرات صغيرة تقرقر داخل

جسمه وتدفئ دماءه، إلا أنه يشعر بصقيع الليل على سطح وجهه، في طرف أنفه، في يديه وفي قدميه اللتين ضيعتا الصندل. أيهطل البرد؟ وبدلاً من النتانة السابقة، صار أنفه يستنشق الآن عبيراً نقياً من الأوكاليبتوس والذرة المحمصة، ومياه الينبوع الرقراقة الباردة. أهم يحملونه؟ أيرفعونه على عرش؟ أهو القديس شفيع المهرجان؟ هل هناك كاهن يصلي عند قدميه، أم أنها صلاة الناسكة التي كانت تنام عند أبواب مسلخ أبانكاي؟ لا، إنه صوت السيدة أدريانا. هناك صبي قسيس أيضاً، يكاد الحشد يسحقه، وهو يقرع جرساً فضياً صغيراً ويؤرجح المبخرة لتملأ الليل بشذاها. بيدريتو تينوكو يتقن عمل ذلك، فقد مارسه في كنيسة عذراء الروساريو حين كانت يداه ماهرتين تحسنان اللعب بالخذروف: يجب إلقاء البخور بحيث يصعد تماماً إلى وجوه جميع القديسين المصفوفين فوق المذبح.

واصل ديونيسيو كلامه:

ـ كان الناس يلهون حتى في المآتم، ويشربون ويأكلون ويروون الحكايات. لقد كنا نذهب بكثرة، مع الفرقة، إلى المآتم. وكانت تستمر لأيام وليالٍ وتفرغ دمجانات الخمر. أما الآن، فالناس يودعون أقرباءهم الذين يغادرون هذا العالم دون احتفال، كأنهم كلاب. هناك انحدار أيضاً في هذا المجال، ألا تعتقد ذلك أيها السيد العريف؟

وفجأة، قطعت صرخة استغاثة ونحيب الصمت الوقور الذي يلفهم وهم يحملونه صاعدين نحو الأعلى. ما الذي يخافونه؟ ما الذي يبكيهم؟ إلى أين يذهبون؟ وبدأ قلبه يخفق بقوة كبيرة وغادره الألم الجسدي فجأة. إنهم يأخذونه للقاء صديقاته بالطبع. طبعاً. إنهن هناك بانتظاره، هناك حيث يصعدون به. واجتاحه انفعال كثيف. لو كانت لديه قوة لكان صرخ وقفز شاكراً وانحنى لهم باحترام حتى تلامس جبهته الأرض. إنه يطفح بالسعادة. سيجفلن حين يشعرن باقترابه،

سيرفعن أعناقهن الطويلة، سترتعش أنوفهن الرطبة، ستتأمله عيونهن الكبيرة بذهول، وحين يتعرفن على رائحته، سيبتهج القطيع كله مثل بهجته هو الآن قبل اللقاء. سيتلامسون ويتعانقون ويتشابكون معاً وسينسون، هن وهو، العالم كله ويلعبون احتفالاً باجتماع الشمل.

- فلننته دفعة واحدة، يا لابن العاهرة. - توسل القاتل وقد فقد ثقته السابقة وبدأ هو أيضاً يتردد ويخاف - لقد فارقه السكر في الهواء الطلق وهو يدرك الآن كل شيء. لا، كفى، اللعنة.

- لو أنك واثق من عُشر هذا الذي ترويه لكنت اعتقلتنا واقتدتنا سجينين إلى هوانكايو - قاطعته دونيا أدريانا خارجة من تأملاتها. ونظرت إلى ليتوما بإشفاق - يكفيك خلطاً أيها العريف.

- أنتما وهؤلاء الجبليون المشعوذون قدمتم الأبكم قرباناً للآبووات. - قال العريف ذلك وهو ينهض واقفاً. كان يشعر بإرهاق هائل يثقل عليه. ثم واصل الكلام وهو يضع قبعته على رأسه: إنني واثق من ذلك مثلما أنا واثق من أن اسمي ليتوما. ولكنني لا أستطيع إثباته، وحتى ولو استطعت ذلك، فلن يصدقني أحد، بدءاً من رؤسائي. فمن سيصدق بوجود قرابين بشرية في هذا العصر، ألست محقاً؟

- أنا أصدق ذلك - قالت له دونيا أدريانا وهي تجعد أنفها وتلوح له بيدها مودعة.

❖ ❖ ❖

أعرف أن بقاءنا في ناكوس بدل الذهاب إلى قرية أخرى من قرى الجبال يبدو أمراً غريباً. ولكن عندما انتهى زمن الترحال وأدركتنا الشيخوخة ونحن في هذا المكان. لم تكن ناكوس هي الأنقاض التي آلت إليها فيما بعد. لم يكن يبدو أنها آخذة بالموت دقيقة إثر دقيقة. فبالرغم من أن منجم سانتا ريتا كان على وشك الإغلاق، إلا أنها كانت نقطة عبور، فيها جالية فلاحية قوية وأحد أفضل أسواق

منطقة خونين. ففي أيام الآحاد، كان هذا الشارع يغص بالتجار القادمين من كل الأنحاء، هنود، خلاسيين، وحتى سادة أيضاً، يبيعون ويشترون اللاما، الألبكة، الأغنام، الخنازير، الأقمشة، الأصواف المغزولة أو التي تحتاج للغزل، الذرة، الأحذية، الأدوات، المصابيح. هنا كان يباع ويشترى كل ما يلزم الرجال والنساء. وكان هناك إناث أكثر من الذكور في ناكوس آنذاك. فليسل لعابكم أيها الشهوانيون. لقد كانت الحركة في هذا المكان أكثر عشر مرات مما هي عليه الآن. كان ديونيسيو ينزل إلى الساحل للتمون بدمجانات الخمر مرة في الشهر. وكانت الأرباح تكفينا لندفع أجور بغّالين كانا يقودان البغال ويحمّلان البضاعة ويفرغانها.

كلانا أحب ناكوس لأنها مكان عبور. فدائماً هناك غرباء يأتون ويروحون، يصعدون إلى البونا في سلسلة الجبال أو ينزلون إلى الأدغال أو يتوجهون إلى هوانكايو والساحل. وهنا تعارفنا، هنا وقع ديونيسيو في حبي، وهنا بدأت علاقتنا. ومنذ الأزل يجري الحديث عن شق طريق تحل محل درب الدواب. لقد تحدثوا عن ذلك سنوات وسنوات قبل أن يقرروا شقها. من المؤسف أنهم حين بدؤوا العمل وجئتم أنتم بمعاولكم ورفوشكم وثقاباتكم، كان الوقت قد فات. فقد كسب الموت الجولة على الحياة. لقد كان مكتوباً ومقدراً أن الطريق لن ينتهي أبداً، ولهذا فإنني لا أهتم بتلك الإشاعات التي تؤرقكم وتدفعكم إلى المجيء والسكر. توقف العمل في الطريق وتسريح الجميع هي أمور أراها في شرودي منذ زمن طويل. وأسمعها كذلك في القلب الذي ينبض داخل الشجر والحجر، وأقرؤها في أحشاء الصقر وأرنب الكويي. موت ناكوس محسوم ومحتوم. لقد اتفقت عليه الأرواح وسيتحقق. اللهم إلا إذا... أكرر ما قلته مرات ومرات: المصائب الكبيرة تتطلب علاجاً كبيراً. هذا هو تاريخ

الإنسان، حسبما يقول ديونيسيو. وديونيسيو يتمتع على الدوام بموهبة التنبؤ؛ وقد اكتسبتها أنها أيضاً بمرافقته. هو الذي لقنني إياها.

وبفضل هذه الجبال أيضاً، كانت لناكوس هالة.. قوة سحرية. وهذا يناسبنا أنا وديونيسيو. فكلانا ينشدّ إلى المخاطر. أليست حياة المخاطر هي الحياة الحقيقية التي تستحق أن تعاش؟ أما الأمان بالمقابل فهو الضجر، والبلاهة، وهو الموت. وليس من قبيل الصدفة أن يأتي بيستاكوات إلى هنا مثل ذاك الذي جفف خوان أباتا وسيباستيان. أجل، الأب الكبير. لقد كان انحدار ناكوس يجتذبهم. وكذلك الحياة السرية في ضرائح الهواكا. فهذه الجبال مليئة بالمدافن القديمة. ولولا وجود هذه المدافن لما سكنت أرواح كثيرة هذه الأنحاء من الأنديز. لقد تطلب منا التواصل معهم جهوداً كبيرة. وبفضلهم تعلمنا الكثير، وحتى ديونيسيو الذي كان يعرف الكثير جداً من قبل، تعلم المزيد بفضلهم. لقد مضى وقت طويل، وكان لا بد من جهود هائلة لجعلهم يظهرون. ولمعرفة إذا ما كان الكوندور الذي يظهر هو رسول أو مجرد حيوان جائع يبحث عن طريدة. أنا الآن لم أعد أخطئ في ذلك، فمنذ النظرة الأولى أميز أحدهما من الآخر، وإذا كنتم ترتابون، جربوني.. اختبروني. إن أرواح أعلى الجبال وأقواها، تلك التي يغطيها الثلج طول السنة، والتي تثقب الغيوم، هي وحدها التي تتجسد في كوندورات، أما الجبال الصغيرة فتتجسد في صقور أو بئزان، وبعض الجبال الصغيرة السقيمة تتجسد في زرازير. وهذه الأرواح ضعيفة لا يمكنها أن تسبب الكوارث الكبرى. أكثر ما تقدر عليه هو إحداث أضرار قليلة أو نكب أسرة ما. ويكفي لتهدئتها أن تُبذل لها بعض التقدمات من الخمر أو الطعام مثلما يفعل الهنود حين يجتازون الشعاب الصخرية.

لقد كانت تقع هنا أحداث كثيرة في الماضي. أعني قبل زمن

طويل من فتح منجم سانتا ريتا. وموهبة التنبؤ تتيح الرؤية إلى الوراء وإلى الأمام على السواء، أي رؤية الماضي والمستقبل، وأنا رأيت ما كانت عليه ناكوس قبل أن يكون اسمها ناكوس وقبل أن يكسب الانحدار الجولة في صراعه مع الرغبة في العيش. لقد كانت الحياة هنا مزدهرة ومتدفقة لأن الموت كان مزدهراً كذلك. كان الناس يتألمون ويستمتعون بكثرة، مثلما يجب أن تكون الحال؛ والسيء هو ما يحدث الآن في ناكوس وفي سلسلة الجبال وربما في الدنيا بأسرها، حيث الناس يعانون ويتألمون فقط وليس هناك من يتذكر ما هي المتعة. لقد كان الناس في قديم الزمان يتجرؤون على مواجهة الأضرار الكبيرة بتقديم كفّارات. وهكذا كان يتم حفظ التوازن. فالحياة والموت مثل كفتي ميزان متعادلتين، مثل كبشين متعادلي القوة يتناطحان دون أن يتقدم أحدهما أو يتقهقر.

ما الذي كانوا يفعلونه ليمنعوا الموت من التفوق على الحياة؟ ثبِّتوا معدكم، إياكم أن يفاجئكم القيء. فهذه التي سأقولها ليست حقائق للسراويل الضعيفة وإنما للتنانير القوية. لقد كانت النساء آنذاك هن اللواتي يتولين المسؤولية. هنَّ، واسمعوا ذلك جيداً. وكُنَّ يقمن بواجبهن على أحسن وجه. أما الذكر الذي كانت تختاره القرية في اجتماع عام ليترأس احتفالات العام التالي، فكان يرتجف خوفاً، لأنه يعرف أنه سيكون الرئيس والسلطة حتى موعد الاحتفالات فقط؛ وبعدئذ إلى التضحية. لم يكن يركض، لم يكن يحاول الهرب بعد انتهاء الاحتفالات التي يترأسها، بعد انتهاء الموكب والرقص والأكل والسكر. لم يكن يفعل شيئاً من ذلك. بل يبقى حتى النهاية، قانعاً وفخوراً بأنه يقدم جميلاً لشعبه. كان يموت بطلاً محبوباً وموقراً. هذا هو ما كانه بالضبط: بطل. يشرب بكثرة، يعزف التشارانغو أو الناي أو القيثارة أو التخيراس أو أي آلة أخرى يتقن العزف عليها، ويرقص

ضارباً الأرض بقدميه طوال الليل والنهار كي يطرد الحزن، وينسى نفسه كي يفقد الشعور، حتى يقدم حياته دون خوف وبإرادته. وكانت النساء وحدهن يخرجن لاصطياده في الليلة الأخيرة من الاحتفالات. يكنّ مخمورات أيضاً، ومنفلتات دون حدود أيضاً، مثل مجنونات ديونيسيو لا أكثر ولا أقل. ولكن، لم يكن يعترض سبيلهن في ذلك الحين الآباء أو الأزواج. بل كانوا يشحذون لهن السكاكين ومناجل المتشيتي، ويشجعونهن: «ابحثن عنه، اعثرن عليه، اصطدنه، اعضضنه، أدمينه، حتى ننعم بسنة سلام ومحاصيل وفيرة». وكنّ يصطدنه كما في التشاكو[1] التي كان يقيمها هنود القرية لصيد البوما والغزال، حين كان ما يزال هناك أسود بوما وغزلان في الجبال. وكان اصطياد الرئيس مماثلاً. كنّ يشكلن دائرة واسعة ويحبسنه داخلها، وكن يغنين، طوال الوقت يغنين ويرقصن، طوال الوقت يرقصن، ويحرضن بعضهن بعضاً بالزعيق حتى يشعرن أنه قريب منهن، ويعرفن عندئذ أن رئيس الاحتفالات قد أصبح في الطوق، وأنه لم يعد قادراً على الإفلات، وتأخذ الدائرة بالانغلاق، والانغلاق، إلى أن يمسكن به. وينتهي مُلْكه بالدم. وفي الأسبوع التالي، يُعقد اجتماع واسع ويتم اختيار رئيس لاحتفالات السنة التالية. هكذا كانوا يشترون السعادة والازدهار اللذين كانت تنعم بهما ناكوس. وكانوا يعرفون ذلك ولم يكن هناك من يتخاذل. فالانحدار وحده، مثل حال هذه الأزمنة، هو الذي يمكن الحصول عليه مجاناً. فأنتم غير مضطرين لدفع شيء إلى أحد مقابل الخراب الذي صرتم إليه. هذه الأشياء تُقدم مجاناً. سيتوقف شق الطريق وستبقون دون عمل، سيأتي الإرهابيون ويقترفون مجزرة، وسينهار الهوايكو ويمحونا عن الخريطة كلها. وستخرج الأرواح الشريرة عندئذ للاحتفال راقصة

[1] التشاكو: (Chako) بالكيتشوا، حفلات الصيد.

رقصة الكاتشارباري وداعاً للحياة وستكون هناك كوندورات كثيرة تحوم حتى تغطي السماء. اللهم إلا إذا...

ليس صحيحاً أن تيموتيو فاخاردو قد هجرني بسبب افتقاره إلى الشجاعة. وليس صحيحاً أن ذا الأنف الكبير وجدني، في صباح اليوم التالي لعيد القديس الشفيع، عند فوهة منجم سانتا ريتا وفي يدي ذكر رئيس الاحتفال، وأنه تخاذل وخاف أن يختاروه رئيساً لاحتفالات السنة التالية، فغادر ناكوس. هذه كلها مجرد تقولات، مثل تلك التي تدعي أن ديونيسيو قد قتله لأكون له. فعندما كانت تلك الأمور تحدث في ناكوس، كنت ما أزال أطفو بين النجوم، روحاً خالصة، غير ماديّة، أنتظر دوري للتجسد في بدن امرأة.

الموسيقى، مثلها مثل البيسكو، تساعد في فهم الحقائق المريرة. وديونيسيو أمضى حياته يُعلِّم الناس الموسيقى، ولكن ذلك لم يُفد كثيراً، فالأكثرية يغطون آذانهم كيلا يسمعوا. أنا تعلمت منه كل ما أعرفه عن الموسيقى. غناء لحن هواينتو بحساسية، الخروج من الذات، الانفلات خارجاً، الضياع في الأغنية حتى الإحساس بأنك الأغنية، وبأن الموسيقى تغنيك بدلاً من أن تغنيها، هذا هو طريق الحكمة. قرع الأرض بالقدمين وقرعها، والدوران وتزيين الشكل، تكوينه وتفكيكه دون فقدان الإيقاع، ونسيان الذات، والاستغراق حتى الشعور بأن الرقصة ترقصك، وأنها تغلغت في أعماقك، وأنها هي التي تأمر وأنت تطيع. هذا هو طريق الحكمة، أنت لم تعد أنت، وأنا لم أعد أنا وإنما جميع الآخرين. هكذا يتم الخروج من سجن الجسد والدخول إلى عالم الأرواح. بالغناء، بالرقص. وبالشرب أيضاً بالطبع. فبالسُّكر تسافر، مثلما يقول ديونيسيو، وتزور حيوانك، تنفض عنك المخاوف، تكتشف سرك، تنسجم مع نفسك. أما بقية الوقت فتكون أسيراً، مثل الجثث في الضرائح القديمة أو في

المقابر الحالية. تكون عبداً أو خادماً لأحد على الدوام. بالرقص والشرب لا يعود ثمة هندي ولا خلاسي ولا سيد، لا يعود ثمة غني ولا فقير، ولا رجل أو امرأة. تمّحي الفروق ونتحول إلى أرواح: هنود وخلاسيون وسادة في الوقت نفسه. وليس الجميع قادرين على السفر بالرقص والغناء والشرب، وإنما السامون وحدهم يستطيعون ذلك. يجب توفر الاستعداد والتخلي عن الكبرياء والخجل، النزول عن قاعدة التمثال التي يعيش الناس منتصبين فوقها. فمن لا ينوِّم أفكاره، ولا ينسى نفسه، ولا يتخلى عن الزهو والغرور ولا يتحول إلى موسيقى عندما يغني، وإلى رقص عندما يرقص، وإلى سكر عندما يسكر؛ فإنه لن يستطيع الخروج من سجنه، ولا يمكنه السفر، لا يمكنه أن يزور حيوانه أو أن يصعد حتى التحول إلى روح. إنه لا يعيش: إنه انحدار وحي - ميت. وهو لا ينفع كذلك لتغذية أرواح الجبال. فهي تريد كائنات من نوعية عالية، متحررة من عبوديتها. هناك كثيرون لا يمكنهم، مهما سكروا، أن يتحولوا إلى السكر نفسه. ولا يمكنهم كذلك أن يكونوا الغناء أو الرقص حتى ولو زعقوا بأعلى أصواتهم وأطلقوا شرراً من الأرض بضربات أقدامهم. أما خادم الشرطيين فإنه ينفع، أجل. بالرغم من أنه أبكم، وبالرغم من أنه أبله، إلا أنه يحس الموسيقى. إنه يعرف ذلك. لقد رأيته يرقص، وحيداً، أثناء صعوده ونزوله الجبل لتلبية الطلبات. إنه يغمض عينيه، يركز، ويبدأ المشي بإيقاع، يخطو على رؤوس أصابعه، يحرك يديه، يقفز. إنه يستمع إلى لحن هواينو لا يسمعه أحد سواه، يُغنى له وحده، يغنيه هو نفسه دون صوت، يغنيه من أعماق قلبه. فيضيع، يمضي، يسافر، يدنو من الأرواح. الإرهابيون لم يقتلوه في ذلك اليوم، في بامبا غاليراس، لأن أرواح الجبال كانت تحميه. أو ربما إنها كانت تدخره لأمر أكبر. إنها ستستقبله بأذرع مفتوحة، مثل أولئك الرؤساء

الذين كانت تقدمهم النساء في الزمن الغابر، أولئك الذين ينامون في ضرائح الهواكا، أما أنتم، فعلى الرغم من السراويل التي تلبسونها والخصى التي تتبجحون بها، فإنكم تشخّون في ملابسكم من الخوف. وتفضلون البقاء دون عمل، تفضلون أن يجففكم البيستاكوات ويشرحوكم، أو أن يضمكم الإرهابيون إلى ميليشياهم، أو يسحقوكم بالحجارة، تفضلون أي شيء على تحمل أي مسؤولية. فلماذا تستغربون إذا تحولت ناكوس إلى قرية دون نساء. لقد كنّ يتصدين لهجمات الأرواح الخبيثة، وكنّ يحفظن حياة القرية وازدهارها. ومنذ غادرن بدأ الانحدار، وأنتم تفتقرون إلى الشجاعة لوقفه. دعوا الحياة تفلت إذن والموت يملأ كل الأماكن الفارغة. اللهم إلا إذا...

❖ ❖ ❖

ـ مسألة الدولارات لا تهمني في شيء، فهي لها. ـ أكد توماسيتو بثقة مطلقة: ـ ولكن أن تذهب. أن أفكر في أنني لن أرى ميرثيدس أبداً، وأنها ستصبح امرأة شخص آخر أو أشخاص آخرين، ولن تكون لي.. لقد كانت ضريبة فظيعة. لقد مزقتني يا عريفي. حتى إنني فكرت في الانتحار.. أجل، كما أقول لك. ولكن، لم يكن قد بقي لدي من الحماسة ما يكفي حتى من أجل قتل نفسي.

ـ هذا أقل ما يمكن أن يحدث، الآن بدأت أفهمك بصورة أفضل يا توماسيتو ـ قال ليتوما ـ. ذلك البكاء الذي ينتابك وأنت نائم مثلاً. الآن بدأت أفهم. وكذلك كونك أحادي الموضوع في الحديث ولا تتكلم عن أي شيء آخر. لكن ما أجد صعوبة في فهمه هو أنك ما زلت تحب ميرثيدس بعد تلك الدناءة، وبعد أن تخلت عنك بالرغم من كل ما فعلتَه من أجلها. المفروض بك أن تكرهها من أعماق روحك.

ـ لا تنسَ أنني جبليّ يا عريفي ـ قال الفتى مازحاً ـ. ألا يقولون عنا

إننا لا نعرف الحب دون ضرب؟ ألا يقولون إننا نقول «كلما ضربتني أكثر أحببتني أكثر»؟ وهذا المثل ينطبق تماماً على حالتي.

- كل رقعة تغطي رقعة أخرى - شجعه ليتوما - وبدلاً من البكاء على البيورانية، كان عليك أن تجد أنثى أخرى حين كانت الأمور ساخنة وهكذا تنسى تلك الجاحدة.

- الوصفة نفسها التي قدمها عرّابي - قال توماسيتو.

- ليس من داء تسببه أنثى ويبقى مئة سنة، وليس من جسد يتحمل كل هذا الزمن. - أكد القومندان ذلك، وأصدر له أمراً: - ستذهب الآن بالذات إلى ملهى الدومينو وتضاجع النحيفة اللعوب ليرا أو ثيليستينا ذات الثديين الكبيرين. سأتصل بالمحل كي يقدموا لك حسماً. وإذا لم تستطع تينك المؤخرتين انتزاع ميرثيدس من رأسك، فليجردوني من رتبتي.

وتذكر الفتى بضحكة مغتصبة:

- حاولت الانصياع لرأيه وذهبت - تذكّر الفتى بضحكة مغتصبة -. لم تكن لي الإرادة، كنت مثل خرقة، أفعل ما يأمرني به أي شخص. ذهبت واشتريت بطاقة من الفندق المقابل للملهى الدومينو لأرى إن كنت سأبدأ بالنسيان. ولكن ما حدث كان أسوأ. فبينما العاهرة تداعبني، رحت أتذكر ميرثيدس، وأقارن الجسد الذي أمامي بجسد حبيبتي. فلم ينتصب معي يا عريفي.

- إنك تعترف لي بأشياء حميمة لا أعرف معها ماذا أقول لك - ارتبك ليتوما -. ألا تخجل من رواية أشياء شديدة الخصوصية يا توماسيتو؟

- لست أرويها لأي كان - أوضح ليتوما -. فأنا أثق بك أكثر من ثقتي حتى باسخريوطي البدين. أنت بالنسبة لي مثل ذلك الأب الذي لم أعرفه يا عريفي.

- ميرثيدس هذه كانت أنثى أكبر من طاقتك يا فتى. كنت

ستتعذب معها كثيراً. إنها ممن ينظرون عالياً، فحتى التشانشو كان صغيراً عليها. ألم تلاحظ بأي كبرياء تعاملت معي في الليلة التي عرفتني عليها؟ حتى إنها كانت تقول لي يا قطي، يا للفاجرة!

وانكسر صوت كارينيو:

ـ مقابل بقائها معي كنت مستعداً لأن أسرق أو أقتل مرة أخرى. كنت مستعداً لعمل أي شيء. وهل تريد أن أخبرك بأمر أكثر حميمية بعد؟ لن أضاجع أي امرأة أخرى إلى الأبد. لست أهتم بالنساء، إنهن غير موجودات في نظري. فإما ميرثيدس أو لا أحد.

ـ يا للعنة! ـ علق ليتوما.

قال القومندان متنحنحاً:

ـ حتى أكون صريحاً معك، أنا أيضاً كنت راغباً في مضاجعة ميرثيدس تلك، أجل، لقد اقترحتُ عليها ذلك حين رقصت معها في الدومينو. كنت أختبرها، وكنت أقصد ذلك أيضاً كما أخبرتك. هل تعرف ما الذي فعلته عندئذ يا بني؟ أمسكتني من سروالي بأقصى ما يمكن من عهر وقالت لي: «لن أذهب معك مقابل كل ذهب الدنيا، حتى ولو وجهت مسدساً إلى صدري. فأنت لست نمطي المفضل يا قطي».

كان يرتدي الآن زيه العسكري ويجلس وراء المنضدة الصغيرة في مكتبه، في الطابق الأول من مبنى الوزارة. وبين مغلفات الأوراق كان هناك علم البيرو ومروحة مطفأة. وكان كارينيو بالملابس المدنية، يقف متأهباً قبالة صورة لرئيس الجمهورية الذي بدا كأنه يبتسم له من الجدار. كان القومندان يضع نظارته السوداء الدائمة، بينما يداه تلهوان بقلم وسكين لفتح المغلفات.

ـ لا تقل هذه الأشياء يا عرابي. إنك تزيد مرارتي بذلك.

ـ إنني أقول لك هذا كي تعرف أن هذه المرأة لا تناسبك ـ شجعه القومندان ـ. ستركّب لك قروناً حتى مع الرهبان والمخنثين. إنها امرأة

فاجرة، أخطر ما يمكن أن تكونه المرأة. ومن حسن الحظ أنك تخلصت منها، حتى وإن كان ذلك رغم إرادتك. والآن، يجب ألا تضيع مزيداً من الوقت. فلنهتم بوضعك. لا أظنك نسيت أنك في ورطة عويصة بسبب ما فعلته في تنغو ماريا، أليس كذلك؟

ـ لا بد أنه أبوك يا توماسيتو ـ همس ليتوما ـ. يجب أن يكون كذلك.

بحث القومندان على طاولة مكتبه وتناول إضبارة من أعلى حافظة الأوراق، ثم هزها أما كارينيو.

ـ سيكلف حلّ قضيتك جهداً كبيراً، من أجل تنظيف سجل خدمتك، وإلا فإن هذه اللطخة ستلاحقك طوال حياتك. لكنني وجدت الطريقة، والفضل في ذلك يعود إلى حلاّل قضايا معقدة بين مساعديّ. هل تعرف ما هو وضعك الآن؟ هارب نادم، هكذا. هربتَ من الخدمة، ثم انتبهت إلى خطئك، واستعدت صوابك، ورجعت الآن تطلب العفو. وكدليل على إخلاصك، تتقدم متطوعاً من تلقاء نفسك للذهاب إلى منطقة الطوارئ. ستذهب لاصطياد المنحرفين المتمردين يا فتى. وقِّع هنا.

ـ كم أنا راغب في التعرف على عَرّابك ـ قاطعه ليتوما بإعجاب ـ. يا له من رجل يا توماسيتو.

ـ لقد قبلنا طلبك وحددنا المكان الذي ستذهب إليه ـ واصل القومندان وهو ينفخ على حبر توقيع كارينيو: ـ ستذهب إلى انداهوايلاس، وستكون تحت إمرة ضابط شديد السطوة، الملازم بانكوربو. إنه مدين لي، وسيعاملك معاملة جيدة. ستبقى في الجبال بضعة شهور... حوالي السنة.

وهذا يبعدك عن التداول إلى أن ينسوك ويصبح سجل خدمتك نظيفاً. هنا قتلناه وهنا دفناه. سأجد لك فيما بعد موقعاً أفضل. ألا تقول لي شكراً؟

ـ اسخريوطي البدين تصرف معي على أحسن ما يرام أيضاً ـ قال توماس ــ. وقد بقي يرافقني مثل ظلي إلى أن ركبت الحافلة إلى انداهوايلاس. أظنه كان خائفاً عليّ من الانتحار. وحسب رأيه، فإنه يمكن الشفاء من آلام الحب بالإكثار من الأكل، فهو يعيش ليأكل، لقد أخبرتك بذلك من قبل.

راح اسخريوطي البدين يعدد أصناف الطعام بسعادة عظيمة:

ـ تامال[1]، قلوب بقر مشوية، بطاطا مع شحم الخنزير، سمك مخلل، فلفل محشو، قواقع على طريقة بارما، كاوسا آلاليمينيا[2]، وبيرة طبيعية على المناخ القطبي. هذه هي المقبلات. وبعد ذلك دجاج محمر مع الرز الأبيض وجدي مشوي. ومن أجل الإجهاز على المساء: طبق من حلوى الذرة وحلوى دونيا بيبا باللوز والعسل. ابشر يا كارينيتو.

ـ إذا أكلنا نصف هذا الذي ذكرته سنموت أيها البدين.

ـ ستموت أنت وحدك ـ قال اسخريوطي ــ. فوجبة مثل هذه تعيدني إلى الحياة. لأن هذه هي الحياة. وقبل أن تصل إلى الجَدي المشوي تكون قد نسيت ميرثيدس إلى الأبد.

ـ لن أنساها أبداً ـ أكد الفتى ــ. والأصح القول إنني لا أريد أن أنساها. لم أكن أتصور أنه يمكن لي الوصول إلى تلك السعادة يا عريفي. وربما كان من الأفضل حدوث ما حدث، وأن تكون علاقتنا قصيرة الأمد هكذا. فلو أننا تزوجنا وبقينا معاً، لكانت بدأت بيننا تلك الأشياء التي تسمم حياة المتزوجين. أما الآن، فكل ذكرياتي عنها طيبة.

---

[1] تامال (Tamal): دقيق الذرة مع اللحم يطبخ ملفوفاً بورق الموز أو الذرة.

[2] كاوسا آلا ليمينيا (Causa a la Lime): بوريه البطاطا مع خس وجبنة بيضاء وزيتون وذرة وفلفل حار.

ـ مضتْ بدولاراتك الأربعة آلاف بعد أن قتلتَ رجلاً من أجلها وحصلتَ لها على بطاقة هوية جديدة، وما زلت تفكر في روعة بيورانيتك. إنك تتلذذ بالألم يا توماسيتو ـ قال ليتوما مستنكراً.

ـ أعرف أنك لن تتيح لي أي فرصة ـ قال له اسخريوطي البدين فجأة وهو يتعرق ويلهث وكل كتلته اللحمية الضخمة تنبض بالشراهة، وكان يحمل شوكته، مملوءة بالرز، ويؤرجحها على إيقاع كلماته: ـ ولكن دعني أقدم لك نصيحة صديق. أتعرف ما الذي كنت سأفعله لو أنني كنت مكانك؟

ـ ماذا كنت ستفعل؟

ـ كنت سأنتقم. ـ ورفع اسخريوطي الشوكة إلى فمه، ومضغ وهو يغمض عينيه ويفتحهما ثم ابتلع. وشرب جرعة بيرة، ومسح شفتيه الممتلئتين بلسانه وأضاف: ـ يجب جعل تلك الجاحدة اللعينة تدفع الثمن.

ـ وكيف ذلك؟ ـ سأله الفتى ـ صحيح أنني أشعر بالمرارة وبعسر الهضم، إلا أنك تُضحكني أيها البدين.

لهث اسخريوطي، وكان قد أخرج من جيبه منديلاً أبيض كبيراً له حاشية زرقاء، وراح يمسح العرق بكلتا يديه:

ـ بإلحاق أكبر ضرر بها. بإرسالها إلى السجن كمتواطئة مع التشانشو. هذا سهل جداً، يكفي دس شكوى ضدها في ملف القضية. وبعد التحقيق وإجراءات القاضي يتم إرسالها إلى سجن تشوريوس. ألم تكن خائفة من إرسالها إلى سجن النساء؟ إذن، فلتُمض هناك بعض الوقت بسبب جحودها.

ـ عندئذ سأذهب لإنقاذها في الليل، سآخذ معي سلالم وحبالاً. هذا يروقني أيها البدين.

وقال اسخريوطي على الفور، وكأنه يعرض فكرة محكمة:

ـ في تشوريوس يمكنني أن أتدبر الأمر ليضعوها في جناح

السحاقيات. هناك سيجعلونها ترى النجوم والقمر يا كارينيتو. إنهن مصابات بالسلفس، وسينقلن إليها العدوى.

ــ لم يعد هذا يروقني أيها البدين. أتريد أن تصاب حبيبتي بالسفلس؟ لو جرى ذلك فسأذهب لأمزق بيدي كل أولئك السحاقيات.

ـ هناك طريقة أخرى. نبحث عنها، نجدها، نأخذها إلى مفوضية الشرطة في تاكورا حيث أعرف زميلاً هناك. ولتُمضي ليلة في الحجز مع ضاربي السكاكين والنشالين والمحتالين والمنحطين. وفي صباح اليوم التالي لن تتذكر حتى اسمها.

فضحك الفتى:

ـ عندئذ سأذهب إليها في زنزانتها لأركع على ركبتي وأعبدها. إنها قديستي سانتا روسا دي ليما.

ـ لهذا تخلت عنك. ـ كان اسخريوطي قد بدأ هجوم على الحلوى، وكان يتكلم وفمه ممتلئ: ــ كثرة التقدير لا تروق للنساء يا كارينيتو. إنهن يضجرن من ذلك. لو أنك عاملتها مثل التشانشو، لوجدتها الآن وديعة إلى جوارك.

ـ إنها تعجبني هكذا. متكبرة، جريئة وهاربة ـ قال الفتى ــ. إنها تعجبني بطبعها الخرائي هذا. يعجبني كل ما فيها وكل ما تفعله. حتى ولو لم تصدقني يا عريفي.

ـ ولماذا لا أصدق أن لك جنونك الخاص أنت أيضاً؟ ـ قال ليتوما ــ. أليس للجميع جنونهم هنا؟ أليس الإرهابيون مجانين؟ وديونيسيو والساحرة أليسا مجنونين؟ أو لم يكن مجنوناً ذلك الملازم باكورفو الذي أحرق الأبكم لإجباره على الكلام؟ وهل تريد من هو أكثر جنوناً من هؤلاء الجبليين الخائفين من الموكيات والذبّاحين؟ ألا تنقصهم عدة براغ في رؤوسهم أولئك الذي يخفون الناس من أجل

تهدئة آبووات الجبال؟ أنت على الأقل مصاب بجنون الحب الذي لا يضر أحداً سواك.

- وأنت الوحيد الذي يحتفظ برأسه سليماً في هذا المصح العقلي يا عريفي - قال مساعده.

- ربما كان هذا هو سبب شعوري بالغربة في ناكوس يا توماسيتو.

- حسن، إنني أستسلم، لن ننتقم من ميرثيدس، ولنتركها تزرع العالم بعشاق مقتولين وبمحبين مضيعين - قال اسخريوطي البدين -. ولكنني حسّنت مزاجك على الأقل. سأشتاق إليك يا كارينيتو، فقد اعتدت على عملنا معاً. أتمنى لك التوفيق في منطقة الطوارئ. ولا تدع الإرهابيين يقضون عليك. انتبه لنفسك واكتب إلي.

- ربما يكون هذا هو سبب ترقبي اللحظة التي ينقلونني فيها من هنا - أضاف ليتوما -. فلننم الآن، إن الفجر يطلع. أتعرف يا توماسيتو؟ لقد رويت لي كل قصة حياتك. وأنا أعرف ما تبقى منها. فقد ذهبت إلى انداهوايلاس، وعملت مع بانكورفو، ثم نقلوك إلى هنا، وأحضرت معك بيدريتو تينوكو وتعارفنا. والآن، عن أي شيء سنتحدث في الليالي التي سنقضيها هنا؟

- عن ميرثيدس، وهل هناك سواها - ردّ مساعده جازماً -. سأروي لك قصة حبي من جديد، من البداية.

- يا للعنة. - تثاءب ليتوما وهو ينقلب في سريره: - من البداية مرة أخرى؟

الخاتمة

X

ظهر الشبح فجأة بين أشجار الأوكاليبتوس على السفح المقابل، وكان ليتوما في أثناء ذلك يجمع الملابس التي نشرها لتجف على حبل معلق ما بين باب الكوخ ومتراس الأكياس والأحجار الذي يحمي الموقع. رآها من الجانب، ورآها من الأمام، وكانت وراءها الكرة الحمراء التي بدأت تغيب خلف الجبال: فكانت الشمس المحتضرة تحللها وتبتلعها، ولكن، بالرغم من أشعة الشمس التي أدمعت عينيه، وبالرغم من بعد المسافة، فقد عرف أنها امرأة.

«انتهى الأمر، ها قد جاؤوا» هكذا فكر ليتوما. تجمد في مكانه، وأحس بأصابعه تشد على السروال الداخلي المعلق الذي لم يجف تماماً بعد. ولكن لا، لا يمكن أن يكون الإرهابيون قد جاؤوا، فهذه امرأة وحيدة، ولا تحمل أي سلاح، كما إنها تبدو مضطربة لا تعرف أي اتجاه تسلك. كانت تنظر باحثة ذات اليمين وذات اليسار، وتمضي من جهة إلى أخرى متشككة ما بين أشجار الأوكاليبتوس، تقرر السير في اتجاه ثم ما تلبث أن تبدله. إلى أن رأت ليتوما، وبدا كما لو أنها كانت تبحث عنه. فقد اطمأنت، وبالرغم من أنها كانت بعيدة لا يمكن تمييز ملامحها، إلا أن العريف أيقن من أن وجهها قد أشرق حين رأته أمام باب الكوخ، بين الملابس المنشورة، بطماقه وبنطاله القطني الأخضر وسترته المفتوحة وقبعته ومسدسه السميث ويزون المعلق في قرابه. وها هي ذي قد بدأت تحييه ملوحة عالياً بكلتا

يديها، وكأنهما صديقان حميمان ومتفقان على موعد للقاء. من تكون؟ من أين هي قادمة؟ إلى أين ستذهب؟ وما الذي تفعله امرأة غير هندية في أعلى هذا الجبل، وسط البونا؟ فقد لاحظ ليتوما كذلك على الفور أنها ليست هندية، فهي بلا ضفائر، وبلا تنورة فضفاضة، وبلا عباءة، وإنما ترتدي بنطالاً وكنزة، وفوقها شيء يمكن له أن يكون سترة جلدية أو جاكيت. وما تحمله في يدها اليمنى لم يكن صرّة وإنما حقيبة. وكانت تواصل التلويح له بغضب، وكأن عدم استجابته كانت تضايقها. عندئذ رفع العريف يده وحياها.

خلال نصف ساعة أو ثلاث أرباع الساعة التي احتاجتها المرأة لنزول سفح أشجار الأوكاليبتوس وصعود سفح الموقع، بقي ليتوما متيقظاً بحواسه الخمس في عملية توجيهها. فكان يشير إليها بحركات متحمسة من ذراعه إلى السبل التي عليها السير فيها، والأماكن التي جعلتها كثرة المشي أكثر ثباتاً وأقل انزلاقاً، وأين يقل خطر الوقوع أو الانزلاق، خائفاً أن تتعرض القادمة الجديدة إلى أحد تلك الانزلاقات أو العثرات أو السقطات حيث كانت كل خطوة تخطوها اختباراً للقدرة على حفظ التوازن. من المؤكد أنها لم تجرب السير من قبل في الجبال. إنها غريبة عن ناكوس مثلما كان هو نفسه قبل بضعة شهور، حين كان يتأرجح، ويتمايل، ويسقط، وينهض في ذهابه وإيابه ما بين المخفر والمعسكر.

وعندما بدأت تصعد رابية الموقع صار بإمكانها أن تسمعه، فراح العريف يوجه إليها التعليمات بصوت عال «من هناك، ما بين تلك الصخور السمينة»، «تمسكي جيداً، فالأعشاب عندك متينة»، «لا تقتربي من تلك الناحية، فهي وحل ذائب». وعندما أصبحت على بعد خمسين متراً من الموقع، خرج العريف للقائها. ساعدها ممسكاً بذراعها، وأخذ منها حقيبتها الجلدية.

قالت وهي تنزلق، تتمايل، وتتفلت من يدي ليتوما:
- حين كنتُ هناك فوق، ظننتك الشرطي توماس كارينيو. ولهذا حييتك بثقة كبيرة.
- لا، لست توماس. - قال ذلك وهو يشعر بغباء ما يقوله، ويمتلئ في الوقت نفسه بالسعادة: - لا يمكنك معرفة مدى سعادتي وأنا أسمع اللهجة البيورانية من جديد!
- وكيف عرفت أني من بيورا؟ - قالت مستغربة.
فقال ليتوما وهو يمد إليها يده مصافحاً:
- لأنني من هناك أيضاً. من وسط بيورا، أجل. أنا العريف ليتوما في خدمتك. إنني قائد الموقع هنا. أليس غريباً أن يلتقي اثنان من بيورا في هذه الجبال، بعيداً جداً عن موطننا؟
- توماس كارينيو موجود معك هنا، أليس كذلك؟
- لقد نزل إلى القرية قليلاً، لن يتأخر في العودة.
تنفست المرأة الصعداء وتهلل وجهها. كانا قد وصلا أمام الكوخ، فتهاوت على أحد الأكياس المملوءة تراباً والتي كان العريف ومساعده قد وضعاها بمساعدة بيدريتو تينوكو ما بين الصخور.
- لحسن الحظ. - قالت منفعلة، وكان صدرها يعلو ويهبط كأن قلبها سيخرج من فمها: - لأن مشواري كان سيذهب سدى ... لقد أنزلتني حافلة هوانكايو بعيداً جداً. قالوا لي يمكنني الوصول إلى ناكوس في ساعة واحدة. ولكنني أمضيت أكثر من ثلاث ساعات. أتلك هي القرية، هناك في الأسفل؟ هل سيمر الطريق من هناك؟
- كان سيمر من هناك - قال ليتوما - لقد أوقفوا العمل ولن يكون ثمة طريق. لقد سقط هوايكو قبل أيام وأحدث أضراراً كبيرة.
لكن الموضوع لم يهمها. فقد كانت ترصد درب الصعود بلهفة.
- هل سنراه قادماً من هنا؟

ليس صوتها فقط، بل هيئتها وحركاتها أيضاً كانت مألوفة له. وفكر ليتوما: «البيورانيات أفضل حتى في الرائحة». وقال لها مستبقاً:

- سنراه إذا لم يخيم الظلام قبل مجيئه. فالشمس تغيب باكراً في هذه الفترة، ها هي ذي، لم يبق سوى ذيلها. لابد أنك متعبة من الرحلة. هل تريدين زجاجة مياه غازية؟

- أي شيء، إنني أموت عطشاً. - وكانت عيناها تراقبان توتياء العنابر والصخور والسفح المشعث بلطخات من العشب: - المنظر جميل من هنا.

فأحبط العريف حماسها:

- من بعيد أفضل من الاقتراب منه. سأحضر لك المياه الغازية.

ذهب إلى الكوخ، وبينما هو يُخرج الزجاجة من السطل الذي يضعون فيه المشروبات المرطبة، استطاع أن يتفحص القادمة الجديدة براحة. لقد كانت متعة للنظر على الرغم من تلوثها بالوحل وتشعث شعرها. منذ متى لم ير أنثى مثل هذه؟ إن لون خديها وعنقها ويديها يستدعي إلى ذهنه تياراً من الصور من مرحلة شبابه، هناك في موطنه. ويا للعينين، يا أماه! نصف خضراوين، نصف رماديتين، نصف لا أعرف أي شيء. وهذا الفم بشفتيه المرسومتين جيداً. لماذا يراوده هذا الشعور بأنه كان يعرفها أو أنه رآها من قبل على الأقل؟ كيف ستكون وهي مرتبة جيداً، بفستان وحذاء ذي كعب، وقرطين، وشفتين مطليتين بالأحمر الناري، يا للأشياء التي يضيعها المرء وهو محبوس في ناكوس. ألا يمكن أن يكون قد التقى بها يوماً ما حين كان يعيش في الحضارة والدفء. وتسارعت نبضات قلبه. أهي ميتشي؟ أهذه هي؟

خرج حاملاً لها زجاجة المياه الغازية، وقال معتذراً:

ـ آسف، لا يوجد لدينا كؤوس. يجب أن تشربيها من الزجاجة مباشرة.

ـ هل هو بخير؟ ـ سألته المرأة، وكانت تتكلم بين رشفة وأخرى، وكان هناك خيط من الماء يسيل في زورها: ـ ألم يمرض؟

ـ توماسيتو مثل صخرة، كيف سيمرض ـ طمأنها ليتوما ـ. لم يكن يعرف أنك ستأتين، أليس كذلك؟

ـ لم أخبره، أردت أن أفاجئه ـ قالت المرأة وهي تضحك بخبث ـ. ثم إن الرسائل لا تصل إلى هنا كما أعتقد.

ـ أنت ميرثيدس إذن.

ـ هل كلَّمَك عني؟ ـ سألته وهي تنظر إليه بشيء من اللهفة.

فأومأ ليتوما برأسه بضيق:

ـ حسن، قليلاً. أو مثل ببغاء بتعبير أصح. كل ليلة يحدثني عنك. ففي هذا القفر، حيث لا نعمل شيئاً، لا يبقى لنا إلا تبادل الأسرار.

ـ وهل هو غاضب جداً مني؟

ـ لا أظن ذلك ـ قال ليتوما ـ. وبيني وبينك، فقد لاحظت في بعض الليالي أنه يتكلم معكِ في أحلامه.

وخجل في الحال لأنه قال ذلك وبحث بسرعة في جيوب سترته عن علبة السجائر. أشعل سيجارة بتوتر، وراح يمج أنفاساً منها ويطلق الدخان من فمه وأنفه. أجل، إنها تلك التي أجّرها خوسيفينو إلى لاتشونغا لليلة واحدة، والتي اختفت بعد ذلك. إنها ميتشيتا. وعندما تجرأ على النظر إليها، كانت جدية جداً وهي تراقب السفح. كان ثمة قلق في عينيها. وفكر ليتوما: «معكَ حق بالبكاء كثيراً من أجلها يا توماسيتو». يا لصدف الحياة، اللعنة.

ـ أنتما الاثنان وحدكما هنا؟ ـ سألته ميرثيدس وهي تشير إلى الموقع.

أومأ ليتوما بالإيجاب وهو يطلق الدخان:

- سنذهب من هنا عما قريب بفضل الله وفضل هذا الهوايكو الذي سقط علينا. لولا ذلك لبقينا زمناً طويلاً. - أخذ نفساً عميقاً آخر من سيجارته: - المخفر سيغلق. والمعسكر كذلك. لقد بدؤوا بتفكيك الأشياء القليلة التي ظلت سليمة. ستختفي ناكوس من الوجود. ألم تنشر الصحف في ليما أخبار الهوايكو؟ لقد حطم الآلات، ودفن محدلة، وخرب عمل ستة شهور في الطريق. ولكنه لم يقتل أحداً لحسن الحظ. سيخبرك توماس بكل شيء، فقد رأى الحجارة تتساقط من هنا. هذه هي أيامنا الأخيرة في ناكوس. لقد فاجأني الهوايكو هناك في الأعلى وكاد يحملني معه.

- إذا كان يحلم بي، فهذا يعني أنه لم يكرهني بعد الذي فعلته به.

- الصحيح أن توماسيتو يحبك كثيراً. أنا لم أر أحداً يحب مثلما يحبك هو، أقسم لك.

- هل قال لك ذلك هو نفسه؟

- لقد أفهمني إياه بطريقة ما - أجابها العريف بحذر. ونظر إليها بطرف عينه. إنها ما زالت جدية، تراقب السفح من جانب إلى آخر بعينيها الخضراوين الرماديتين. وفكر: «يا للأشياء التي رآها توماسيتو في هاتين العينين وهو ينظر إليهما عن قرب».

- وأنا أيضاً أحبه كثيراً - همست ميرثيدس دون أن تنظر إلى ليتوما -. ولكنه لم يعرف ذلك بعد. لقد جئت لأخبره.

- ستقدمين له أكبر سعادة في حياته. ما يشعر به توماس نحوك أكثر من الحب، إنه شيء أقرب إلى المرض، أقسم لك.

- إنه الرجل الوحيد المستقيم الذي التقيت به - دمدمت ميرثيدس -. أنت متأكد من أنه سيعود، أليس كذلك؟

بقيا صامتين يراقبان معاً قاع الوهدة. بحثا عن توماس. لقد بدأ الظلام يخيم هناك تحت، ولن يستطيعا رؤيته إلا بعد أن يتسلق نصف

السفح. كان الجو قد بدأ يبرد أيضاً. ورأى ليتوما ميرثيدس تحكم إغلاق سترتها، وترفع الياقة وتتكور على نفسها بعض الشيء. مَن مثل مساعده، مجرد حارس أهلي عادي ولديه امرأة تتجشم عناء المجيء إلى نهاية العالم هذه لتقول له إنها تحبه. هذا يعني أنكِ نادمة لأنك هجرته. أتكون الأربعة آلاف دولار معها؟ سيغمى عليك من الفرح يا توماسيتو.

- إنها شجاعة كبيرة منك أن تأتي ماشية وحدك من الطريق في هذه البونا - قال لها العريف -. فالدرب غير واضح المعالم، وكان يمكن لك أن تضلي الطريق.

- لقد ضللت الطريق فعلاً - ضحكت -. وقد ساعدني بعض الهنود. إنهم لا يتحدثون الإسبانية وقد تفاهمتُ معهم مثل الطرشان. ناكوس! ناكوس! وكانوا ينظرون إلي كأنني من كوكب آخر، إلى أن فهموا أخيراً ما أريده.

ألقى ليتوما عقب السيجارة نحو المنحدر وقال:

- وكان يمكن لك أن تتعرضي للقاء كريه. ألم يخبروك أنه يوجد إرهابيون في هذه المنطقة؟

- لقد حالفني الحظ. - قالت معترفة، ثم أردفت على الفور: - أستغرب أنك تعرفت على لهجتي البيورانية. كنت أظن أنني قد فقدتها. لقد غادرت بيورا منذ زمن طويل، حين كنت ما أزال فتية.

- اللكنة البيورانية لا تختفي أبداً - قال ليتوما -. إنها أجمل لهجة أعرفها. وخصوصاً لدى النساء.

- هل يمكنني أن أغتسل وأسرح شعري قليلاً؟ لا أريد أن يراني كارينيتو وأنا بهذه الهيئة.

وكان ليتوما على وشك أن يرد عليها: «ولكنك جميلة جداً هكذا»، إلا أنه كبح نفسه مرتعباً، وقال لها وهو ينهض واقفا:

ـ أجل، يا لي من أحمق، فأنا لم أفكر في ذلك. لدينا مغسلة وماء وصابون ومرآة صغيرة. لا تأملي بوجود حمّام، فكل شيء بدائي هنا.

قادها إلى داخل الكوخ وأحس بضيق ذات اليد عندما رأى خيبة الأمل والأسى والاستياء الذي تفحصت به ميرثيدس السريرين والبطانيات المشعثة فوقهما، والحقائب التي تستخدم كمقاعد، وركن الاغتسال: مغسلة مثبتة فوق برميل مملوء بالماء ومرآة تتدلى من خزانة الأسلحة. ملأ لها المغسلة بالماء وقدم لها قطعة صابون جديدة ومضى ليجلب منشفة جافة عن حبل الغسيل في الخارج. وعندما خرج كي تأخذ هي راحتها، أغلق الباب وراءه. عاد إلى المكان نفسه الذي كان يتحدث فيه مع ميرثيدس. وبعد بضع دقائق برز شبح مساعده بين الظلال البعيدة على السفح، وكان يصعد الجبل بخطوات واسعة. يا للمفاجأة التي تنتظرك أيها الفتى. سيكون هذا اليوم أسعد أيام حياتك. وعندما أصبح على بعد خطوات لاحظ أن الفتى يعرض عليه ورقة في يده، ففكر «برقية من هوانكايو» ونهض واقفاً. إنها تعليمات القيادة، ومن تعبير وجه توماسيتو عرف أن هناك أخباراً طيبة.

ـ أراهن أنك لا تعرف إلى أين سيرسلونك يا عريفي، أو بالأحرى يا رقيبي.

ـ ماذا؟ هل رفعوني؟

قدم إليه الفتى الورقة التي تحمل في أعلاها ترويسة شركة المقاولات:

ـ ما لم يكونوا يمزحون، فإنك منقول إلى سنتا ماريا دي نيفيس، ستكون رئيساً للموقع هناك. مبروك يا رقيبي!

لم يعد هناك ما يكفي من الضوء لقراءة البرقية، ولهذا اكتفت عينا ليتوما بإلقاء نظرة سريعة على تلك الخربشات السوداء على الورقة البيضاء.

ـ سانتا ماريا دي نيفيس؟ وأين هذا؟

فضحك الفتى:

ـ في الأدغال، قريباً من أعالي مارانيون. ولكن المضحك هو المكان الذي سيرسلونني إليه. احزر، احزر، ستموت حسداً.

كان يبدو سعيداً جداً، فأحس ليتوما بالحسد وقدّر المكان بناء على ذلك.

ـ لا تقل لي إنك ذاهب إلى بيورا، لا تقل إنك منقول إلى موطني.

ـ إلى هناك بالضبط، إلى مفوضية حي كاستيبيا. لقد وفى عرابي بوعده، وأخرجني من هنا قبل الموعد الذي حدده.

ـ هذا يومك يا توماسيتو ـ ربت ليتوما على ظهره ـ. لقد كسبت اليانصيب اليوم، وتبدل حظك كله. سأوصي بك أصدقائي، شلة «المنيعين». ولكن، إياك أن تسمح لهم بأن يفسدوك.

ـ وما هذه الضجة؟ ـ قال الحارس متفاجئاً وهو يشير إلى الموقع: ـ هل هناك أحد في الداخل؟

ـ لدينا زيارة، حتى لو بدا لك ذلك كذباً ـ قال ليتوما ـ. شخص تعرفه على ما أعتقد. هيا ادخل يا توماسيتو. لا تقلق بشأني. سأنزل إلى المعسكر وسأتناول بضع كؤوس وداع مع ديونيسيو والساحرة. وهل أخبرك شيئاً؟ سأسكر سكرة عظيمة. ولهذا لا أظن أنني سأرجع هذه الليلة. سأنام حيث يداهمني النعاس، في الحانة أو في العنبر. فبعد كمية الخمر التي ستنزل إلى جسمي سأجد أي مكان مثل فراش أزهار. إلى اللقاء غداً. هيا، اذهب لتسلم على ضيفك يا توماسيتو.

❖ ❖ ❖

ـ يا للمفاجأة أيها السيد العريف. ـ قال ديونيسيو حين رآه داخلاً: ـ ألم تغادر ناكوس بعد؟

فرد ليتوما ساخراً:

- لقد بقيت لأودعك وأودع دونيا أدريانا. هل لديك شيء للأكل؟

- بسكويت ومرتديلا - أجابه الخمّار -. أما الشراب فهو بالجملة. إنني أصفي الموجودات.

ورد ليتوما:

- هذا أفضل. سأقضي الليل كله معكما وسأشرب حتى الثمالة.

- هاي، هاي. - ابتسم له ديونيسيو من وراء منضدة الكونتوار باستغراب ورضى، وكان يخترقه بعينيه المائيتين: - في الليلة الماضية رأيتك سكران، ولكن ذلك كان بسبب الرعب من الهوايكو. أما الآن فأنت آتٍ لتسكر بكل سوء نية. دائماً هناك متسع من أجل البدء.

ملأ له كأس بيسكو ووضعه أمامه على المنضدة، ووضع إلى جانبه صحناً من الصفيح مملوءاً بقطع بسكويت مثقبة وشرائح دائرية من المرتديلا.

كانت السيدة أدريانا قد اقتربت واستندت بمرفقيها إلى الألواح الخشبية، وراحت تنظر إلى العريف من بين كفيها بوقاحتها وفتورها المعهودين. لم يكن هناك في المحل شبه المقفر إلا ثلاثة زبائن يشربون البيرة من الزجاجة نفسها، ويتبادلون الحديث وقوفاً إلى جانب الجدار في أقصى المحل. دمدم ليتوما «صحة» ورفع الكأس إلى شفتيه وشربه دفعة واحدة. فجعله اللسان الناري الذي لعق أحشاءه يرتعش.

- بيسكو فاخر، أليس كذلك؟ - قال ديونيسيو متبجحاً وهو يسرع لملء الكأس مرة أخرى: - شمّ. استمتع بالرائحة. إنه عنب خالص أيها السيد العريف!

شم ليتوما الكأس، وبالفعل، فقد ميز في الشذى المتقد ما يشبه ثمالة عناقيد طازجة، من أعناب مقطوفة لتوها ومنقولة للعصر، وجاهزة لتدوسها أقدام كرامي ايكيني الخبيرين.

ـ سـأتذكـر هـذا الجحـر البـائس إلى الأبـد ـ دمـدم ليتومـا محـدثاً نفسه ـ وحتى فـي الأدغـال سـأعيش وأنـا أتخيـل مـا كـان يحـدث هنـا بعد أن يتقدم الليل ويعم السكـر.

ـ هل ستعود إلى مسألة المختفـين؟ ـ قاطعته دونيا أدريانا بإماءة ضجر ـ لا تكن سمجاً أيها العريف. لقد غادر معظم العمال ناكوس. وهنـاك مـا يـشغل رؤوس النـاس القليلين الـذين هنـا بعـد الهوايكـو وإغـلاق شـركـة المقـاولات. لم يعـد أحـد يتـذكـر المختفـين. يجـب أن تتساهم أنت أيضاً، وتبتهج قليلاً ولو لمرة واحدة.

ـ من المحزن شرب الخمر وحيداً يا دونيا أدريانا ـ قـال العريف ـ. ألا تشاركاني الشراب؟

ـ بكل سرور ـ ردّ ديونيسيو.

سكب كأساً أخرى ورفع نخباً مع العريف.

ـ دائماً كنت أراك هنا ووجهك مثل الليل ـ أكدت دونيا أدريانا ـ وكنت تغادر مسرعاً بعد مجيئك بقليل، مثل روح يحملها الشيطان.

ـ وكأنك تخاف منا ـ أضاف ديونيسيو وهو يفرك كفيه.

ـ كنت أخافكما، وما زلت ـ اعترف ليتوما ـ. لأنكما غامضان ولا أفهمكما. أنا أحب الناس ذوي الشفافية. وبالمناسبة يا دونيا أدريانا، أنت لم تقصي على مطلقاً قصص البيستاكوات التي ترويها للجميع.

ـ لو أنك كنت تُكثر من المجيء إلى الحانة لكنت سمعتها. أنت لا تعـرف مقـدار الأشـياء الـتي ضـيعتها بـسبب سـلوكك الرسمـي ـ وأتبعت المرأة قولها بقهقهة مجلجلة.

ـ لست أغضب لأني أعرف أنك تقول هذه الأشياء هنا دون رغبة في الإساءة ـ قال ديونيسيو ذلك وهو يهز كتفيه، وأضاف: ـ بعض الموسيقى ستبعث المرح في هذه المقبرة.

فأكد ليتوما:

ـ مقبرة هي الكلمة: ناكوس! يا للقحبة، كلما سمعت هذا الاسم يقف شعر بدني. وعفواً للكلمة البذيئة يا سيدتي.

فقالت دونيا أدريانا:

ـ يمكنك قول كل الكلمات التي تشاء قولها إذا كان ذلك ينعشك. فأنا أتحمل أي شيء لمجرد رؤية الناس سعداء.

أطلقت ضحكة أخرى مستهترة، ولكن موسيقى إذاعة خونين التي انطلقت في تلك اللحظة طغت عليها. ظل ليتوما ينظر إلى دونيا أدريانا: فعلى الرغم من شعرها الذي مثل ساحرة ومن تشعث مظهرها، فإن فيها لمحة من جمال غابر، ربما كان صحيحاً أنها كانت جميلة في شبابها. ولكنها لا يمكن أن تكون بمثل جمال تلك البيورانية التي يزور مساعده السماء معها في هذه اللحظات، أهي ميتشي أم لا؟ العينان اللعوبتان، ببريقهما الأخضر الرمادي، لا بد أن تكونا عينيها. مع مثل تلك المرأة يصبح بالإمكان فهم جنون توماسيتو.

ـ وأين الحارس توماسيتو؟ ـ سألته السيدة أدريانا.

ـ إنه يستحم في مياه لذيذة ـ ردّ عليها ـ. لقد جاءت أنثاه من ليما لزيارته، فتركتُ لهما الموقع ليستمتعا بشهر عسلهما.

فعلقت دونيا أدريانا:

ـ جاءت من ناكوس وحدها؟ لا بد أن تكون امرأة قوية الإرادة.

ـ وأنت تموت حسداً أيها السيد العريف ـ قال ديونيسيو.

ـ طبعاً ـ اعترف ليتوما ـ. ولأنها فوق ذلك ملكة جمال.

ملأ الخمار الكؤوس وقدم واحداً لزوجته أيضاً. وفي أثناء ذلك بدأ أحد الرجال الثلاثة الذين يشربون البيرة بالغناء بصوت عال، مرافقاً لحن الهواينتو الذي يبثه المذياع: «آه أيتها المطوقة، أيتها الحمامة المطوقة...».

ـ وهي من بيورا. ـ وأحس ليتوما بدفء لذيذ في داخله، كأن كل شيء صار الآن أقل خطورة وأهمية مما كان عليه: ـ إنها جديرة بتمثيل المرأة البيورانية. أي حظ حالفك بالنقل إلى حي كاستييا يا توماسيتو! بصحتكم أيها السادة!

شرب جرعة ورأى ديونيسيو ودونيا أدريانا يبللان شفاههما فقط. وكان يبدو عليهما الاطمئنان والمكر لرؤية العريف يسكر، وهو شيء لم يكن قد فعله في الحقيقة طوال الشهور التي أمضاها في ناكوس. لأن السكرة في ليلة الهوايكو لا تُحسب على حدّ قول الخمّار.

ـ كم شخصاً بقي في المعسكر؟

ـ المسؤولون عن الآلات فقط ـ أجاب ديونيسيو ـ. وهناك شخص كسول أو أكثر لم يغادروا.

ـ وأنتما؟

ـ ما الذي سنفعله هنا إذا كان الجميع يغادرون ـ أوضح الخمار ـ ومع أنني هرمت، إلا أنني شخص رحالة منذ ولادتي، ويمكنني أن أعمل في أي مكان آخر.

ـ بما أن السكر شائع في كل مكان، فيمكنك أن تقيم كوخاً أينما ذهبت.

ـ وإذا كان الناس لا يعرفون الشرب، نعلمهم ـ قالت دونيا أدريانا.

ـ وربما أحصل على دب وأدربه وأعود لعرض فقرتي في المهرجانات. ـ قال ديونيسيو ذلك وبدأ يقفز بتثاقل ويزمجر: ـ لقد كنتُ أملك دباً في شبابي، وكان قادراً على رمي أوراق اللعب والكنس ورفع فساتين النساء.

ـ عسى ألا تلتقيا بالإرهابيين في ترحالكما فقط.

ـ نتمنى لك الشيء نفسه أيها العريف.

- هل نرقص معاً أيتها العجوز.

كان أحد الرجال الثلاثة قد اقترب وهو يتمايل ببطء، وشدّ يد دونيا أدريانا من فوق منضدة الكونتوار. فخرجت للرقص معه دون أن تنطق بكلمة واحدة. واقترب الرجلان الآخران أيضاً وراحا يرافقان لحن الهوانيو بالتصفيق.

بحث ليتوما عن ديونيسيو بعينيه:

- أي أنكما ستذهبان بسركما. بعد قليل، عندما نسكر تماماً، هل ستخبرني بما جرى لأولئك الثلاثة.

وقال ديونيسيو الذي ما زال يقلد حركات دب ثقيل متقافز:

- ستكون مجرد نزوة. فمع السكر ستنسى كل شيء. تعلّم من هؤلاء الأصدقاء وامرح. في صحتك أيها السيد العريف!

رفع كأسه ليشجعه، وشرب ليتوما معه. من الصعب الإحساس بالسعادة وسط ما يحدث. ولكن، حتى سكر الجبليين كان يبدو له على الدوام كئيباً ومكفهراً، وقد شعر العريف بالحسد تجاه الخمّار وزوجته والعمال الثلاثة الذين يشربون البيرة: فما إن يسكروا قليلاً حتى ينسوا كل المصائب. نظر إلى الرجل والمرأة اللذين يرقصان. كانا لا يكادان يتحركان من مكانهما تقريباً، وكان الرجل مخموراً جداً إلى حد أنه لم يكن يهتم بمجاراة إيقاع الموسيقى. حمل ليتوما كأسه واقترب من العاملين الآخرين، وقال لهما ليبدأ الحديث:

- هل بقيتم من اجل إطفاء الأنوار في المعسكر. هل أنتم حراس الآلات؟

فقال أكبرهما سناً، وهو رجل ضئيل الحجم، له وجه كبير غير متناسق وفيه أخاديد آثار جراح:

- أنا ميكانيكي وهما عاملا ثقابة. سنغادر غداً، وسنبحث عن عمل في هوانكايو. هذه هي ليلة الوداع في ناكوس.

ـ لقد كان المعسكر مثل اللمبو حتى وهو ممتلئ بالناس، فكيف وهو مقفر الآن. أليس هذا محزناً؟ ـ قال ليتوما.

سمع ضحكة حجرية وتعليقاً خافتاً من الرجل الآخر ـ وهو شاب يرتدي قميصاً أزرق يظهر تحت كنزة رمادية، ولكنه سها عنهما، لأن الثالث الذي كان يرقص مع دونيا أدريانا غضب من شيء ما.

ـ لماذا تبعدين جسمك عني أيتها العجوز. ـ كان يحتج بصوت أخنّ وهو يحاول الالتصاق أكثر بالمرأة: ـ لن تقولي لي الآن أنه لم تعد تروقك ملامسته. ما الذي جرى لك أيتها العجوز.

كان رجلاً متوسط القامة، له أنف شديد البروز وعينان مضطربتان وغائرتان وقد توقدتا مثل جمرتين بفعل الخمر أو التهيج. وفوق الأفرهول الباهت كان يرتدي كنزة من وبر الألبكة، من تلك التي تحوكها الهنديات في القرى الجبلية وينزلن لبيعها في أسواق المهرجانات، وكان يرتدي فوقها سترة مشدودة على جسده، لقد كان يبدو حبيساً داخل ثيابه.

ـ أهدأ وأبعد يديك وإلا لن أرقص معك. ـ قالت له دونيا أدريانا ذلك أخيراً دون غضب، وهي تبعده عنها قليلاً، وترصد ليتوما بطرف عينها: ـ الرقص شيء وما تريده أنت شيء آخر أيها الماكر.

ضحكت وضحك كذلك الرجلان اللذان كانا يشربان البيرة. وسمع ليتوما ضحكة ديونيسيو المبحوحة من وراء منضدة الكونتوار. ولكن الرجل الذي كان يرقص لم يكن راغباً في الضحك. فوقف وهو يترنح، ثم التفت نحو الخمّار ووجهه يشع بالغضب:

ـ يكفي يا ديونيسيو. ـ صرخ، ورأى ليتوما فمه وقد تحول إلى لطخة زبد خضراء وكأنه كان يمضغ أوراق الكوكا: ـ قل لها أن ترقص! قل لهذه التي لا تريد أن ترقص معي!

فضحك ديونيسيو مرة أخرى:

ـ هـي تريـد أن تـرقص، ولكنـك أنـت الـذي تريـد أن تمـد يـدك. وهذان شيئان مختلفان، ألا ترى ذلك ـ قـال وهـو مـا يـزال يحـرك يديـه وقدميه كأنه دب:

كانت دونيا أدريانا قد رجعت للوقوف وراء منضدة الكونتوار، إلى جانـب زوجهـا. وأسندت مرفقيهـا علـى الألـواح الخشبية واضـعة رأسها بين كفيها، وراحت تراقب الجدل بنصف ابتسامة متجمدة، وكأن الأمر لا يعنيها.

بـدا علـى الرجـل فجـأة أنـه لم يعـد مهتمـاً بغـضبه. فتراجـع نحـو رفـيقيه اللـذين أمسكـا بـه كـي لا يـسقط أرضـاً. قدما إليـه البيرة، وشرب من فم الزجاجة رشفة كبيرة. لاحظ ليتوما أن عينيـه تلمعـان، وأنه لدى مرور السائل من زوره تتحرك حنجرتـه إلى أعلـى وأسـفل مثـل حيوان حبيس. ذهب العريف ليستند كذلك إلى منضدة الكونتوار، قبالـة الخمّـار وزوجتـه، وفكـر «لقـد سـكرت». ولكنهـا سـكرة بـلا مرح ولا روح، مختلفة تماماً عن سكراته فـي بيورا مع أخوته المنيعين. إنهـا ميتـشي. «إنهـا هــي، إنهـا هــي» الفتـاة نفـسها الـتي صـاحبها خوسيفـينو، والـتي رهنها لكـي يواصـل اللعب بـالنرد، والـتي لم يعـد إلى رؤيتها مطلقاً. كم من المياه مرت منذ ذلك الحين. يا للعنة. وكـان مـستغرقاً جـداً فــي ذكرياتـه فلـم ينتبـه فــي أي لحظـة جـاء ذلـك الـشخص الـذي أراد ملامسة دونيـا أدريانـا ووقـف بجانبـه. كـم كـان يبدو غاضباً. كان يقف قبالة ديونيسيو بوضعية ملاكم:

ـ ولماذا لا يمكنني مداعبتها فضلاً عن مراقصتها؟ـ كان يقول له وهو يضرب خشب المنضدة: ـ لماذا؟ أخبرني، هيا يا ديونيسيو.

فرد عليه الخمار وهو يشير إلى ليتوما:

ـ لأن السلطة موجودة هنا. وأمام السلطة يجب التصرف بأدب.

كان يحاول المزاح، ولكن ليتومـا لاحـظ أن هنـاك سـخرية وسـوء

نية وراء كلمات ديونيسيو، كما هي عادته كلما تكلم. فقد كان الخمار ينظر إلى السكران وإليه بالتناوب، وبابتهاج.

فصرخ المخمور دون أن يتنازل بإلقاء نظرة على ليتوما:

ـ أي سلطة وأي كلام فارغ، لا تأتني بهذه النذالات الآن. جميعنا هنا متساوون، وإذا كان هناك من يريد التظاهر بشيء آخر فإنني أشخ عليه. ألا تقول أنت دائماً بأن الشراب يساوي بيننا؟ ما هو الصحيح إذن؟

بحث ديونيسيو عن ليتوما بعينيه وكأنه يقول له: «ما الذي ستفعله الآن، فهذا الكلام موجه ضدك أكثر مما هو ضدي». ودونيا أدريانا كانت تنتظر كذلك رد فعله، وكان بإمكان ليتوما أن يشعر بعيون الرجلين الآخرين مسلطة عليه. فقال:

ـ لست هنا بصفتي حارساً أهلياً، وإنما مثل أي زبون. فهذا المعسكر قد أغلق. ولا أريد أي مشاكل. من الأفضل أن نشرب.

رفع كأسه، وحاكاه المخمور بوداعة، رافعاً يده الفارغة، وقال بجدية: «في صحتك أيها العريف».

ـ هذه المرأة التي مع توماسيتو الآن كنت قد عرفتها وهي صبية صغيرة ـ قال ليتوما بفم مفتوح ـ. وقد أصبحت الآن أجمل مما كانت عليه في صباها، في بيورا. إذا ما رآها خوسيفينو أو لا تشونغا فسوف يذهلان لجمالها الآن.

ـ أنتما كاذبان. ـ قال المخمور وقد غضب من جديد، وكان يضرب المنضدة ويقرب رأسه من الخمّار بازدراء: ـ أقول لك ذلك في وجهك. يمكنكما أن تخدعا الجميع، أما أنا فلا.

لم يبد ديونيسيو أدنى قدر من الغضب. ولم تتأثر ملامحه، ما بين المنفعلة والوديعة، ولكنه توقف عن تقليد حركات الدب. كان يحمل في يده زجاجة البيسكو التي يملأ منها كأس ليتوما بين

وقت وآخر. فملأ كأساً أخرى بهدوء شديد وقدمها إلى المخمور بحركة ودية:

- ما تحتاج إليه هو كأس جيد يا صاحبي. البيرة للناس الذين لا يعرفون ما هو الجيد، ويرغبون في الانتفاخ والتجشؤ. هيا، جرب وتذوق العنب.

«لا يمكن أن تكون ميرثيدس هذه هي ميشي»، فكر ليتوما. لقد أخطأ، إنها تشوشات الخمر. ومن خلال الغمامة رأى المخمور ينصاع: يأخذ الكأس التي قدمها إليه ديونيسيو، ويستنشق رائحتها ويشربها في رشفات قصيرة متباعدة وهو يغمض عينيه. بدا أنه استكان، ولكنه ما إن فرغ من شرب الكأس حتى عاد للغضب:

- إنكما كاذبان، وهذا حتى لا أقول لكما ما هو أسوأ. - زمجر وهو يقرب وجهه المتوعد مرة أخرى من الخمّار الهادئ: - وتدعيان بأنه لن يحدث شيء؟ وها قد حدث كل شيء! جاء الهوايكو، وتوقف العمل في الطريق، وسرحونا من العمل. وبالرغم من تلك الأشياء الفظيعة، أصبح حالنا أسوأ من السابق. لا يمكن لكما أن تدسا أصبعكما في الناس وتبقيا مطمئنين، تراقبان المباراة من الشرفة.

وقف يلهث وقد تبدلت ملامحه. كان يفتح عينيه ويغمضهما ويلقي نظرات مرتابة على ما حوله، أهو مذعور لأنه قال ما قاله؟ راقب ليتوما الخمّار. لم يكن ديونيسيو قد تأثر، وكان يملأ الكؤوس من جديد. وخرجت السيدة أدريانا من وراء المنضدة وأمسكت بيد المخمور:

- تعال لنرقص، كي يزول غضبك. ألا تعرف أن الغضب مؤذ للصحة؟

كانت تصدر عن المذياع موسيقى لا يمكن تمييزها بسبب التشوشات. وأخذ الرجل يرقص رقصة بوليرو متعلقاً بدونيا أدريانا

مثل قرد. ومن خلال الغمامة التي ما زالت تغطي عينيه، رأى ليتوما أن السكران الذي يتعلق بها، كان يداعب في الوقت نفسه مؤخرتها ويدعك فمه وأنفه برقبتها.

سأل ليتوما الخمّار:

- أين ذهب الآخران اللذان كانا يشربان البيرة هناك قبل قليل.

فأخبره ديونيسيو:

- لقد خرجا منذ عشر دقائق. ألم تسمع الباب؟

- وأنت، ألا يهمك أن يمد الرجال أيديهم إلى امرأتك أمام عينيك؟

هز ديونيسيو كتفيه:

- السكارى لا يعرفون ما الذي يفعلونه. - ضحك مهتاجاً، وتنشق الكأس التي يحملها في يده: - ثم ما الضرر في ذلك. نقدم إليه عشر دقائق من السعادة. انظر كيف يتلذذ. ألا تحسده؟

كان الرجل القصير معلقاً تقريباً فوق السيدة وقد توقف عن الرقص. لم يكن يتحرك من مكانه، وكانت يداه تجوبان ذراعي وكتفي وظهر وصدر المرأة. بينما شفتاه تبحثان عن فمها. وكانت هي تتركه يفعل ذلك، وعلى وجهها تعابير الضجر، وشيء من الاستياء.

- إنه يتحول إلى بهيمة - بصق ليتوما على الأرض -. لا يمكنني أن أحسد بهيمة مثله.

فضحك ديونيسيو وتحول ثانية إلى دب:

- الحيوانات أكثر سعادة مني ومنك أيها السيد العريف. إنها تعيش لتأكل وتنام وتنكح. فهي لا تفكر وليست لديها هموم. أما نحن فلدينا همومنا، إننا تعساء. وهذا الذي هناك، إنه يزور الآن حيوانه، وانظر كم هو سعيد.

اقترب العريف من الخمّار أكثر وأمسكه من ذراعه:

- ما هي تلك الأشياء الفظيعة التي تحدث عنها؟ تلك التي

فعلتموها كيلا يحدث شيء، كيلا يحدث ما حدث. ما هي تلك الأشياء؟

فرد عليه ديونيسيو وهو يقوم بحركات خرقاء وبليدة وكأنه ينفذ أوامر المروض:

- اسأله أيها السيد العريف. إذا كنت تصدق ما يقول سكران، فاذهب إليه وليخبرك هو. أخرج من فضولك دفعة واحدة. أجبره على التكلم، أسحب منه ما تريد بالرصاص.

أغمض ليتوما عينيه. كل شيء كان يدور فيه، وهذه الزوبعة ستبتلع كذلك توماسيتو وميرثيدس وهما متعانقان في اللحظة التي يكون حبهما على أشده.

- لم يعد يهمني أي شيء - تلعثم -. لقد أسدلت الستار، لقد رميت المفتاح. فقد جاء أمر نقلي. سأذهب إلى أعالي مارانيون وسأنسى سلسلة الجبال. إنني سعيد لأن الآبووات قد أرسلوا الهوايكو إلى ناكوس. ولأن العمل في الطريق قد توقف. بفضل الآبووات صار بإمكاني الذهاب. لم أشعر في حياتي بالتعاسة مثلما شعرت بها هنا.

فقال الخمّار مؤيداً:

- أيوه، مع البيسكو بدأت تتوضح لك الحقائق. مثلما يحدث للجميع أيها السيد العريف. إذا واصلت على هذا المنوال فسوف تزور حيوانك أنت أيضاً. ماذا سيكون؟ الحرذون؟ الخنزير؟

بدأ المخمور بالصراخ، فالتفت ليتوما لينظر إليه. وما رآه ملأه بالقرف. فالرجل المحشو في سترته - السجن كان قد فتح سرواله وكان يمسك عضوه بكلتا يديه، ويعرضه على دونيا أدريانا، أسود ومنتصباً، ويصرخ بلسانه المعقود:

- اعبديه أيتها العجوز، اركعي وضمي كفيك وقولي له: «أنت معبودي». كفاكِ تصنعاً.

داهمت ليتوما نوبة ضحك. ولكنه كان يشعر برغبة في التقيؤ، وكانت تدور في طواحين رأسه الشكوك حول ميرثيدس. أتكون هي فتاة بيورا أم لا؟ لا يمكن وقوع كل هذه المصادفات، يا للعنة العاهرة. هل تكلّم هذا المعتوه عن أشياء فظيعة؟

دارت السيدة أدريانا على عقبيها ورجعت إلى منضدة الكونتوار. وكانت هناك من جديد، تستند إلى مرفقيها وتنظر بأكبر قدر من عدم المبالاة إلى السكران ذي السروال المفتوح. وكان هو يتأمل عضوه بنظرة كئيبة في وسط المحل.

قال ديونيسيو:

ـ كنت تتحدث عن أشياء فظيعة أيها السيد العريف. فهل رأيت ما هو أفظع من هذا المشهد.

أطلق قهقهة عالية، وضحكت معه دونيا أدريانا أيضاً. وقلدهما ليتوما مجاملاً، إذ لم تكن لديه رغبة في الضحك. فقد تأتيه تشنجات القيء في أي لحظة.

ـ سآخذ هذا الفحل معي ـ قال لهما ـ. لقد أصبح مزعجاً جداً ولن يترككما بسلام طوال الليل.

فقال ديونيسيو:

ـ لا تقلق بشأني، فأنا معتاد. هذه المشاهد جزء من عملي.

ـ كم الحساب؟ ـ سأله العريف وهو يمد يده إلى محفظته.

فمد ديونيسيو يده إليه:

ـ هذه الليلة على حساب المحل. ألم أقل لك إنني أصفي الموجودات؟

ـ شكراً جزيلاً إذن.

ذهب ليتوما إلى حيث كان السكران. أمسكه من ذراعه، ودفعه دون غضب باتجاه الباب:

- أنا وأنت سنخرج لنشم الهواء فـي الخارج يا صاحبي.

لم يُبد الرجل أدنى مقاومة. وكان يرفع سرواله بسرعة، فدمدم وهو يترنح:

- بالطبع أيها العريف. فالناس يتوصلون إلى التفاهم بالحوار.

❖ ❖ ❖

كان ينتظرهما فـي الخارج ظلام جليدي. لم يكن هناك مطر ولا رياح كما فـي ليال أخرى، ولكن درجة الحرارة انخفضت كثيراً عما كانت عليه فـي المساء، وأحس ليتوما بأن أسنان العامل تصطك، وكان يشعر به يرتعش وينكمش على نفسه فـي ملابسه التي مثل قميص تقييد المجانين.

- أعتقد أنك تنام فـي العنبر الذي لم يدمره الهوايكو - قال له ليتوما وهو يسنده من مرفقه - سأرافقك يا صاحبي. فليتأبط كل منا ذراع الآخر، فقد نحطم رأسينا بين الحفر فـي هذا الظلام.

كانا يتقدمان ببطء، يترنحان، يتعثران فـي العتمة التي لم تخفف منها نظرات النجوم وبريق الهلال الخافت. وبعد خطوات قليلة أحس ليتوما بأن الرجل ينحني على نفسه ممسكاً معدته.

- هل تشعر بتشنجات؟ تقيأ فتتحسن. حاول، حاول، إلى أن يخرج منك كل القرف، سأساعدك فـي ذلك.

كان الرجل منحنياً يرتعش مع تشنجاته، فوقف ليتوما وراءه وراح يضغط له على معدته بكلتا يديه مثلما فعل مرات ومرات لرفاقه المنيعين فـي بيورا، حين كانوا يخرجون ثملين من بار لاتشونغا.

فاحتج السكران فجأة بنصف لسانه:

- إنك تنكحني.

- هذا ما تريده أنت - ضحك ليتوما - ولكنني لا أميل إلى الرجال أيها الفحل.

وزمجر الآخر بين تشنجاته:

ـ ولا أنا أيضاً. ولكن المرء يتحول في ناكوس إلى مخنث، بل وإلى أشياء أخرى أسوأ.

أحس ليتوما بأن قلبه يخفق بشدة. هنالك شيء ينهش هذا الرجل من الداخل وهو يريد أن يتقيأه أيضاً. إنه يريد التخفف من شيء بروايته إلى أحدما.

وأخيراً انتصب المخمور وهو يطلق زفرة راحة.

ـ إنني أحسن حالاً. ـ وبصق وهو يفتح ذراعيه ـ يا للبرد القذر هنا.

ـ إن دماغ المرء ليتجمد ـ أيده ليتوما ـ. من الأفضل أن نتحرك.

أمسك كل منهما بذراع الآخر ثانية وتقدما، وكانا يطلقان اللعنات كلما تعثرا بحجر أو غطست أقدامهما في الوحل. وأخيراً ظهرت كتلة العنبر أمامهما، أكثر قتامة من الظلمة المحيطة به، كان يُسمع صفير الرياح في أعالي الجبال، أما حيث هما فكل شيء صامت وهادئ. كان ليتوما قد تخلص من مفعول الكحول، وصار يشعر بالصحو والصفاء. بل إنه نسي ميرثيدس وتوماسيتو اللذين يتبادلان الود هناك فوق، في الموقع؛ ونسي كذلك ميتشي التي عرفها منذ سنوات عديدة في بار الرمال المجاورة لملعب كرة القدم في بيورا. وكان دماغه الذي يوشك أن ينفجر مشغولاً بفكرة واحدة فقط: «يجب أن أجعله يتكلم».

ـ حسن، فلندخن سيجارة يا صاحبي قبل النوم ـ قال له.

ويبدو أن السكران قد تخلص أيضاً من سكره:

ـ وهل ستبقى هنا؟

ـ إنني أشعر بالوهن ولا أريد الصعود إلى الموقع الآن. ثم إنني لا أريد مقاطعة العاشقين هناك. أعتقد أنه يوجد فراش هنا.

ـ قل أسرة. فقد أخذوا كل الفرش.

سمع ليتوما بعض الشخير في أقصى العنبر. وألقى الرجل بنفسه على أول سرير إلى اليمين، بجانب الباب. وأشعل العريف عود الثقاب ليتعرف على المكان: كان هناك سريران من ألواح خشبية إلى جانب ذاك الذي استلقى عليه المخمور. جلس على أقربهما منه. أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارتين. قدم إحداهما إلى العامل بصوت لطيف:

- ليس هناك مثل السيجارة الأخيرة في السرير، بانتظار النوم.

- قد أكون سكران ولكنني لست نذلاً - قال الرجل ذلك، ورأى ليتوما جمرة السيجارة تتوهج في العتمة، وتلقى نفثة من الدخان في وجهه، بينما واصل الرجل: - لماذا بقيت هنا؟ ما الذي تريده مني؟

- أريد معرفة ما جرى لأولئك الثلاثة. - قال ليتوما ذلك بصوت خافت، وقد فوجئ بخوفه: «ألست أضيع كل شيء بهذا؟» ولكنه تابع قائلاً: - ليس ذلك لأنني أريد اعتقال أحد. ولا إرسال أي تقرير إلى القيادة في نانكايو. وليس من أجل العمل. وإنما بدافع الفضول فقط يا صاحبي. أقسم لك. ما الذي جرى لكاسيميرو هواركايا وبيدريتو تينوكو وميداردو يانتك، الشهير بديميتريو تشانكا؟ أخبرني بذلك بينما نحن ندخن هذه السيجارة الأخيرة.

- لن أخبرك ولو مت. - شخر الرجل وهو يتنفس بقوة. كان يتحرك في السرير، وفكر ليتوما في أنه سينهض واقفاً الآن ويخرج راكضاً من العنبر ليذهب إلى حيث ديونيسيو ودونيا أدريانا. ولكن الرجل أردف: - لن أخبرك حتى لو قتلتني. حتى لو سكبت علي بنزيناً وأشعلتني بعود ثقاب. يمكنك أن تبدأ أساليب التعذيب تلك التي تمارسونها على الإرهابيين إذا شئت. فلن أخبرك حتى ولو عذبتني.

فقال ليتوما بتمهل مبالغاً في لطفه:

- لن ألمس شعرة واحدة منك يا صاحبي. ستخبرني بذلك وسأذهب. وغداً ستغادر أنت ناكوس، وأنا سأغادرها أيضاً. كل منا سيذهب

فـي سبيله. ولـن يـرى أحدنا وجـه الآخـر أبـداً. بعـد أن تخبرنـي سنـشعر كلانا بالتحسن. أنت لأنك ستنتزع المسمار الذي بـداخلك، وأنـا أيـضاً لأني سأتخلص من المسمار الـذي يـوخزني هنـا منـذ زمـن. لـست أعـرف اسمك ولا أريد أن أعرفه. أريـد فقـط أن تـروي لـي مـا جـرى. حتـى ننـام كلانا مطمئنين يا صاحبي.

سـاد صمت طويـل، يقطعـه الـشخير المتقطـع القـادم مـن أقـصى العنبر. وكـان ليتوما يرى توهـج جمرة سيجارة المخمور بين حين وآخر، وارتفاع غمامة من الدخان تدخل إلى أنفه وتدغدغه أحيانـاً. لقـد كـان مطمئناً. فهو واثق ثقة مطلقة من أن الرجل سيتكلم.

ـ قدموهم قرابين للآبووات، أليس كذلك؟

ـ للآبووات؟ سـأله الرجل وهو يتحـرك. وكـانـت عـدوى قلقـه تنتقـل إلى العريف الذي كان يشعر أحياناً بحكـة متعجلة فـي أنحاء متعـددة من جسده.

ـ أرواح الجبـال ـ أوضـح لـه ليتومـا ـ. الآمـارو، المـوكـي، الآلهـة، الـشياطين، مـا أسمهـم. أولئـك الـذين يتـوارون فـي الجبـال ويـسببون الكـوارث. هـل ضـحوا بهـم حتـى لا يـأتي انهيـار الهوايكـو؟ حتـى لا يجـيء الإرهـابيون لقتـل النـاس أو اقتيـادهم؟ حتـى لا يجفـف البيستاكوات أي عامل؟ هل هذا هو السبب؟

ـ لست أعرف لغة الكيتشوا ـ شخر الرجل ـ ولم أسمع قبل اليوم بهذه الكلمة، أقلت آبوو؟

فألح ليتوما:

ـ ألم يكن هذا هو السبب يا صاحبي؟

ـ لقد كـان ميداردو من بلدتي، فأنـا أيضاً مـن انداماركـا ـ قـال الرجل ـ وقد كـان هو الحاكم هناك. وهذا ما خوزق ميداردو.

ـ هل أنت حزين على مراقب العمـال أكثر؟ ـ سـأله ليتومـا ـ أظـن

أن الاثنين الآخرين لا يعنيانك مثل ابن بلدتك. وأنا أيضاً أشعر بحزن أكبر على الأبكم، بيدريتو تينوكو. هل كنتما صديقين أنت وديميتريو، أعني ميداردو يانتك؟

- كان كل منا يعرف الآخر. لقد كان يعيش مع زوجته هناك في الأعلى، على السفح وكان يرتجف خوفاً من أن يعرف الإرهابيون أنه هنا.

لقد أفلت منهم في اللحظة المناسبة حين داهموا انداماركا. أتعرف كيف هرب؟ بالاختباء في قبر. لقد كنا نتبادل الأحاديث أحياناً. وأكثر ما كان يضايقه هو كلام أولئك العمال الذين من أياكوتشو ومن أبانكي وهو انكافيليكا فقد كانوا يقولون له: «سيمسكون بك عاجلاً أو آجلاً. إنك تورط الجميع ببقائك في ناكوس. انصرف، اذهب من هنا».

– لهذا السبب ضحوا بمراقب العمال؟ لكي ينالوا رضى الإرهابيين؟

اعترض العامل بهياج وهو يدخن وينفث الدخان دون توقف، وبدا كما لو أن السكر قد عاوده:

- ليس لهذا السبب فقط. ليس لهذا السبب وحده، اللعنة.

- لأي أسباب أخرى إذن؟

– لقد قال ملعونو الأم هؤلاء بأنه محكوم بالموت، وعاجلاً أو آجلاً سيأتون لتنفيذ حكم الإعدام به. وبما إنه كان يلزمهم شخص، فمن الأفضل أن يكون ممن وردت أسماؤهم في قائمة الإرهابيين، لأنه سيموت عاجلاً أو آجلاً.

– تريد أن تقول إنه كانت هناك حاجة إلى دم بشري، أليس كذلك؟

ثارت حفيظة الرجل:

ـ ولكنهما كانت خدعة كبرى، لقد لعبا بنا على هواهما. ألم نبق دون عمل؟ هل تعرف ما الذي يقولانه الآن؟

ـ ماذا يقولان.

ـ إننا لم نقدم التضحيات الكافية ولهذا غضبوا علينا. وحسب قول هذين اللذين سأفعل بأمهما، كان علينا أن نفعل مزيداً من الأشياء. هل تلاحظ ذلك؟

ـ إنني ألاحظ طبعاً ـ همس ليتوما ـ. يا للفظاعة في قتل ذلك الأمهق، ومراقب العمال، والأبكم من أجل آبووات لم يرهم أحد قطّ وليس هناك من يعرف إذا كانوا موجودين حقاً.

ـ القتل هو أهون ما في الأمر. ـ زمجر الرجل المستلقي، وفكر ليتوما بأن ذاك أو أولئك النائمين في أقصى العنبر سيستيقظون ويجبرونه على الصمت. أو أنهم سيأتون على رؤوس أصابعهم ويكممون فم المخمور. وسيحملونه هو نفسه لأنه سمع ما سمعه، إلى فتحة المنجم المهجور ويلقون به إلى القاع. وواصل الرجل: ـ ألا يوجد موتي في كل مكان؟ القتل هو أهون ما في الأمر. أولم يصبح القتل أمراً عادياً مثل التبول والتبرز؟ ليس هو ما يخوزق الناس. ليس أنا وحدي، وإنما كثيرون ممن ذهبوا كذلك. إن ما يخوزقنا هو الشيء الآخر.

ـ الشيء الآخر؟ ـ أحس ليتوما بقشعريرة.

فهمس المخمور وقد انشرخ صوته:

ـ الطعم في الفم. إنه لا يزول، مهما غسل أحدنا فمه. إنني أشعر به الآن. وفي حلقي أيضاً. بل إنني أشعر به حتى في بطني. وكأنني انتهيت من المضغ لتوي.

أحس ليتوما بعقب السيجارة يحرق أصابعه فأفلته. داس بقدمه على الشرارات. لقد فهم ما كان الرجل يقوله ولم يعد يريد معرفة المزيد.

- تعني أنكم فعلتم ذلك أيضاً - دمدم - وظل يلهث وفمه مفتوح
- الطعم لا يفارقني حتى وأنا نائم - أكد المخمور -. إنه يزول عندما أسكر فقط. ولهذا أصبحت سكيراً. ولكن السكر يؤذيني، فهو يفتح قرحة معدتي، وقد عدت أتبرز دماً من جديد.

حاول ليتوما أن يسحب سيجارة أخرى ولكن يديه كانتا ترتعشان بشدة، فأفلت منه علبة السجائر. بحث عنها متلمساً الأرضية الرطبة، المليئة بأعقاب السجائر وأعواد الثقاب.

وقال العامل متلعثماً:

- الجميع شاركوا، ومع أنني لم أكن أريد ذلك، فقد شاركت معهم. وهذا هو ما يخوزقني. اللقم التي ازدردتها.

وأخيراً تمكن ليتوما من العثور على علبة السجائر. أخرج منها سيجارتين. وضعهما في فمه، وكان عليه أن ينتظر بعض الوقت قبل أن تتمكن يده من تثبيت عود الثقاب لإشعالهما.

قدم واحدة للرجل المستلقي دون أن يقول شيئاً، رآه يدخن، وتلقى مرة أخرى نفثة من الدخان النتن في وجهه، وأحس بالحكة في أنفه.

- بل إنني أخاف الآن من النوم - قال المخمور -. لقد أصبحت جباناً، وهو ما لم أكنه مطلقاً من قبل. ولكن، هل يستطيع أحدنا مشاجرة النعاس؟ إذا لم أسكر تداهمني الكوابيس.

- أترى نفسك وأنت تأكل مواطنك؟ أهذا ما تحلم به؟

فأوضح العامل بكل وداعة:

- نادراً ما أغفو. إنهما ينامان. لقد قطعا خصاهم وشرحاها إلى شرائح وأقاما عليها مأدبة وكأنها إحدى اللذائذ. - داهمته نوبة تشنج وأحس به ليتوما يتكور على نفسه: - عندما أغفو تصبح الأمور أسوأ. هذان الاثنان يأتيان وينتزعان خصيتي أيضاً بأيديهما. يأكلانها

أمامي. إنني أفضل السكر على رؤية هذه الأحلام. ولكن، ماذا عن القرحة؟ قل لي إذا كانت هذه حياة. يا للعنة.

نهض ليتوما واقفاً فجأة:

ـ أرجو لك الشفاء يا صاحبي. ـ قال ذلك وهو يشعر بدوار. وكان عليه أن يستند للحظة إلى السقالة، ثم أضاف: ـ عسى أن تجد عملاً حيث أنت ذاهب. لن يكون ذلك سهلاً على ما أظن. ولا أعتقد أنك ستنسى هذا كله بسهولة. أتعرف؟

ـ ماذا؟

ـ إنني نادم لإصراري على معرفة ما جرى لأولئك الأشخاص. كان من الأفضل أن أبقى مرتاباً. سأذهب الآن وأتركك لتنام. حتى لو اضطررت لقضاء الليل في العراء، كي لا أزعج توماسيتو. إلا أنني لا أريد النوم بجانبك، ولا بالقرب من هؤلاء الذين يشخرون. لا أريد أن أستيقظ غداً وأرى وجهك وأتحدث معك بصورة طبيعية. سأخرج لأستنشق بعض الهواء، اللعنة.

مضى نحو باب العنبر متعثراً، وخرج متلقياً صفعة هواء جليدي. وبالرغم من تشوشه فقد أدرك أن الهلال الرائع والنجوم تضيء دائماً بوضوح، من السماء الصافية، قمم الأنديز المشظاة.